المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الدعوة وأصول الدين
قسم الكتاب والسنة
مكة المكرمة



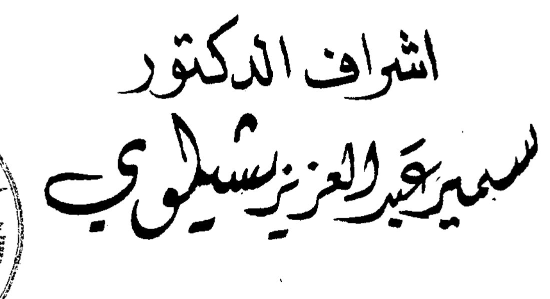

الإبتلاء في القرآن الكريم

رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في الكتاب والسنة

إعداد الطالب
محمد عبد العزيز الحمادي الرحالي



اشراف الدكتور
سمير عبد العزيز شيلوي




١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م

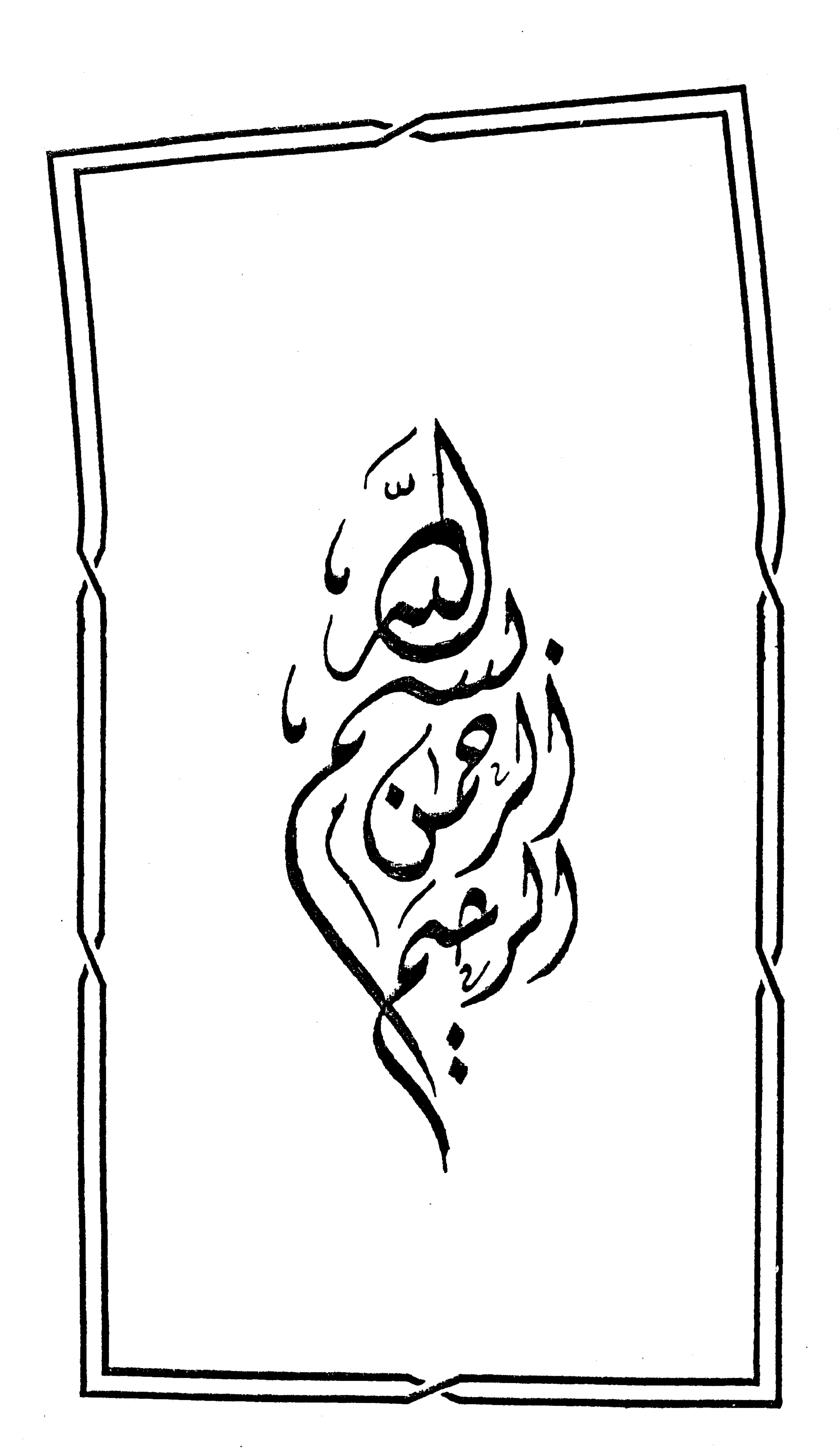


وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ
فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا
كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ

سورة المائدة آيه ـ ٤٨

وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ

سورة الأنبياء آية ـ ٣٥


بسم الله الرحمن الرحيم

وَقَالَ إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ

حديث قدسي

أخرجه مسلم كتاب [illegible] الجنة وصفة نعيمها وأهلها
بشرح النووي ج ١٧ / ١٩٧

كلمة الناشر

كلمة شكر

لله الحمد والشكر وحده ،فهو الذى سددني وهداني الى هذا السبيل ، سبيل طلب العلم الذى لا زكاة لنفس الانسان الا باجتنائه ،والتلذاذ بالمحافظة على ثمراته فبفضله ـ وهو الكريم ـ وصلت الى ما وصلت اليه وبفضله وحده وفق المسئولون في جامعة أم القرى لقبولي في الدراسات الاسلامية العليا . فكانت النتيجة اعداد هذه الرسالة المباركة التي لم أسبق الى تأليف مثلها من حيث موضوعها .

فجزى الله خيرا كل من وقف في جانبي أثناء اعدادها وحفظه من كيد الكائدين وحسد الحقودين انه عليم خبير .

المقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمــــة

أحمد الله بجميع محامده وأثنى عليه بما هو أهله. حمدا يبلـــغ رضـــاه ،وثناء يكافى مزيده ،ويجيرني من سخطه معتقدا أنه سبحانــه خلق الانسان ، لا لعب ولغـــو ولكنه للعمل بطاعته وهديه ولقصــد حمده وشكره ، فمن الله عليه بالسمع والبصر وفضله بالعقل والفكر ، فهـدى من التزم سبيل الرشاد ، وأضل من اختار سبيل الخسران والعنـــاد ، فأكرم من عمل الصالحات فيما ابتلاه ربـــه به ، وأهان من أظهر الجحــود والنكران فيما اختبر به .

وأصلى وأسلم صلاة وسلاما دائمين متلازمين الى يوم الديـــن على سيدنا محمد بن عبدالله الذى أخبر أن الجنة محفوفة بالمكاره ،فدعـا الى تحملها بالصبر على مضارها ،كما أخر أن النار محفوفة بالشهوات فحذر من الانغماس في ملاذها .

وعلى آله وصحابته الذين صبروا على تحمل مشاق الدعوة الى اللـه . فبلغوا ما أمروا به لعباد الله من نور وهدى ورشاد فخاضوا بذلك غمـــار البرارى والبحـار فكانوا خير أمة أخرجت للناس ، وأحسن جيل حمل لــواء السعادة للبشرية ، فكانوا بذلك أعدلها حيث أيدهم الله بقوة الصبر علـى السراء والضراء وهداهم الى نعمة الشكر على ما هم فيه من آلاء .

وبعد : فان مما من الله به علي أن جعلني في حظيرة طــلاب العلم الشرعي ،وذلك شرف أيما شرف ،ومنزلة ما فوقها منزلة في الحيــاة ،

منزلة حق لصاحبها رفع رأسه أمام الأقران والقول في كل محفل ومكان
إن أخلص في طلبه كان في جملة الوارثين للأنبياء وان عمل به
كان في عداد الصديقين ، وهذه المنزلة ينالها العبد في كل علم
وهي في المنقول عن خير البشر أخص وأولى ،وفيما يتعلق بقول رب البرية
هو أعظمها مقدارا وأرفعها شرفا ومنارا ،بالدرس فيه والتعلم ينجلي
صدأ القلوب ، وبالتدبر فيه والعمل بأحكامه تستصبح الأفهام ،وبالنور
المقتبس منه تستضاء الأحلام ، اذ العلم به والعمل بهديه مطية للخلود
في الجنان .

ولما وفقت للرشف من قليل معينه الذى لا ينضب واستهديت
بمعرفة مراميه التي هي في كل حين تتجدد ،رأيت أن أدخل الباب
فيما يشفي غليل ما كان العقل فيه حائرا والفكر فيه تائها والكثرة
الكاثرة من الناس تتساءل عما تفرع في الحياة من مجرياته .

فاذا القرآن الكريم فيه هداية ذلك الحائر وملاذ ذلك التائه
وبيان منبع تلك الحقائق وتوضيح غايتها ،فانقشع ثوب الظلام لمن
تحير في ذلك . و سطع نور الهداية لمن اهتدى وطلب النجاة من
المهالك .

وذلك أن الانسان قد يرى أن الحياة تقسو على أناس وهم في الظاهر
محسنون . وتزدهر أمام آخرين وهم كما يرون مسيئون . والانسان العاقل
أمام هذا الواقع المشاهد في كل لحظات حياته يجعله يتساءل طالبا

تفسير معنى أن إنسانا يسلك سبيل الضلال والغواية يتمتع بما تشتهيه نفسه وتلذ له رغائبه ،وآخر التزم طريق الهدى في ظاهره والله أعلم بباطنه سدت في وجهه الأبواب ،وتكالبت عليه هموم الشر والنكاد . وامتدت بساحته أطناب الفتن . فيرى طلب الحق والدعوة إليه تهمة يهان صاحبها ، واعتماد المنكر في الحياة منقبة يكرم مرتكبها وإعطاء المنازل لغير أهلها ظاهرة سادت في حياة الناس . فإن قلنا لماذا وقع كل ذلك ؟ قالوا : ذلك هو من قبيل الحظ والبخت حتى قال القائل قديما :

فاذا سمعت بأن مجدودا حوى عودا فأثمر في يديه فصدق

وإذا سمعت بأن محروما أتى ماء ليشربه فغاض فصدق

إلى أن قال :

لكن من رزق الحجا حرم الغنى ضدان مفترقان أي تفرق (١)

وقال الآخر :

ومالي لا تمسي وتصبح في يدي كرائم أموال الرجال الفضائل (٢)

وقال الآخر :

لا تطلبن بآلة لك رتبة قلم البليغ من غير حظ مغزل

سكن السما كان السماء كلاهما هذا له رمح وهذا أعزل

---

(١) من أبيات تنسب للشافعي من بحر الكامل انظر : ديوانه ص ٦٤ ، نشر دار الجيل بيروت.

(٢) من قصيدة لأبي فراس الحمداني من بحر الطويل .

(٣) البيتان من بحر الكامل .

فيكادون يجعلون حركة الانسان في حياته مقصورة على ما يسمونه بختا أوحظا مما لا يشفي غليل السائل ، بل يزيده حيرة وتيها .

لذلك ، ولما لا أعلم حينما سجلت موضوع هذه الرسالة وجود مصنف قد تناول الجواب عن ذلك وأفصح في بيان ما يتعلق به من معان مساقة من مصدر معصوم من الخطأ والزلل ،عزمت متوكلا على الله جلت قدرته في اختيار موضوع يجيب إن شاء الله عن ذلك التساؤل الذى طالما راودتني فكره بعد أن تسهت فيما للحظ قد نسبوه فاتضح أن الأمر ليس له تعلق بحظ أوسعد ،ولكن الأمر كما أخبر به خالق الانسان سبحانه والعالم بكنهه وطبيعته والذى قد كتب في لوح محفوظ عنده ما يعلم أن العبد سيفعله قبل أن توجد العوالم والأكوان ومن ضمنها الانسان وماقد يختاره العبد لمعاده وحاضره وهو أيضا الذى أخرج الانسان الى دار الدنيا ليظهر ذلك المعلوم كما علمه سبحانه ، وليتم ابتلاء عباده من طريق العمل المنطلق من الأمر والنهي والخير والشر فيستحقون الثواب أوالعقاب بما صدر منهم من الأقوال والأفعال المطابقة لعلم الله في سابق قضائه وقدره .

ولولا العمل ما استحق أحد ثوابا ولا عقابا ولكن من عدل الله ورحمته جعل الثواب والعقاب مترتبين على العمل . ومن هنا أرسل الرسل وأنزل الكتب وشرع الشرائع لاقامة الحجة على المخالفين ، حتى لا يدعون

عدم العلم فيما سيتخذونه عذرا لو عوقبوا على ما ارتكبوه من مخالفات إذ من الممكن أن يقولوا كيف نعذب على شيء لم يكن تحت كسبنا وقدرتنا .

ولكن لما ظهر علم الله في أفعال عباده وأقوالهم حصل الثواب أو العقاب على معلومه الذى ظهر من طريق الابتلاء فثبتت الحجة وسقطت الأعذار . وكما ابتلى الله الخلق بالأمر والنهى ابتلاهم أيضا بما زين لهم من الدنيا وبما ركب فيهم من شهوات كما قال عز وجل ﴿ انا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا ﴾ [1] وكما قال سبحانه ﴿ وهو الذى خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا ﴾ [2] وقوله تعالى ﴿ تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا ﴾ . [3]

ففي هذه الآيات الكريمات يتضح للناظر المتأمل المجال الذى يدور فيه ابتلاء الانسان . فقد أخبر سبحانه في آية هود أنه خلق السموات والأرض ليبتلى عباده بأمره ونهيه وهذا من الحق الذى خلق به خلقه حيث أوجد السموات والأرض لنفع عباده الذين خلقهم ليعبدوه . كما أخبر سبحانه في آية الملك أنه خلق الموت والحياة ليبتلى أيضا عباده

----

(١) سورة الكهف آية ٧ .

(٢) سورة هود آية ٧ .

(٣) سورة الملك آية ٢ .

فكانت الحياة ليختبرهم بالأمر والنهي . وكان الموت الذى ينالون بعده عاقبة الابتلاء من الثواب والعقاب كما أُخبر في آية الكهف أنه زين للناس ما على الأرض ليختبرهم ، فيظهر من يؤثر ما عند الله من جزاء مؤجل . ومن يؤثر زينة الحياة الدنيا وزخرفها المعجل وهذا يظهر أيضا من طريق الأمر والنهي إذ منهما انطلق ابتلاء الناس بعضهم ببعض كما قال عز وجل ﴿ وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيرا ﴾(١) ولأن الأمر والنهي سياج يجعل الانسان يتصف بالخلق الجميل مما يقوم به من فعل حميد ، وقول سديد كما يجعله يجتنب كل خلق سيء فيترك كل فعل قبيح وكل قول زور . وهذا يعطينا أن التكليف متضمن لمكارم الأخلاق ومحاسن الأفعال والصدق بالقول والاحسان الى الخليقة ولتكميل الانسان نفسه بأنواع الكمالات .

وبعد ذلك كله تظهر فائدة التكليف الكبرى فيما يتلقاه الانسان من ثواب جزيل مستمر . ولاظهار ذلك كله جاء أمر الله ونهيه كما يتجلى ذلك صريحا في ختام آية جمعت كل ما يتصل بالتكليف سواء كان فرضا أو نفلا أو أدابا أو أخلاقا ،وهي قوله تعالى ﴿ إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ،ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون ، ولاتكونوا

---

(١) سورة الفرقان آية ٢٠ .

كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة إنما يبلوكم به وليبين لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون *.(١)

في مناسبة هذه الآية لما قبلها يقول أبو حيان (٢) : (لما ذكر الله تعالى * ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين *(٣) وصل ما يقتضي التكليف فرضا ونفلا وأخلاقا وآدابا) وقال ابن عطية : (والعدل فعل كل مفروض من عقائد وشرائع وسير مع الناس في أداء الامانات وترك الظلم ، والانصاف وإعطاء الحق والاحسان فعل كل مندوب إليه).(٤)

وقد جاء الأمر بالعدل في عدة آيات في القرآن الكريم كقوله تعالى * إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا *.(٥)

كما جاء الأمر بالاحسان في آيات كثيرة كقوله تعالى * وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين *(٦)

---

(١) سورة النحل آية ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢.

(٢) البحر المحيط جـ٥/٥٢٩ نشر دار الفكر .

(٣) سورة النحل آية ٨٩.

(٤) المحرر الوجيز في تفسير كتاب الله العزيز جـ٨/٤٩٤ ط/الأولى قطر.

(٥) سورة النساء آية ٥٨.

(٦) سورة القصص آية ٧٧.

وقوله تعالى * وقولوا للناس حسنا * .(١)

وإيتاء ذى القربى من الاحسان إلا أن الشيء قد يخص بالذكر اهتماما به وتنبيها على أنه ينبغى الاعتناء به أكثر من غيره . ولذلك جاء الأمر به كما في آية الروم * فئات ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون *(٢) وكما جاء النهي في الاية الكريمة عن الفواحش وإن كانت منكرا لأنها مما أنكره الشرع لقبحه . وكذكر البغي أيضا بعد المنكر . والبغي التطاول والاستعلاء على الناس والتجبر عليهم ،فالمنكر يعم الاثنين إلا أنهما خصا بالذكر لخطورتهما وشناعة ارتكابهما ففي الاية عطف العام على الخاص وعطف الخاص على العام.

ومن الايات التي ذكر فيها النهي عن الفحشاء والمنكر والبغي قوله تعالى * قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون *.(٣)

والوفاء بالعهد أيضا لفظ عام متضمن لقوله تعالى * إن الله يأمر بالعدل والاحسان * إذ كل ما يلتزم به الانسان من قول أو فعل

---

(١) سورة البقرة آية ٨٣ .

(٢) سورة الروم آية ٣٨ .

(٣) سورة الأعراف آية ٣٣ .

لا يخالف الشرع هو عهد يجب الوفاء به (١) . ومن الايات التي جاء فيها الامر بالوفاء بالعهد قوله تعالى ﴿ وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون ﴾ (٢) .

كما بينت الاية أن الإعراض عن الاوامر والنواهي التي أهمها الحلف بالله غدر وخيانة ؛ لأن الأيمان من أخطر المسائل التكليفية . ولا غرابة في ذلك حينما نجد اليمين في الحكم مناصفة مع البينة وذلك أنه إن لم تثبت بينة يكون الحكم تبعا لليمين . وقد جاء التغليظ في الوعيد على الذين يتعمدون الأيمان وهم كاذبون في قوله تعالى ﴿ إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم في الاخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب اليم ﴾ (٣) .

فعدم الوفاء بالعهود كلها يجعل الانسان خاسرا في الابتلاء كحال من تنقض غزلها فكلما غزلت منه شيئا كلما رجعت تنقضه فكذلك الذى يتخذ الأوامر والنواهي نفاقا ورياء وظهورا لا قيمة له ولا ينظر لتحركه في الحياة بمنظار الجد ؛ لأن فعله وقوله مبني على الغش والدخل .

---

(١) أحكام القرآن للقرطبي جـ١٠ / ١٦٩ نشر دار الكتاب القاهرة .

(٢) سورة الانعام آية ١٥٢ .

(٣) سورة آل عمران آية ٧٧ .

يقول الرازى في تفسيره لقوله تعالى * إنما يبلوكم الله به *(١)

أى بما يأمركم وينهاكم وقد تقدم ذكر الأمر والنهي .(٢)

ويقول القرطبي : واختبرهم بذلك ليرى من يجاهد نفسه فيخالفها

ممن يتبعها ويعمل بمقتضى هواها وهو معنى قوله تعالى * إنما

يبلوكم الله به وليبين لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون *.(٣)

هذا فيما يتعلق بالنوع الأول مما يبتلى به العبد وهو التكليف .

وهناك نوع آخر وهو الابتلاء بالنعم والمصائب كما قال عز وجل * وبلوناهم

بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون *.(٤)

فالابتلاء اذن نوعان ولا ثالث لهما : ابتلاء بالأمر والنهي

وابتلاء بالنعم والمصائب . ويجمع ذلك كله قوله تعالى * ونبلوكم بالشر

والخير فتنة وإلينا ترجعون *.(٥)

والمتأمل في الابتلاء بهما يدرك أن كلا منهما ينقسم قسمين :

مقيد ومطلق ، فالمطلق كالخسران في الاخرة باستحقاق غضب

الله وعذابه . وفي الدنيا بالكفر والمعاصي وسيء الأخلاق . وهذا مفض

---

(١) سورة النحل آية ٩٢ .

(٢) التفسير الكبير للرازى م ١٠/ ج ٢٠/ ١١١ نشر دار الفكر.

(٣) ج ١٠ / ص ١٧١ نشر دار الكتاب العربي القاهرة .

(٤) سورة الاعراف آية ١٦٨ .

(٥) سورة الانبياء اية ٣٥ .

الى الأول إن لم يتب صاحبه منه . وشر مقيد كالمصائب التي تصيب الانسان من مرض وخوف وجميع أنواع البلايا الدنيوية ؛ لأنه بالصبر عليها يؤجر الانسان ويترقى في الدرجات العليا . فهو من هذا الوجه ينقلب نعمة . والخير كذلك قسمان : خير مطلق كسعادة الانسان بدخوله دار النعيم في الاخرة وكاتباع طريق النهى بالايمان بالله وما يتبع ذلك من أوامر ونواه وكل ما يشمل حسن الخلق .

وخير مقيد يتصف بالخير به من وجه دون وجه كامتثال أمر الله في لوازم المال كمن يستعمل ما رزقه الله من مال فيما يعود عليه بالمصلحة الخاصة كتلبية حاجة الانسان فيما أحله الله له أو العامة كامتثال أوامر الله فيما أوجب فيه من حقوق وكصرف الانسان ما من الله به عليه من صحة وقوة فيما ينفع الناس ويرضى الله .

ويكون ذلك شرا من وجه كإنفاق المال فيما يغضب الله مما يترتب عليه فساد وضياع .

كل ذلك وما هو من قبيله سبق علم الله به قبل وقوعه . فالابتلاء إذن أظهر علم الله السابق في خلقه وجودا وعيانا بعد أن كان غيبا في علمه ، ومن ذلك ابتلاء أبوى الانس والجن كلا منهما بالاخر فأظهر ابتلاء آدم ما علمه منه وأظهر ابتلاء ابليس ما علمه منه ولذلك قال سبحانه للملائكة * اني اعلم ما لا تعلمون *.(١)

---

(١) سورة البقرة آية ٣٠.

وتتابع هذا الابتلاء في الذرية الى يوم القيامة فابتلى الانبياء بأممهم وابتلى أممهم بهم فقال لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم :

" انما بعثتك لأبتليك وابتلي بك ". (١)

ذلك أن الله سبحانه ربط الاسباب بمسبباتها فجعلها محل حكمته في امره الديني الشرعي وأمره الكوني القدري . ومحل ملكه وتصرفه . فقد جعل سبحانه مصالح العباد في معاشهم ومعادهم وفي الثواب والعقاب والحدود والكفارات والأوامر والنواهي والحل والحرمة ، كل ذلك جعله مرتبطا بالأسباب قائما بها بل العبد نفسه وصفاته وأفعاله سبب لما يصدر عنه بدليل أنه من الطبائع المعروفة والسنن المحسوسة أن الأجسام حينما يحل بها مكروه أو تسعد بمحبوب مرغوب لاشك أن الأنفس تميز بين الصنفين فتعرف أعلى ما هو خير وأسفل ما هو شر بحيث يتتبع الانسان مواقع كل منهما ليحذر مزالقهما . فإما أن يختار أتم ما هو خير ، وإما أن يختار أحط ما هو شر وذلك ما به قد تميز الانسان من غيره .

فامتزاج الخير بالشر يظهر الصابر على المكاره ، والشاكر على النعم والرغائب .

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه أنظره بشرح النووى على مسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها : باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار جـ ١٧ / ١٩٧

والا لانهارت مطالب الجد والظفر . ولاستوى أصحاب الباطل بأصحاب الحق وبالتالي لتعطلت الامال وكسلت النفوس . ولما ظهر أولوا الصلاح والنهى . وعدم حصول ذلك كله ينافي التخيير فلو وجد الشر وحده لكان الانسان مظلوما مقضيا عليه . ولو وجد الخير منفردا لما ظهر الصابرون في قممهم ،ولما فاز المتوكلون في دروبهم ولفقد النظر قيمته والفكر حكمته . فسبحان من جعل الجمع بينهما ضروريا به تتم المصلحة .

ولتوضيح وتجلية أمر ما أوجزته في هذه العجالة أقول :

سلكت في تأليف هذه الرسالة منهجا مبنيا على قواعد علمية استفدتها من مناهج العلماء الذين لهم قدم راسخ في العلم والتأليف والذين لا ينبغي لطالب العلم إغفال منهجهم في ذلك أو الاعراض عما اختاروه من مسالك ؛لأن لهم الدراية في البيان ،وعرفوا بالاخلاص في التمحيص والتقرير فيما يتعلق بمعاني القرآن الكريم من تفسير فكان المنهج كالتالي :

من الواضح للقارىء أن عنوان الرسالة هو ((الابتلاء في القرآن الكريم)) وهذا العنوان سيرسل فكر القارىء للبحث عن علاقة الابتلاء بالانسان الذى هو محل ظهور نتيجته . فاقتضى الأمر بيان علاقة الانسان به فكانت العلاقة هي الخلق والايجاد .

فعقدت الباب الأول بعنوان : "الغاية من خلق الانسان".
متضمنا بيان وتوضيح علاقته بخلق الانسان وبيان حكمة ابتلائه وبيان ما
منّ الله به على الانسان من وسائل إن هو استعملها في الحق حالفه
الفوز فيما كلف به من أوامر ونواه. ولما كان الانسان كذلك أى مبتلى
اقتضى الأمر بيان ما يبتلى به . فعقدت باب"الابتلاء بالخير والشر"
الذى تضمن توضيح معناهما والحكمة من الابتلاء بهما فظهر أن التمييز
بينهما ومعرفة مجال كل منهما يتوقف على فصل "الابتلاء بالتكليف" لأن
التكليف وحده هو الذى يحدد للانسان صفتهما ومجرى فلكيهما.

وهذا المعنى يدعو الانسان الى التطلع لمعرفة مصادر التكليف
ولا شك أنه من عند الله العليم الخبير الذى اختار صفوة من عباده حملهم
أمانة التبليغ ،وهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وهذا أمر يقتضي بيان
معنى النبوة والرسالة والوقوف على صفة أهلها وخصوصياتهم فاقتضى عقد
باب يبين فيه علاقة الانبياء بالابتلاء وعلاقتهم بأممهم وعلاقة أممهم
بهم ،فظهر أن الأمم المدعوة من قبل أنبيائهم كانوا قسمين من حيث
تعرضهما للابتلاء.

قسم ابتلوا فآمنوا فازدادوا إيمانا كلما تعرضوا للاختبار ، وقسم
ابتلوا فلم يؤمنوا فكان الهلاك والخسران محيطان بهما.

هذا فيما يتعلق بخصوص القاعدة التي انطلق منها مبنى الرسالة
العام ،أما بخصوص توضيح هذه المباني وتبسيطها بالمعاني فكان مسلكي

في ذلك كالاتي :

١ - لما كان القرآن عربيا فنزل بلغة عربية كان لزاماأن ينطلق الباحث فيما يتعلق بتفسير كتاب الله العزيز وعرض معانيه من الحقيقة اللغوية ليتضح الفرق بينهما وبين الشرعية والعرفية . ومن هنا كنت كلما رأيت فصلا في الرسالة يعتمد في تقعيد مباحثه وفكره على معنى لغوى تعرضت للحديث عن الحقيقة اللغوية التي هي لفظ مستعمل ابتداء بحيث وضعه أهل اللغة .وهو بهذا أمر توقيفي كوضع لفظ الأسد للحيوان المفترس . ومن المعنى اللغوى يمكن الوقوف على المعنى الشرعي الذى استفيد وضعه من الشارع كالصلاة للأفعال المخصوصة ،والزكاة للقدر المخرج .

وكذلك بالتعرض للمعنى اللغوى بتمييز المعنى العرفى الذى وضعه أهل العرف وهو إما عام كالمنقول من الحقيقة اللغوية الى غيرها للاستعمال العام وهجر الأول كاسم الدابة هو في اللغة لكل ما يدب على الأرض فيشمل السمك والطير فخصصه العرف العام لكل ذات حافر أو عرف خاص كاطلاق لفظ "الفاعل" على الاسم المعروف عند النحاة اوكالأركان التي يبنى عليها القياس عند الاصوليين .(١)

---

(١) ر كتاب جمع الجوامع بحاشية البناني جـ١/١٥٤ المطبعة الشرقية سنة ١٢٩٨هـ.

ونظرا لأن الحقيقة العرفية والشرعية هما في الأصل منطلقتان من الحقيقة اللغوية رأيت أن التعرض للمعنى اللغوى الذى يقتضيه المقام هو من صلب الرسالة فالتزمت بذلك كلما اقتضى الحال.

٢ - نظرا لأن الموضوع يتصف بالشمولية لجميع تحركات الانسان في حياته سواء بما يتعلق بحاضره في الدنيا أومستقبله في الآخرة فأضطر أحيانا للحديث عما قد يتعلق بعلم الاجتماع أو ما هو له تعلق بالاقتصاد أو له تعلق بالقياسات الفكرية والتي لها دليل من القرآن على جواز سلوكها . ولذلك في بعض الأحيان سيجد القارىء مسائل تعتمد على هذا النوع من الاستدلال.

٣ - فيما يتعلق باثبات الحقائق بالدلائل القرآنية أو الحديثية سلكت طريق عرض الفكرة أولا ثم الاستدلال عليها بالاية القرآنية وان اقتضى الأمر توضيحها بالحديث الشريف سقته لذلك معرضا عند ذكر القواعد النحوية أو المسائل البلاغية الا في النادر لا سيما حينما يتعلق الأمر بالقصص الذى هو لصيق بموضوع الابتلاء ومن صلبه .

وعلى الله وحده اتكالي واليه أفوض أمرى اذ هو نعم المولى ونعم النصير ،،،،

الباب الأول

الغاية من خلق الانســـــان

ويشتمل على الفصول التالية :

الفصل الأول : خلق الانسان للابتلاء أو للعبادة

الفصل الثاني : حكمة الابتلاء

الفصل الثالث : أتاح الله للانسان ما صحح به ابتلاءه .

توطئـــــة :

خلق الله الانسان لما أراد وجوده وهو الفعال لما يريد ولا يسئل عما يفعل سواه فيما قد خلقه فيه ، وهداه فيما قد قدره عليه جعله سميعا بصيرا فأمره و نهاه ثم أظهر استجابته لذلك ،فأثابه بالحسنى ، وكشـف عن إعراضه فجزاه على ما أبداه.

وحينما كان الانسان ذا اختيار ،كرمه الله فجعله خليفة في الأرض حاملا أمانة التكليف وسخر له ما في السموات وما في الأرض وأحاطه بمعالم التكريم بدءا من خلقه حينما نفخ فيه من روحه واختتاما بجعله مميزا بعقله مدركا بتفكيره .

وبناء على ما قد فعله الانسان بعقله قد عاقب الله من عصاه ، وأثاب من أطاعه إذ المشاهد في الناس : إما محسن بنعمة الله عليه ، واما مسيء بخذلان الله إياه ،ولله النعمة على المحسن والحجة على المسيء ،وذلك حينما افترض طاعته على عباده ،وجعل رضاه عند أهل التقوى فمن امتثل أمره واجتنب نهيه لا حجة عليه ،ومن أظهر خلاف الطاعة لا حجة له ، والانسان بحاله التي عليها من موت لأناس كانوا يعايشونه ، وايجاد لأناس لم يكونوا في الحياة يشاركونه ، كل يوم يرى وارثين للهالكين قد شيعوا غادين ورائحين الى الله قضى نحبهم وبلغ أجلهم ، يرون وقد غيبوا في صدع الأرض لا موسدون ولا ممهدون تركوا الأسباب

وراء ظهورهم وفارقوا الأحباب ومن كانوا يأنسون بهم في حياتهم وباشروا التراب حينما وضعوا في قبورهم فكانوا كما قيل :

جرت الرياح على محل ديارهم فكأنهم كانوا على ميعـاد

فأرى النعيم وكل ما يلهى بـه يوما يصير الى بلى ونفـاد (١)

والانسان كذلك في فترة حياته إلى موته يرى الجد والقصد يشملان الحركة في كل جانب من جوانب المسخرات له كما أخبر سبحانه بذلك ملفتا نظر الانسان الذى لم يهتد لمعرفة الغاية من خلقه ﴿ أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آيتها معرضون ،وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون ﴾ (٢).

فالعاقل إذن من الناس في هذه الحياة لا شك أنه يدرك القصد في خلق كل شيء سواء في القدر أو في الشكل الذى خلق عليه ولا شك في أنه أيضا يدرك فقدان المصادفة وانتفاء العبث في تنظيم هذه الموجودات الهائلة وهو بهذا الادراك والتدبر يقع في نفسه أن لخلقه غاية وحكمة عظيمة . فاذن له أن يتساءل عن مصيره وعن وجوده بعد أن لم يكن ويبحث عن الجواب . وماذا عساه أن يجد من الجواب عند ذلك إنه

---

(١) الابيات من بحر الكامل .

(٢) سورة الأنبياء آية ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ .

مهما بحث وكد نفسه في الطلب وعنى عقله وفكره في محاولة الظفر بهذه الضالة المنشودة فانه لن يجد في ذلك ما هو أمثل ولا أهدى سبيلا مما أجاب به القرآن العظيم عن هذا السؤال .

وبالنظر في الجواب ،عند ذلك يتبين أنه جاءت نصوص في القرآن العظيم مرة تدل على أن الانسان خلق للابتلاء وأخرى تدل على أنه خلق للعبادة فقوله تعالى * الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا * (١) يدل على أن الله خلق العباد للابتلاء . واللام في قوله تعالى " ليبلوكم " متعلق بخلق أى خلق موتكم وحياتكم ليظهر أعمالكم فيثيب من أحسن ويجازى من أساء . فالغاية اذن من خلق الانسان اختباره .

وقوله تعالى * وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون (٢) * يدل بمنطوقه على أن الغاية من خلق الانسان هي عبادة الله وقد يظهر للقارىء غير المتأمل عند النظر المجرد أن هناك تعارضا بين القضيتين . والحق أن القرآن المعجز منزه عن التعارض أو التناقض اذ هو كلام العليم بالأشياء وماهيتها ،والخبير بعواقب الأمور و مبتدآتها ،فهو من لدن عليم علما مطلقا في الأزل قبل خلق الأشياء كلها . والقرآن نزل لهداية الانسان ليبقى مستقرا في طريق الفطرة التي خلق عليها

---

(١) سورة الملك آية ٢ .

(٢) سورة الذاريات اية ٥٦ .

فهو يحدد المعالم التي يجب على الانسان أن يعتقدها ويعمل بمقتضاهـــا والا ضل وخسر ، ومعنى هذا أن التعارض أو الاختلاف الذى لا يمكـــن التوفيق بينه محال فيه وإلا فكيف يكون هاديا للانسان ، ولذلك يلـــزم علينا في هذه الرسالة تجلية الأمر في قضيتنا بالتعرض للمعنى اللغــــوى لكل من الابتلاء والعبادة .

الفصل الأول

خلق الانسان للابتلاء وللعبادة

لم يخرج الابتلاء في اللغة عن معنى الاختبار والامتحان ومعنى الإخلاق ،ففي مقاييس اللغة [١] قال : (الباء واللام والواو وحرف العلة أصلان أحدهما إخلاق الشيء . والثاني نوع من الاختبار ، ويحمل عليه الاخبار أيضا . فأما الأول فقال الخليل بلى يبلى فهو بال ،والبلى مصدره ،واذا فتح فهو البلاء " .

وفي المصباح [٢] : (وبلاه الله بخير أو شر يبلوه . وأبلاه بالالف وابتلاه ابتلاء بمعنى امتحنه) .

وفي اللسان [٣] : (بلوت الرجل بلاء ،وابتليته اختبرته ،وبلاه يبلوه اذا جربه واختبره ،وابتلاه الله امتحنه والاسم البلوى والبلية بفتح الموحدة وكسر اللام والبلاء).

وفي مفردات [٤] الاصفهاني قال : (بلى الثوب بلى وبلاء أى خلقه ومنه لمن قيل : سافر بلاه سفر أى أبلاه السفر [٥] وبلوته اختبرته كأني أخلقته من كثرة اختبارى له وقرىء ﴿ هنالك نبلو كل نفس ما أسلفت ﴾ [٦] بنون المضارعة ونصب كل ،أى تعرف حقيقة ما عملت ، ولذلك قيل : أبليت فلانا اذا اختبرته ".

وفي القاموس بشرحه تاج العروس [٧] : (بلى الثوب كرضى

---

(١) لابن فارس مادة بلوى جـ١/٢٩٢ ط/ الحلبية الثانية .

(٢) مادة بلى جـ١/ ٧٨ ط/ الثالثة .

(٣) مادة بلا جـ١ / ٣٥٥ ط/ دار المعارف القاهرة .

(٤) كتاب الباء ص٦١ ط/ الحلبية .

(٥) معناه حنكه السفر وجربه من كثرة معايشته له . (٦) سورة يونس آية ٣٠ .

(٧) فصل الباء من باب الواو والياء جـ١٠/٤٢ نشر مكتبة الحياة بيروت .

يبلى بلى بالكسر والقصر . وبلاء بالفتح والمد . وأبلاه هو وبلاه وبلى كرضى - الى أن قال - وابتليته اختبرته وجربته وابتليت الرجل فأبلانى أى استخبرته فأخبرني ومنه حديث : (لا ابلى أحدا بعدك أبدا)[1] أى لا أخبره وأصله من قولهم : أبليت فلانا وابليته امتحنته واختبرته .

فأصل الابتلاء اذن الاختبار ، وينص الراغب[2] على ما يفيد أن الابتلاء يتضمن أمرين : أحدهما تعرف حاله والوقوف على ما يجهل من أمره . والثاني ظهور جودته ورداءته . وربما قصد به الأمران وربما يقصد به أحدهما ، فاذا قيل : الله ابتلى فلانا فليس المراد منه الا ظهور جودته ورداءته دون التعرف لحاله والوقوف على ما يجهل من أمره إن الله علام الغيوب ، وعلى هذا قوله عز وجل * واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن * .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده قال ثنا أبو معاوية قال ثنا الاعمش عن شقيق عن ام سلمة قالت : دخل عليها عبد الرحمان بن عوف قال : فقال : يا أمه قد خفت أن يهلكني كثرة مالى أنا اكثر قريشا مالا . قالت : يا بني فأنفق فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن من أصحابي من لا يراني بعد أن أفارقه فلقي عمر فأخبره فجاء عمر فدخل عليها فقال لها : أنا منهم . فقالت : لا ولن أبلى أحدا بعدك . رواته ذكرهم صاحب التقريب في الثقات . والاعمش من الطبقة الثانية في المدلسين . المسند ج٦/ ٢٩٠ .

(٢) المفردات في غريب القرآن ص : ٦١ ط/ الحلبية .

أقول : ويرادف البلاء في معنى الاختبار الفتنة ،فقد وردت الفتنة في القرآن الكريم بمعنى الاختبار وهو الأصل لها في اللغة . ففي الفائق [١] : الفتنة أصل الابتلاء والامتحان ومنه فتن الفضة اذا ادخلها النار ليعرف جيدها من رديئها . وكما قيل في شدة النازلة بلاء ومحنة قيل فتنة وفتن فلان بفلانة ، اذا بلى بها .

وفي المفردات للاصفهاني : وجعلت الفتنة كالبلاء في أنهما يستعملان فيما يدفع إليه الانسان من شدة ورخاء وهما في الشدة أظهر معنى وأكثر استعمالا ،وقد قال فيهما ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة ﴾ [٢] وقال : في الشدة ﴿ انما نحن فتنة فلا تكفر ﴾ [٣] وقال تعالى ﴿ الٓمٓ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ﴾ [٤] أى : لا يختبرون فيميز خبيثهم من طيبهم" [٥] وبهذا علم . أن الفتنة مرادفة للابتلاء في المعنى ،والناس يشملهم معنى الاختبار بحيث يتعرض الانسان المختبر لأمور شاقة عليه في الغالب ليظهر من يخالف هواه ويكبح جماح نفسه ومن يطلق العنان لشهواته فيجازى كلا حسب عمله .

---

(١) كتاب الفائق في غريب الحديث للزمخشرى جـ٣/٨٧ الطبعة الحلبية الثانية .

(٢) سورة الانبياء آية ٣٥ .

(٣) سورة البقرة آية ١٠٢ .

(٤) سورة العنكبوت آية ١ - ٢ .

(٥) ص : ٣٧٢ ط/ الحلبية .

والتكاليف سميت ابتلاء نظرا لأن فيها مشقة معتادة على الابدان سواء فيما يأمر الله به و ينهى عنه من ذلك. فالابتلاء إذن إظهار لفعل المكلف بعد أمره و نهيه بأوامر ونواه محددة. وإلى هذا المرمى يشير الرازى في تفسيره (١) بقوله : والتحقيق أن الابتلاء والامتحان والاختبار فعل يظهر بسببه أمر غير متعين عند العقلاء بالنظر إليه قصدا الى ظهوره . ويوضح الرازى تعريفه هذا فيقول : وقولنا : فعل يظهر بسببه أمر. ظاهر الدخول في مفهوم الابتلاء . لأن ما لا يظهر بسببه شيء أصلا لا يسمى ابتلاء .

أما قولنا : أمر غير متعين عند العقلاء وذلك لأن من يضرب بسيفه شيئا لينا لا يقال : إنه يمتحن ، لأن الأمر الذى يظهر منه متعين وهو القطع والقد بقسمين فاذا ضرب بسيفه سبعا يقال يمتحن بسيفه ليدفع عن نفسه وقد يقده وقد لا يقده . وأما قولنا : ليظهر منه ذلك : فلأن من يضرب سبعا ليدفعه عن نفسه لا يقال انه متحن ، لأن ضربه ليس لظهور أمر غير متعين ، اذا علم هذا فنقول : الله تعالى اذا أمرنا بفعل يظهر بسببه أمر غير متعين وهو إما الطاعة أو المعصية في العقول ليظهر ذلك يكون ممتحنا ، وإن كان عالما به لكون عدم العلم مقارنا فينا لابتلائنا (٢) فاذا ابتلينا وعدم العلم فينا مستمر أمرنا وليس

---

(١) جـ٧/ص ٣٦٤ ط/ الاولى بتصرف.

(٢) معنى كلامه أن الابتلاء أجرى على الانسان وهو لا يعلم عاقبته من حيث النجاح أو الاخفاق .

من ضرورات الابتلاء [١] . فان قيل : الابتلاء فائدته حصول العلم عند المبتلى فإذا كان الله تعالى عالما فأية فائدة فيه ؟ نقول : ليس هذا سوءالا يختص بالابتلاء فإن قول القائل : لم ابتلى ؟ كقول القائل: لم عاقب الكافر وهو مستغن ؟ - الى أن قال - وجوابه "لا يسئل عما يفعل " - واضاف - المبتلى لا حاجة له الى الأمر الذى يظهر من الابتلاء ، فان الممتحن للسيف فيما ذكرنا من الصورة لا حاجة له الى قطع ما يجرب السيف فيه حتى إنه لوكان محتاجا كما ضربنا من مثال دفع السبع بالسيف لا يقال : إنه يمتحن . وبعد هذا نقول : وبهذا التحقيق الذى لا محيد عن نقله عن كل من الراغب الاصفهاني والزبيدى ومن بعدهما الامام الرازى يظهر أنه ليس بنا حاجة الى جعل ابتلاء الله لعباده على معنى مجازى وصرفه عن معناه الحقيقي على سبيل الاستعارة التمثيلية أو غيرها على ما هو صنيع كل من الشهاب الخفاجي والالوسي رحمهما الله تعالى اللذين بالغا في الانتصار لهذا المسلك ، والتحرير لهذا الزعم ،وذلك حيث يقول الشهاب عند قوله تعالى

﴿ الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا ﴾.[٢]

معلقا على قول البيضاوى:[٣] ليعاملكم معاملة المختبر بالتكليف أيها

---

(١) معناه : ليس وجود العلم - عند الانسان ضروريا- بنتيجة الابتلاء .

(٢) سورة الملك آية ٢ .

(٣) حاشية الشهاب جـ٨ / ٢١٦ .

المكلفون ، يعني أن البلاء بمعنى الاختبار يقتضي عدم العلم بما اختبره فيه وهوغير صحيح في حق الله . ولذا جعلوه هنا استعارة تمثيلية أو تبعية بناء على تشبيهه حالهم في تكليفه تعالى لهم ، وخلق الموت والحياة فيهم واثابته وعقوبته لهم بحال المختبر مع من اختبره وجربه لينظر طاعته وعصياته فيكرمه أو يهينه . ويقول الالوسى (١) عند قوله تعالى ﴿ ليبلوكم أيكم أحسن عملا ﴾.(٢)

الابتلاء في الأصل الاختبار ، والكلام خرج مخرج التمثيل ولا يصح إرادة المعنى الحقيقي لأنه إنما يكون لمن لا يعرف عواقب الأمور.

نقول : بعدما قدمنا لك من ذلك التحقيق يظهر أنه ليس بنا حاجة البتة الى هذا الصنيع من أصحابه ، وذلك أن من المقرر لدى كافة أهل العلم أن اللفظ لايعدل به عن الحقيقة إلى المجاز إلا حيث تتعذر تلك الحقيقة ، ففي كلام الراغب ما يفيد أن الابتلاء يطلق ويراد به العلم بحقيقة الشيء وذلك في حق من يجهل عواقب الأمور فلا يستطيع أن يدرك نتائج الحقائق إلا بعد إجراء التجربة والخبرة على ما يريد أن يعرف حقيقته . ويطلق ويراد به اظهار الشيء لمن لا يدرك ذلك الشيء إلا باظهاره ، وهذا هو المقصود بابتلاء الله عباده إذ هو سبحانه يعلم علما محيطا

---

(١) روح المعاني م ٤ / جـ ١٢ ص ١٠-١١ .

(٢) سورة هود آية ٧ .

وهو غني بعلمه الأزلي عن إدراك الحقائق بالابتلاء. وما دام أنه يقصد بالابتلاء إظهار الشيء من كونه حسنا أو قبيحا كالطاعة والمعصية فلا حاجة لاجراء المجاز. والى هذا المعنى ذهب الرازى في تعريفه السابق الذى أفادنا أن الابتلاء هو الظهور فأمر الله أو نهيه لعباده يقتضي أن الانسان المأمور أو المنهى لا بد أن يسلك إما طريق الطاعة أو طريق المعصية فظهور سلوك الانسان الممتحن يكون هو معنى الابتلاء الذى نص عليه قوله سبحانه * الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا *.

ويبقى علينا معرفة معنى العبادة في قوله عز وجل * وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون *.(١)

أولا : أقول : العبادة لغة : هي أقصى غاية التذلل والخضوع والطاعة. يقول الراغب:(٢) العبودية إظهار التذلل والعبادة أبلغ منها، لانها غاية التذلل ولا يستحقها الا من له غاية الافضال وهو الله تعالى ولهذا قال : * ألا تعبدوا إلا إياه *.(٣)

وفي المصباح قال : (عبدت الله اعبده عبادة وهي الانقياد والخضوع والفاعل عابد والجمع عباد وعبدة ثم استعمل فيمن اتخذ الها غير الله وتقرب اليه فقيل : عابد الوثن والشمس وغير ذلك ».(٤)

---

(١) سورة الذاريات آية ٥٦.

(٢) كتاب المفردات للاصفهاني ص ٣١٩ مادة / عبد / ط/ الحلبية.

(٣) سورة الاسراء آية ٢٣.

(٤) جـ٢/ص ٤٦١ نشر دار الفكر.

وفي القاموس : العبادة الطاعة . وفي شرحه تاج العروس قال: وقال بعض أئمة الاشتقاق أصل العبودية الذل والخضوع وقال : قوم العبودة الرضا بما يفعل الرب ،والعبادة فعل ما يرضى به الرب.والاول أقوى وأشق ".(١)

وفي اللسان : قال أصل العبودية الخضوع والتذلل ،وفي حديث(٢) أبي هريرة لا يقل أحدكم ... عبدي ... " هذا على نفي الاستكبار عليهم وأن ينسب عبوديتهم إليه فان المستحق لذلك هو الله تعالى وهو رب العباد كلهم والعبيد.(٣)

وفي المقاييس(٤) العين والباء والدال أصلان صحيحان كأنهما متضادان والاول من ذينك الاصلين يدل على لين وذل ،والاخر على شدة وغلظ . فالأول العبد ، وهو المملوك والجماعة العبيد وثلاثة أعبد وهم العباد .

قال الخليل : الا أن العامة اجتمعوا على تفرقة ما بين عباد الله والعبيد المملوكين ،يقال : هذا عبد بين العبودة ولم نسمعهم يشتقون منه فعلا ولو اشتق لقيل : عبد أى صار عبدا وأقر بالعبودة ولكنه أميت الفعل فلم يستعمل قال : وأما عبد يعبد عبادة فلا يقال :

---

(١) فصل العين باب الدال ٢/ ٤١٠ .

(٢) اخرجه مسلم، باب اطلاق لفظة العبد، كتاب الالفاظ بشرح النووى ج ١٥/ص ٥ . والمراد ان العبودية لا يستحقها الا الله فلا تنسب الا اليه .

(٣) ج٤/ ٢٦٠ مادة عبد .

(٤) ج٤/ ٢٠٥ ط/ الثانية ١٤٠٢هـ .

الا لمن يعبد الله تعالى [١] يقال : منه عبد يعبد عبادة ،وتعبد يتعبد تعبدا ،فالمتعبد المتفرد بالعبادة ،واستعبدت فلانا اتخذته عبدا ،وأما عبد في معنى خدم مولاه فلا يقال : عبد ولا يقال : يعبد مولاه وقد ورد تعبد فلان فلانا اذا صيره كالعبد له وان كان حرا ،ويقال : أعبد فلان فلانا أى جعله عبدا ويقال للمشركين عبد الطاغوت والاوثان [٢] وللمسلمين عباد يعبدون الله تعالى . الى أن قال : ومن الباب البعير المعبد ،أى المهنوء بالقطران . وهذا أيضا يدل على ما قلناه ،لأن ذلك يذله ويخفض منه - قال طرفة :

الى أن تحامتني العشيرة كلها وأفردت إفراد البعير المعبد

والمعبد : الذلول يوصف به البعير أيضا . ومن الباب الطريق المعبد وهو المسلوك المذلل . قال الأصل الاخر العبدة وهي القوة والصلابة . يقال : هذا ثوب له عبدة اذا كان ضعيفا قويا . ومنه علقمة بن عبدة بفتح الباء . ومن هذا القياس العبد مثل الأنف والحمية يقال : هو يعبد لهذا الأمر وفسر قوله تعالى :

---

(١) يعني لا ينبغي أن يقال : ولا يكون قوله على وجه الحق الا كذلك والا فان الاستعمال صحيح لغة بلا تردد بدليل ما سيأتي له هو نفسه من قوله . ويقال للمشركين بأنهم عبدوا الأوثان .

(٢) أى جاز ذلك حقيقة عرفية بعد مجيء الاسلام تفرقة بين صنيع المؤمنين وصنيع المشركين والا فاللغة لا تفرق بين عبادة مسلم وغيره .

* قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين *[١] أى أول من غضب عن هذا وأنف من قوله[٢] : ثم بعد هذا التطواف الطويل في كتب اللغة حول هذه المادة ، والتي كان محصله رجوع هذه المادة الى أصلين صحيحين كما قال ابن فارس : بينهما ما يشبه التضاد حسبما يبدو لأول وهلة يدل الأول منهما على لين وذل والاخر على قوة وصلابة أو رجوعهما الى أصل واحد هو الأول من هذين حيث لا يعوز المتأمل الممعن النظر رد الاخر إليه من قبل أن العبد بمعنى الانف أو الغضب والحمية او الصفاقة أو احكام النسج يخضع موصوفه ويذله بمقتضى هذه الأوصاف الخلقية أو الخلقية حسبما قال الزمخشرى رحمه الله إذ يقول في كشافه[٣] تفسيرا للعبادة من قوله تعالى *إياك نعبد وإياك نستعين * " والعبادة أقصى غاية الخضوع والتذلل ومنه ثوب ذو عبدة اذا كان في غاية الصفاقة وقوة النسج ، ولذلك لم تستعمل الا في الخضوع لله تعالى لأنه مولى النعم فكان حقيقا بأقصى غاية الخضوع"

---

(١) سورة الزخرف آية ٨١ .

(٢) وهذا التفسير هو أحد الأوجه التي قيلت في تفسير هذه الاية رالالوسي ٩/ج ٢٥/ ص ١٠٥ نشر دار الفكر ، والبحر المحيط ج ٨/ص ٢٨ نشر دار الفكر ، وانظر الكشاف ج٣ / ص ٤٢٧ ، نشر دار المعرفة .

(٣) ج١/ص ٦٢ نشر دار المعرفة بيروت .

نقول بعد هذا التطواف الذى محصله ما ذكرنا فإنه يجدر بنا أن نتعرف على المعنى الشرعي المقصود من عبادة الله عز وجل في القرآن الكريم وما إذا كان هذا المعنى هو عين ما أسلفنا من المعنى اللغوى فحسب أو أن له إلى ذلك مزيدا من تقييد لما أطلق أو تخصيص لما عم من ذلك المعنى اللغوى .

إن الباحث في كتب التفسير لا يجدها قد عرضت لمعنى العبادة بأكثر مما ذكرناه في المعنى اللغوى قيد انملة بحيث يخرج القارىء من هذه الكتب بنتيجة تقول : إن المعنى الشرعي المراد من إطلاق العبادة في نصوص القرآن هو بعينه ما ذكروه من معنى العبادة في اللغة . وبحيث يكون كل من الحقيقة الشرعية والحقيقة اللغوية -ان جاز هذا التعبير- قد تطابقتا في هذا المجال على شيء واحد ،وإنما الذى أضافت عبارته فيما نعلم جديدا ومقيدا الى ذلك المعنى اللغوى حين يقصد من العبارة معناها الشرعي كل من العالمين الجليلين شيخ الاسلام ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية اذ يقول ابن تيمية في رسالة العبودية - مجموعة التوحيد[(١)] - : " والعبادة معناها الذل يقال : طريق معبد إذا كان مذللا قد وطئته الأقدام لكن العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب فهي تتضمن غاية الذل لله تعالى بغاية المحبة . ويقـــول

---

(١) رسالة : ١٤ ص / ٢ ، ٦ ، ٧ .

في تفسيره لقوله تعالى ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾:[(١)]" وهذا الخضوع والذل هو أيضا لازم لكل عبد لا بد له من ذلك. وإن كان يعرض له أحيانا الاعراض عن ربه والاستكبار، فلا بد له عند التحقيق من الخضوع والذل له. لكن المؤمن يسلم له طوعا فيحبه ويطيع أمره والكافر إنما يخضع له عن رغبة ورهبة فإذا زال هذه ذلك أعرض عن ربه كما قال تعالى ﴿ واذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون ﴾.[(٢)]

ويقول ابن قيم الجوزية في مدارج السالكين[(٣)] : "والعبادة تجمع أصلين : غاية الحب بغاية الذل والخضوع، والعرب تقول : طريق معبد أى مذلل، والتعبد : التذلل والخضوع، فمن أحببته ولم تكن خاضعا له لم تكن عابدا له، ومن خضعت له بلا محبة لم تكن عابدا له حتى تكون محبا خاضعا " .

أقول : فالشيخ ابن تيميه ومعه تلميذه ابن القيم قد أضافا للمعنى اللغوى الذى هو أقصى غاية الذل والخضوع غاية المحبة .

---

(١) الفتاوى جـ ١٣/ ٣٠.

(٢) سورة يونس آية ١٢.

(٣) جـ١/ص ٧٤ ط/ السنة المحمدية .

وهي أمر لا بد منه في العبادة الشرعية المقبولة ويغلب على الظن أن المفسرين يتفقون مع شيخ الاسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم في أن المحبة شرط لكمال عبادة الله عز وجل . نعم كان من إتمام الخير والهدى لو بينوا ذلك للعامة ولم يغفلوا ذكره . وأيا ما يكون الأمر فهذه هي حقيقة العبادة الشرعية سواء قلنا إن المحبة شطر لهذه الحقيقة أم قلنا شرط لها .

وبما قد تبين لك من هذه الحقيقة وما قد تقدم لك بيانه من حقيقة الابتلاء نستطيع أن نرى بوضوح أنه لا تعارض البتة بين هاتين الحقيقتين بل في كل منهما حكمة بالغة . بل باجتماعهما تبلغ الحكمة أقصى غايتها وأوج كمالها . بيان ذلك أن الابتلاء عام للكل ،فما من أحد الا ويتعرض لذلك الابتلاء . وقد مر معنا أن المراد بالابتلاء من قبل الله عز وجل اظهار جودة الامر أو رداءته دون معرفة حاله وما يجهل منه . والانسان المكلف لا يخلو من أن يسلك طريق الطاعة أو طريق المعصية . والابتلاء يظهر ذلك السلوك سواء منه الجيد أو الردىء وهو الهدى أو الضلال . والعبادة أيضا من حيث الأمر بها تلزم كل مكلف ،فجميع المكلفين خلقوا للعبادة وكون البعض تخلف عن تحقيق وظائف العبادة لا يخصص عموم الخلق لها حيث قد اقتضت حكمة الله أن يستجاب للأمر بالعبادة على وجه الاختيار لا على وجه القسر والاجبار ،ولتتم أيضا سنة الابتلاء على الوجه الذى أراده الله . وبهذا اتضح أن الانسان خلق لكل من الابتلاء والعبادة لكن الخلق للابتلاء له مسار والخلق للعبادة له مسار آخر ، فالخلق للابتلاء

كان وسيلة لاظهار فعل المكلف من حيث الامتثال أو عدمه ،وان شئت :
قلت: الابتلاء داخل تحت الارادة الكونية التي لا مدخل للعبد في
تحصيل مقتضاها واما العبادة فداخلة تحت الارادة الشرعية التي جعل الله
للعبد مدخلا اختياريا في تحصيل مقتضاها اذا التزام المكلف بأمر
العبادة أو عدم التزامه بذلك هو أمر ظهر في تحديدها شرعا ليعرف العابد
من غيره فالخلق للعبادة التي هي أقصى غاية الخضوع والذل مسار
لاخراج نتيجة الابتلاء التي بناء عليها يثاب المحسن ويجازى المسيء. وهكذا
يتبين أنه لا تعارض بين الغايتين اللتين ربط بهما خلق الانسان غاية الابتلاء
وغاية العبادة وأن كلا منهما لا بد منه فلا يمكن استغناء احدى الغايتين
عن الأخرى وذلك بحيث لا يبلغ المكلف كماله وما يستتبعه ذلك الكمال من
خيرى الدنيا والآخرة فضلا من الله ورحمة إلا بهما جميعا. فالانسان خلق
للابتلاء الذى هو في ذاته شهادة من الحكيم العليم بشرف هذا الانسان،
وتكريم ظاهر منه تعالى له حيث عامله معاملة المختبر المكرم من يختبره ،
الشاهد بأن له ذلك العقل الذى يبلغ به أوج الكمال لو شاء ولو شاء
الله ما جعله أهلا للابتلاء . والنتيجة التي يحب الله أن تتحقق ،ولا يرضى
للعبد سواها ، أو بعبارة جامعة - التي يريدها ارادة شرعية هي أن يعبده
ذلك الانسان المكلف ولكن الذى حدث بالفعل هو أن نتيجة هذا الابتلاء
لم تكن واحدة على ما يحب ربنا ويرضى بل كانت اختلاف الناس بحيث عبده

منهم فريق وكفر به آخر وهو المنوه عنه بقوله عز من قائل ﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ﴾ (١) أى لو شاء أن يقهرهم على ذلك ويطبعهم عليه بحيث لا يعطى لعقولهم من التكريم الذى يتضمنه الاختيار - لا محالة - على ما وصفنا لفعل . ولكن لم يفعل بل كرم عقولهم و شرف انسانيتهم فاختبرهم فكان أن اختلفوا ﴿ ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم ﴾ (٢) فأما من اختار العبادة فقد حقق النتيجة التي ترضى الله والتي ما كان ينبغي أن يتحقق من كل أحد سواها . وجزاء هذا أعظم الجزاء وأكرمه في الدنيا والآخرة ، وأما من اختار الأخرى بحيث جحد فلم يحقق العبادة فذلك الذى نكس عقله . وعكس المقصود من خلقه ، فيسر خلقه لجهنم ، فذلك قوله عز من قائل: ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس ﴾ (٣) وسواء أقلنا : إن اللام في قوله ﴿وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ﴾ (٤) وقوله ﴿الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا ﴾ (٥) للغاية أم لم نقل فإنك ترى نظم جميع هذه الآيات ملتئما متناسقا بالغا ذروة الذرى من انسجام المعنى وسمو الغاية ، وبذلك نكون قد علمنا فأدركنا المقصود في كل من الخلق للابتلاء والخلق للعبادة والخلق للنار وتميزت لدينا فكرة الابتلاء الذى خلق من أجله الانسان من حيث إنه ظاهرة كونية بالنسبة للانسان المكلف لاظهار أحد المسلكين اللذين

---

(١) سورة هود آية ١١٨ ، ١١٩ .

(٢) سورة هود آية ١١٨ ، ١١٩ .

(٣) سورة الاعراف آية ١٧٩ .

(٤) سورة الذاريات آية ٥٦ .

(٥) سورة الملك آية ٢ .

لن يخرج أى مكلف عنهما ،مسلك طريق الهدى واليسرى ،أومسلك طريق الضلال والعسرى .

وبعد هذا الادراك يتطلب الأمرمنا أن نعلم هل هذا الابتلاء من الله للانسان لغرض يرجع نفعه إليه سبحانه أم هو لحكمة بالغة ومنافع ترجع للانسان فقط فيترتب آثارها عليه ، هذا ما سيتناوله الفصل الذى أمامنا .

الفصل الثاني

حكمة الابتلاء

الفصل الثاني

حكمة الابتلاء :

توطئة :

وقبل أن نجيب عن هذا التساؤل ينبغي أن نعرف أولا : هل أفعال الله عز وجل ينبغي أن تعلل بعلة ؟ . وفي هذا أقول : مستعينا بالله إنه سبحانه غني عن كل ما سواه مفتقر اليه كل ما عداه ،وغناه يتضمن الغنى المطلق في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله فهو غني في كل ذلك ، لأنه لو احتاج أو افتقر الى غيره لكان النقص ثابتا في جانبه سبحانه وذلك مما يتنافى مع مقتضى الألوهية والربوبية إذ هو المستغنى على الاطلاق المنعم على جميع المخلوقات المستوجب لجميع المحامد ،وقد ذكر الله في كتابه الكريم صفة الغنى ثماني عشرة مرة . ومن ذلك قوله تعالى ﴿ يأيها الناس أنتم الفقراء الى الله والله هو الغني الحميد ﴾(١) وقوله تعالى ﴿ من جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغني عن العالمين ﴾(٢) فالمراد أن الله له جميع صفات الغنى والكمال . فهل هو في حاجة الى منفعة تعود عليه من أي فعل يفعله ، أو بمعنى أقرب الى بحثنا : هل يتوقف على الابتلاء كمال لله يزول بزواله ؟

---

(١) سورة فاطر آية ١٥.

(٢) سورة العنكبوت آية ٦.

وللقول الفصل في هذه القضية يحتاج الأمر الى تتبع ما ذهب اليه سلف أمتنا من النظر في أفعال الله واجب الوجود ، النظر من حيث هل لله غرض في الفعل ليرجع اليه نفع منه ؟ وهو ما يسمونه بالعلة الباعثة . وبنظرى في ذلك فقد وجدت فرقة ذهبت الى وجوب تعليل أفعال الله بالاغراض والعلل الغائية تنزيها له عن العبث بفعل شيء بغير قصد ، بناء على أن هذا مما يقبح في حق المخلوقين فكيف بالخالق .

وفرقة أخرى ذهبت الى أن افعاله تعالى وجودها وعدمها سواء فلا يفعل شيئا لعلة داعية وغرض مقصود تنزيها له عن الافتقار واثبات الكمال له بحيث لو فعل فعلا لغرض للزم أن يكون قبل أن يصدر عنه ذلك الفعل ناقصا فيلزم استكماله به. وهذا قادح في كونه سبحانه غنيا غنى مطلقا .
وذهب شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله (١) الى أنه تعالى يفعل لحكمة ولا يلزم من ذلك نقص نظرا ، لأن ما يفعله سبحانه هو بمحض مشيئته المتفرد فيها بفعل ما يريد فليس هو في حاجة الى ما يفعله بل إصداره للأفعال لحكمة دليل على سرمدية كماله. فلا يزال منزها عن النقص ،وأفعاله الغائية كمال له عز وجل.

هذا ومن أنعم النظر وأطال الفكر يدرك بجلاء أن هذا الخلاف صورى ،والا فالذين نفوا عن أفعاله عز وجل الغرض أوجبوا له الحكمة

----

(١) رسالته في الارادة والأمر جـ١ ص ٢٢٦ الى ٣٣٢ ،مجموعة الرسائل الكبرى . نشر دار الفكر بتصرف .

في ذلك ، وقد بين هذا المفهوم الشريف الجرجاني في شرحه للمواقف[(١)]
فقال : "إن العبث ما كان خاليا عن الفوائد والمنافع وأفعاله تعالى
محكمة متقنة مشتملة على حكم ومصالح لا تحصى راجعة الى مخلوقاته تعالى .
لكنها ليست باعثة على إقدامه وعللا مقتضية لفاعليته فلا تكون أغراضا
له ،ولا عللا غائية لأفعاله حتى يلزم استكماله بها بل تكون غايات ومنافع
لأفعاله وآثارا مترتبة عليها فلا يلزم أن يكون شيء من أفعاله عبثا خاليا
من الفوائد ".

وهكذا يتضح لنا أن من قال : بتعليل أفعاله يقصد الحكمة
الغائية ولم يقصد أن الله يرجع عليه من ذلك نفع يستكمل به بعد أن كان
ناقصا ،ومن نفى التعليل أوجب الحكمة في أفعاله نافيا رجوع مصلحة
أو استكمال لله عز وجل من تلك الحكمة . وبهذا الذى ذكرنا يظهر
أنه لا مجال للشك في أن ثبوت الحكمة في أفعال الله عز وجل بين واضح
مؤيد بالنصوص القطعية كقوله تعالى ﴿ حكمة بالغة ﴾[(٢)] وقوله تعالى
﴿ وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم ﴾[(٣)] وذلك
ما أشاد به العلامة ابن القيم وانتصر له بالتمحيص والتدقيق في الأدلة
في كتابه شفاء العليل بما يزيد على مائة وستين صفحة . ومما تعرض

---

(١) جـ١/ص ٣٣٩/٣٤٠ /الموقف الخامس ،الالهيات ،نشر مكتبة الأزهر
(٢) سورة القمر آية ٥ .
(٣) سورة النساء آية ١١٣ .

له في هذا الصدد (١) قوله : " والحكمة هي الغاية المقصودة بالفعل بل أفعاله سبحانه صادرة عن حكمة بالغة لأجلها فعلها " ، الى أن قال : " ولا يكون الكلام حكمة حتى يكون موصلا الى الغايات المحمودة والمطالب النافعة " .

وقصارى القول في ذلك ان أفعال الله جميعها دالة على حكمة الحكيم وكمال الغنى فكلما تكرر النظر الى ظواهر الكون و نظام الخلق ظهرت له الحكم الباهرة ،والمقادير المسيطرة ، واذا تقرر هذا فاننا نعود الى طرح التساؤل الذى أسلفنا - هل يتوقف على الابتلاء كمال لله" بعد اذ تبين بما ذكرنا أنه تساؤل صحيح وفي موضعه . وللجواب عن ذلك فإننا حينما نتدبر قوله تعالى ﴿ الٓمٓ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ،ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ (٢) ، وقوله تعالى ﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ،ونبلوأخباركم ﴾ (٣) . حينما نقرأ هذه الايات الكريمة يتبادر الى الأذهان من ظاهرها أن الله يكتسب علما باجراء الابتلاء ليدرك فعل من أحسن ممن أساء ، وهذا يستحيل قطعا على الله عز وجل إذ هو يعلم السر وما هوأخفى منه ، يعلم بعلم محيط انكشفت له به جميع المعلومات.

---

(١) شفاء العليل ص ١٩٠ .

(٢) سورة العنكبوت آية ١ ، ٢ ، ٣ .

(٣) سورة محمد آية ٣١ .

فلو كان يكسب علما بابتلائه عباده للزم من ذلك النقص في صفاته سبحانه ، ومن المسلم به أن علم الله تعالى متعلق بجميع الكائنات في الأزل لكل ما سيكون وعلى أى حال يكون فلم يطرأ على علمه الأزلى انكشاف جديد . وانما التجدد في المعلومات لا في العلم ، فالمراد بعلمه سبحانه في ابتلاء عباده التمييز باظهار المعلوم وفق علمه الأزلي للعيان فيتميز به من آمن وصدق في ايمانه ومن لم يؤمن فيترتب على ذلك الثواب أو العقاب ،والى هذا الذى قررنا نحا العلامة الألوسي في تفسيره (١) عند قوله تعالى ﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ﴾ حيث قال :

" ما يفيد أن المراد به علم فعلى يتعلق به الجزاء . وفي معناه : ما قيل حتى يظهر علمنا". والسيد قطب في ظلاله (٢) اذ قال ما نصه :

"أما المراد بعلم الله لما تتكشف عنه النفوس بعد الابتلاء فهو تعلق علمه بها في حالها الظاهرة التي يراها الناس عليها " ، وهذا المعنى مرت الاشارة إليه عند تحقيقنا لمعنى الابتلاء حيث تقرر هناك أنه بالنسبة الى الله عز وجل هو إظهار ما اختاره العبد من خير أو شر فليس علم الله بأفعال العباد متوقفا على إجراء الابتلاء ،ولا على غير ذلك بل هو الخبير بما تكنه النفوس ،وما تعلنه قبل وقوعه . وانما اقتضت حكمة الله أن يكون

---

(١) م: ٩/ج/ ٢٦ / ص ٧٨ نشر دار الفكر .

(٢) م : ٦/ج/ ٢٦ / ٣٢٩٩ نشر دار العلم بجدة .

العطاء مربوطا بالابتلاء . وهل هذا الربط هو الاليق بكرم الكريم وحكمة الحكيم بأن يبتلى ثم يعطى أو أن يعطى بلا ابتلاء ؟

ولبيان ذلك لا بد من النظر في حال السائل ، وبناء عليه لا يخلو حاله إما أن يكون مؤمنا أو كافرا ،فان كان مؤمنا فطبعي أنه ينطلق من مستوى ايمانه فاجابته تكون في حدود ما يؤمن به من عقائد ثابتة مأخوذة من مصدر ثابت فهو اذن يبنى إجابته على ما صح عنده من دليل نقلي أو عقلي ، فمن حيث الدليل النقلي فقد سبق البيان بأن الابتلاء من باب الارادة الكونية (١) فكل انسان مكلف خلق للابتلاء وهو في حياته كلها مبتلى لقوله تعالى ﴿ تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا ﴾ (٢) وقوله تعالى ﴿ إنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا ﴾ (٣)

ففي الايتين الكريمتين بيان واضح يدل على أن الانسان مبتلى في هذه الحياة الدنيا ولذلك خلق مهيأ بوسائل الادراك ليميز بها بين

---

(١) وهي المشيئة الشاملة لجميع الحوادث والمتعلقة بكل مراد ،بخلاف الشرعية المتضمنة للمحبة والرضا . انظر الطحاوية بشرح ابن أبي العز ص ٤٣ ط/ العاصمة القاهرة . والموافقات للشاطبي جـ٣/ ١١٩ نشر دار المعرفة بيروت . وكتاب دفع إيهام الاضطراب للشنقيطي ص ١٥٩ .

(٢) سورة الملك آية ١/ ٢ .

(٣) سورة الانسان آية ٢ .

طريق الحق وبين طريق الباطل ليجتاز مدة الابتلاء التي جعل الله فيهـا مدار سعادة الانسان مبنيا على اختياره ، وعلى كيفية استعمال عقله في تمييز بين ما ينجو به في الابتلاء وما لا يسعد به ومن الثابت عقديا لدى المرء من أيضا أن الله لا يفعل أى فعل عبثا ومنه الخلق . فلم يخلق الله السماوات والأرض والانسان الذى سخر له ذلك باطلا إذ يقول الحكيم العليم ﴿ وما خلقنا السموت والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما الا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ (١) فالحكمة تقتضي عدم العبث وما دام النص القرآني أثبت الحكمة لله في فعل كل شيء - والابتلاء فعل الله - فابتلاؤه الانسان ثم يعطيه هو حكمه . ومعلوم أن الحكمة هي وضع كل شيء في مكانه وذلك بأن لا يوضع خلافه . فأفعاله سبحانه كلها حسنة وحكيمة إلا أن الله سبحانه غيب عن عباده بعض المصالح وتفرد بها والا فقد دلت أفعاله الخاصة التى لا يقدر عليها أحد على كمالاته ،ويكفى ما نصبه من دلائل كونية في الآفاق والأنفس أن تكون دليلا على كماله وحكمته ،وما كان كمالا فهو عين الكرم ، ثم إنه لا يمكننا أن نتصور كمالا مّا في جانبه سبحانه ،ونغفل عن كمال آخر ، لأن هذا ينافى أقصى الكمالات في الجانب الالهي ومن هنا فالعطاء المترتب على نتيجة الابتلاء لا ينافي أقصى غاية الكرم كما قلت إن الكمال الذى يتعارض مع كمال آخر لا يسمى كمالا كالرحمة

---

(١) سورة الدخان آية ٣٨ - ٣٩ .

والغضب لا ينافي وجودهما الكمال في جانب الله القدوس وذلك كغضب الله على الكافرين بجانب الرحمة يعد كمالا (١) ، لأنهم استحقوا الغضب بعدولهم عن طريق الحق . وبناء على هذا المعنى فكل كمال له موضع لا يتعارض مع كمال آخر ومن كرم الله العام المبني على كمالاته ما اقتضته حكمته من ابتلاء عباده ليعطي من يستحق العطاء ، اذ التصرف المطلق له وحده فهو الذى أقام الميزان في نظام الكون الذى خلق من أجل الانسان الممتحن فلا بد من السير على سننه الحكيمة التي توصل الى ما شاء سبحانه بالأسباب ، ومن حيث الدليل العقلي . فحينما يفكر الانسان في سنن الخلق يجد التكوين والنظام المبدع المبني على التقدير والتدبير ، وكذلك حينما ينظر في تحرك البشر يجد حتما عموم اتصال الأسباب بالمسببات التي لا تتغير فيجد الآيات البينات في ذلك التحرك البشرى بحيث يدرك أن ذلك لا يمكن وقوعه الا لحكم بالغة خفي علينا منها ما خفي كما خفي علينا الكثير من شئون الخلق ، وما على الانسان الا أن يبحث عنها ليزداد علما بكمال الله سبحانه والواقع أن من تدبر في نظام الخلق يجد الدقة والتنسيق والحكمة في القصد فيدرك أن هذا الخلق كان لغاية وكان على الحق ، وأن رحلة الانسان في الكون تدل على أن عليه تبعات ومسئوليات ، فواقع حياة الانسان يدل على أن هناك حياة أخرى يتم فيها ظهور مصيره بناء على واقع حياته الحاضرة

---

(١) فيما قررته شفاء العليل من ص ٣٩١ الى ص ٣٩٥ .

فالدار إذن دار ابتلاء فالانسان الموجود فيها ممتحن كي يتم له العطاء انطلاقا من صفتي العدل والكرم.

واما الكافر الذى عصا أمر ربه وجحد فضله وهو الذى خلقه وأسبغ عليه نعمه لا يخلو إما أن يوء من أول الأمر ويرجع الى طريق الهدى أو لا . فان رجع فطبعي يجاب بما يجاب به المؤمن ، والا فيرشد الى دلائل الايمان إن لم تحق عليه كلمة الله بالخلود في النار ، وتوضيح هذه القضية ليس مجال بحثنا .

وجملة القول : ان ابتلاء الله عباده كان في غاية الكرم والكمال والحكمة والانعام فأفعاله سبحانه مبنية على الحكمة وان لم نستطع حصرها أو درايتها ،فكيف وقد ظهرت لنا المصالح التي حققها الابتلاء للانسان فماذا حققه الابتلاء لبني البشر بعامة وللمؤمنين بخاصة من جليل المصالح ؟

للاجابة على هذا التساؤل أقول : مما لا يختلف فيه اثنان أن الناس في الاعتماد على بعضهم بعضا شيء مسلم ووصف للطبائع ملزم وجوهر في الخلق مقيم وبمجموع البشرية محيط ، فالناس في حاجة الى ما يعيشهم والى التعاون على ما يحييهم من القوام والقوت والاستمتاع بما يصلح البال ويقيم الروح والرمق اذ ثبت عدم استطاعة الانسان بلوغ حاجته بنفسه دون التعاون مع بني جنسه ،فالقريب مسخر للبعيد والعظيم ميسر للضعيف كالغني للفقير ، والسلطان للحاجب والسوقي للشريف حيث إن الله خلق الناس مقسمين وصرف العقول لأنواع الميادين واختلاف القوانين ،فانسان تفرغ

لعلم الافلاك ،وآخرللحياكة وغيرهما لاسباب الصناعات ،وذلك من أجل إسباغ النعمة وتمام المعرفة بتنوع الانتاج فيما الناس اليه في حاجة ، فكان لا بد لذلك من حركة ، اذ الناس في المرافق مختلفون ،فلكل واحد منهم آلة لذلك المرفق وأداة لتلك المنفعة ، كنماء البذور البرية فلا بد لتفتقها من حركة وكالصبي لاشداد عوده وتحرك قدميه كان لزاما التقام ثدى أمه ،وكالطبيب لا بد له من تعلم لعلاج مرضاه ،والمزارع ليحصد تحتم عليه شق الأرض وسقى الزرع . لما كان للانسان هذا الدور لم يترك هملا بل اتاه الله مواهب وآلات جعلته مؤهلا للقيام بهذا الدور فسخر له ما في السموات وما في الأرض كما قال عز وجل ﴿ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموت وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة﴾ (١) فكان مكلفا لابتلائه كما قال عز وجل ﴿إنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبلتيه فجعلنه سميعا بصيرا﴾ (٢).

فبالابتلاء بلغ هذه المنزلة العالية ، وتبين له ما أريد به من إكرام عظيم تحققت له به فوائد ومصالح ذلك حيثما ننظر في هذه الحياة ندرك أنها أعيان موجودة للانسان فيها نصيب ،وله في اصلاحها شغل ، فالأرض بما عليها كانت زينة له كما قال تعالى ﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا﴾ (٣) ،فجعل الله الأرض مستقرا وما عليها

---

(١) سورة لقمان آية ٢٠ .

(٢) سورة الانسان آية ٢ .

(٣) سورة الكهف آية ٧ .

مما هو زينة للانسان ولا يتم ذلك الاستقرار الا بوجود معادن ونبات وحيوان لأن المعادن يصنع منها الانسان الالات والأواني . كما قال تعالى :

﴿ وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ﴾ (١) . والنبات به قوام حياة الانسان وجريان الروح فيه كما به ينتج الحيوان الذى منه ما هو للأكل ومنه ما هو للحمل ، كما قال عز وجل في شأن الانتفاع بالنبات

﴿ فلينظر الانسان الى طعامه ، أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقا فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا (٢) وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا (٣) وفاكهة وأبا (٤) متاعا لكم ولأنعامكم ﴾ (٥) . وقوله في شأن الحيوان ﴿ الله الذى جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون ﴾ (٦) .

وهذه الايات تعطينا أن الانسان في كل حياته يتدافع الى القوت والملبس والمسكن وغير ذلك من مقومات استمرار الحياة ، ولا تتم هذه

---

(١) سورة الحديد آية ٢٥ .

(٢) هو الرطبة المقطوعة سميت بذلك لأنها تقضب مرة بعد مرة فهي من قضبه اذ قطعه ، انظر الكشاف جـ٤ / ١٨٦ .

(٣) أى ذات أشجار متكاثفة أو كل شجرة فيها توصف بالغلظ والعظم. الكشاف جـ٤/١٨٦ .

(٤) هو الكلأ والمرعى كما نقل عن ابن عباس في الألوسي م١٠ جـ٣٠/٥٩ نشر دار الفكر بيروت.

(٥) سورة عبس آية ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ .

(٦) سورة غافر آية ٧٩ ، ٨٠ .

الا بصناعات متنوعة وعقول مختلفة جعلها الله متفاوتة الادراك والاتجاه حتى يتم انتفاع الناس من بعضهم بعضا ،ويخدم بعضهم بعضا ،لأن أحوال الناس لو كانت على وتيرة واحدة لم يسخر بعضهم لبعض مما ينتج منه خراب العالم وفساد نظام الدنيا لذلك فلا بد من مزارع يشق الأرض ويبذر البذرة لانتاج المطعم ولا بد من البناء للمسكن ،ولا بد من النساج لصناعة الملبس فكل صناعة لا بد لها من آلات حسب التنقل الحضرى الذى يصل اليه أى مجتمع وهذا يفرض أن لا يستغنى البشر بعضهم عن بعض كما قال عز وجل * نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا *.(١)

يقول الحافظ ابن كثير : " معناه يسخر بعضهم بعضا في الأعمال لاحتياج هذا الى هذا وهذا الى هذا "(٢) ، اذن فالناس قد فاوت الله بينهم فيما أعطاهم من الأموال والعقول والأفهام وهذا شيء يحتم أنه لا بد من التعاون فيما بينهم والا لما استمر الجنس البشرى في البقاء ،وبالتالي لما وجدت في المجتمع عناصر مختلفة بحيث يكون هذا مزارع يشق الأرض لانتاج الطعام وهو أيضا محتاج لصانع آلات الشق وهما وغيرهما محتاجون الى صانع النسيج وهكذا فكل صاحب حرفة في

---

(١) سورة الزخرف آية ٣٢ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ج ٤/١٢٧ نشر دار التراث القاهرة.

حاجة الى صاحب حرفة أخرى (١) والحياة كلها بما بنيت عليه من حضارة عمرانية متزايدة وبوسائلها التي أدت الى رفاهية الانسان وضاعفت تحركه.كل ذلك قد حصل من خلال تجارب بشرية منبثقة من العقل الكادح كما قال عز وجل ﴿ يأيها الانسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه ﴾ . وتلك التجارب هي في الحقيقة وواقع الأمر ابتلاء ، لأن الانسان بالابتلاء يتفاعل مع الحياة في مجتمعه يأخذ ويعطي لتنمية مسئوليات الفرد والجماعة. وبتفاعله ذلك أيضا يقيم نظاما في كل أنحاء الاتصالات مما يعطي الحياة قيمة متماسكة في طريق واحد متجه الى ساحة الأمان والاستقرار في دار الجزاء .

وخلاصة القول إن الانسان بتفاعله مع الحياة ينقلب متدافعا في ميدان الامتحان ليثبت ذاتيته وبذلك يعطي للحياة حركة متدفقة مما يشعر معه الانسان بقيمة ذاته في الحياة فهو يفكر بعقله . وهو أيضا في

---

(١) انظر فيما قد بسطته من معان تفسيرى روح المعاني للألوسي ومفاتيح الغيب للرازى عند قوله تعالى ﴿ انا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا ﴾ م/٥/ ج ١٥/ ص ٢٠٦ من روح المعاني . وم/ ١١/ ج ٢١/ص ٨١ من مفاتيح الغيب ومقدمة ابن خلدون من ص ٦٧ الى ص ٦٨ . ط/ الأولى بالمطبعة الخيرية القاهرة .

ذلك كله يتحرك بارادة حرة يختار بها ما يشاء ،ولهذا الاختيار كان مكلفا ليبتلى حسب ما أعطاه الله من قدرة كان ممتحنا على ضوئها فيما يريده .

وحينما نتتبع تدافع الانسان نجده مدني الطبع مجبولا على حب الرفاهية فيبذل أقصى ما يستطيع الوصول به الى السعادة الدائمة ومن خلال التجارب الحياتية ثبت أنه لا وصول للسعادة إلا على طريق المشاق . فلولا المكاره الداعية الى الكد والمكابدة ما تبين الناس نعم السعادة ولما تدافع الناس للوصول اليها مما يعطي للحياة الحركة الدائمة التي تتحقق معها كلفة الخلافة التي نيطت بالانسان . كما قال عز وجل ﴿ واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الأرض خليفة ﴾(١) ،ولا يهمنا في هذا المقام الحديث عن المستخلف عنه لأنه سواء قلنا هو خليفة عن الله في اجراء احكامه وتنفيذ أوامره بين الناس ،أو قلنا هو خليفة عن أمم بادت وقرون غبرت فخلفهم وذريته في الأرض يعمرونها بعدهم (٢) لا نستطيع أن نفرق بين القولين من حيث المستخلف فيه لأنه على القول بأنه خليفة عن الله لا يخرج عن كونه أيضا مأمورا بتعمير الأرض وإقامة ما هو وسيلة لبقاء الحياة ،ولذلك الذى يهمنا هو المستخلف فيه ،فالنص يدل على أن الله جعل الانسان خليفة في الأرض بمعنى أن الله وجه الانسان لمهمة الاقامة بالامانة التي تحملها الانسان والتي وردت في قوله تعالى ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموت

---

(١) سورة البقرة آية ٣٠ .

(٢) تفسير البيضاوى بحاشية الشهاب ج٢/١٢٠ نشر دار صادر بيروت .

والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان إنه كان ظلوما جهولا ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفورا رحيما ﴾(١) . فانطلاقا من موضوع ما خلق له الانسان والذى مر تحقيقه ندرك أن الخلافة هي القيام بحقوق الله الواردة في أمره ونهيه . ومعنى هذا أن تحقيق لوازم العبادة التي خلق لها الانسان هو تحقيق لأمر الخلافة . فالخلافة اذن هي اداء الأمانة التي جاءت في الآية الكريمة والتي تعددت أقوال المفسرين في معناها وأيا ما قيل في معناها كالقول بانها الفرائض أو الطاعة أو ائتمان المرأة على نفسها كما نقل عن أبي بن كعب ، فهي تفسيرات ترجع الى شيء واحد بينه ابن كثير بقوله : (هي متفقة وراجعة الى انها التكليف وقبول الأوامر والنواهي بشرطها وهو أنه ان قام بذلك أثيب وان تركها عوقب)(٢) وابو حيان في بحره(٣) حيث قال : " والامانة الظاهر أنها كل ما يؤتمن عليه من أمر ونهي وشأن الدين والدنيا كل أمانة وهذا قول الجمهور " . ومن خلال هذه المعاني نستطيع أن نقول أن الله جعل الانسان خليفة في الأرض لاجراء سنة الابتلاء . وليؤدى وظائف تلك الخلافة على أكمل وجه ،ولذلك سخر الله له قوانين الكون كي ينتفع

---

(١) سورة الاحزاب آية ٧٢، ٧٣.
(٢) تفسير القرآن العظيم جـ٥/ ٥٢٥ نشر دار الفكر.
(٣) البحر المحيط جـ٧/ ٢٥٣ الطبعة الثانية .

بما بثه فيه من معالم ملائمة لمصلحة الانسان مذللة له كما قال عز وجل ﴿ الله الذى خلق السموت والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجرى في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار ،وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ،وسخر لكم الليل والنهار وءاتاكم من كل ما سألتموه ،وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الانسان لظلوم كفار ﴾ (١) ، ففي هــــذه الايات العظيمة وأمثالها من الكتاب الكريم يخبر الله عز وجل أنه سخر تلك المعالم مصلحة للانسان ومن أجل اتمام سنة الابتلاء لكن الانسان كثيرا ما يغــفل عن شكر النعمة وكثيرا ما يجحد فضل الله عليه بدليل أن الغالب من الناس يتغافل أو يغفل عن شكر النعمة بالمرة ،وذلك بوضعها فــي غير مواضعها كالبغي والبطر عند الغناء وغيرهما كالظلم الذى ينافــــي المقصود من الخلافة في الأرض. ووجود هذه السنة العادلة المطلقة المعدة لتحكم مسار الحياة في كل مكان وعلى كل مستوى والمقدرة أيضا بحكمـــة من الله هي التي تعطي لحياة الانسان التفسير بأن له مغزى وغاية من وجوده ،فبالابتلاء يعمل مكافحا ويتألم ويحب الجمال ويكره القبيـــــح ويتطلع الى الفضيلة وفالانسان المحرك لمجرى هذه الحياة باذن الله بصفته جعله الله خليفة في الأرض وجعـل له قوة يتحرك بها لم يخرج بقوته تلك عن دافعين اثنين ،دافع لتحصيل ما يرضى به رغباته الجسمانية ودافع

---

(١) سورة ابراهيم آية ٣٢ ،٣٣ ، ٣٤.

يوءدى به الدور الملائم لكيان الانسان العام ،وهذه حقيقة تعطي الانسان مصلحة التفكير في الغاية من وجوده إذ ليس إرضاء الرغبات الجسمانية أوالمحافظة على ما يلائم شخصيته عموما هما اللذان يحققان له السعادة التي يكدح من أجلها ، اذ موكب الانسان في هذه الحياة هو حلقة متصلة بحلقة أخرى بحيث لم يصل الانسان الى ما يريد من كمال في هذه الدار ،فلا بد من حياة أخرى تتصل بهذه الحياة مثل ما قالوا : كاتصال حياة الجنين في بطن أمه بحياته الدنيوية وذلك أن الجنين في بطن أمه يعد اعدادا صالحا لاستقبال الحياة الجديدة . فكذلك الابتلاء هو مصلحة للانسا ن في إعداده إن استعد وفق إرادته الحرة ليواجه الحياة في عالم الاخرة بقدر ما اجتهد ليحصل مكانة مرموقة مناسبة لاجتهاده في الحياة الدنيا أما اذا لم يستعد ولم يعمل تحقيق رسالته في هذه الحياة ، أو بمعنى آخر إذا لم يكسب الخير ويعمل من أجله سيخسر لا محالة مكانته في الحياة الآخرى ويكون بمثابة جنين ولد مشوها لم يكمل تكوينه وحينئذ ينكره الناس بل ينكر نفسه ، نجد ما أشرنا اليه من معاني واضحة في النص الكريم * ويوم نحشر أعداء الله الى النار فهم يوزعون حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة واليه ترجعون وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم

ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون ذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين * .(١)

وحينما ننظر في مسيرة الحياة وتقلباتها ، وتداول معطياتها بين الناس وحينما نتفكر في الصراع القائم في حياة الانسان للكسب المادى مع ما سخره الله له وذلله له في الكون ليصل الى مبتغاه ، ندرك حقيقة أن الحياة في هذه الدنيا تجرى على سنة الابتلاء . وهذا الادراك يتحقق من خلاله دافع الانسان للترقي بكل أنواعه وفي كل مجالاته والى جهاد النفس ليغالب ما يعترضه من شرور في هذه الدار. وذلك يتطلب النهوض بجميع ما هو ضرورى لتحصيل القيم التي تؤدى دورا كبيرا في جميع تحركات الانسان المختلفة الموصلة الى السعادة التي هي الغاية للانسان.

فهو إذن في كل تحركاته تلك يبحث عن السعادة . والتجربة أثبتت أنه لا سعادة الا من طريق العمل الممتحن من خلاله الانسان ، فالابتلاء اذن أساس في المصالح لا سيما أن الانسان ذو اختيار نظرا لأن الله من عليه بالعقل والارادة وبهما استطاع أن يحكم على الأمور المادية ويميز بين الخير والشر اللذين بينهما الشرع ومن هنا كان الناس متفاوتين في الاختيار من أجل اتمام قضية الابتلاء الذى به قدر أن يكون الناس

---

(١) سورة فصلت آية ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ .

مختلفي المواهب والصنائع متفاوتين في الادراك ، يقول الله عز وجل :

﴿ وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم إن ربك سريع العقاب وانه لغفور رحيم ﴾ (١) والاية تقرر إن الناس يخلف بعضهم بعضا لكن منهم من سلك طريق الخير ، ومنهم من سلك طريق الشر . وبناء على السلوكين يكون الارتقاء أو الهبوط أو بمعنى آخر السعادة أو الشقاء . والانسان لا يريد بتحركه ذلك أو سلوكه الا تحقيق السعادة . فهو يكدح ويتدافع لبلوغها . والتجربة أثبتت أن السعادة الكاملة لن تتم في هذه الدار بدليل أن الانسان يرى - مثلا - النبات ينمو ويخضر فيعجب الناظر اليه فما يلبث حتى يذبل وييبس ويتهشم حتى لا يبقى منه شيء ثم من جديد حينما تمطر السماء يخرج مزدهرا ومنبتا في كل مكان صالح للانبات ولذلك يلفت القرآن نظر الانسان الى ظاهرة التغير في الكون كما في قوله عز وجل ﴿ إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس ، كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون ﴾. (٢)

---

(١) سورة الأنعام آية ١٦٥.

(٢) سورة يونس آية ٢٤.

فهذه السنة الكونية تعطي الانسان ظاهرة التغيير في الأشياء وهذا مما لا تتحقق معه السعادة ،بل تقلب الانسان في أطوار عمره وفناؤه أوضح دليل على أن هذه الدار ليست دار سعادة وكل تحركاته تقرر هذه القضية .

لننظر الى الانسان في صراعه. فهو بصراعه بين دوافع الحياة ليصل الى السعادة - رغم تقدم وسائل الحضارة في كل مجال - لم يصل الى السعادة المنشودة بل كلما تقدمت تلك الوسائل ازداد الصراع ، بدليل أن الانسان كلما وصل الى درجة راقية مما كان يريد تطلعت نفسه الى درجة أرقى ،وهكذا الى أن ينتقل من هذه الدار وهو لم يحصل الا على سعادة محدودة ممزوجة بتعاسة . فالعاقل اذن يستفيد من خلال الابتلاء أنه لا بد من حياة أخرى يقام فيها العدل بدليل ما أدركه من أن الاعمال في هذه الدار سواء منها الحسن أو السيء لم يوجد لها جزاء مساو لمستواها في الدنيا ولذلك كان لا بد من حياة يعطى فيها كل ذى حق حقه فتجزى كل نفس بما كسبت . وحينما يستفيد الانسان من تجربته تلك ويصل الى هذه الدرجة ،تأتي عقيدة الايمان التي يحققها الابتلاء للانسان الذى يعيش في عالم التجربة . الانسان من خلال تجربته في عالم المشاهدة سيدرك - مثلا - أنه لا بد لهذا العالم من موجد مدبر حكيم له جميع صفات القدرة والسيطرة وحينئذ يخضع دوافعه إن كان منصفا لميزان العدل بين المادة والروح ولا ميزان إلا من طريق الايمان . ومن هنا فالمؤمن - اضافة الى

هذه المصالح العامة - تحققت له مصالح خاصة بالابتلاء انطلاقا من إيمانه فهو بفكره الثاقب وإيمانه المستنير وما يتبعه من مستلزمات تستبين له معالم ظاهرة الابتلاء لتتحقق له مصالح جمة ،وعندما تثبت حقيقة الابتلاء في نفس المؤمن ويدرك كنهها يتجه الى العمل الدؤوب ليحقق أعلى مراتب الخلافة في الأرض وليعطى الأجر الكريم والمثوبة الحسنى إيمانا منه بقوله تعالى ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة والينا ترجعون ﴾ (١) ووعد الله لا يتخلف بالمثوبة الحسنى والله يقول ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات لهم ما يشاؤون عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير ﴾ (٢) . فالذين أحسنوا العمل يمتازون عمن أساؤوا في مسلكهم فأولئك في روضات الجنات فيما يشاؤون من مآكل ومشارب وملابس ومناكح وملاذ مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ،وأولئك في عرصات الذل والهوان والخوف المحقق عليهم بظلمهم ،فأين منزلة هؤلاء من أولئك ، ومن هنا فالمؤمن بعقيدته الثابتة يدرك أن الاسلام الذى اختاره منهجا وسلوكا لم يترك شيئا يعين الانسان على سعادته الأبانه وأرشده اليه ومهد له السبل كي لا يضل عن طريق الخير ،ولم يترك شيئا يكون سببا في شقاء الانسان ويؤدى به الى سوء العاقبة الا أظهره

---

(١) الانبياء آية ٣٥.

(٢) سورة الشورى آية ٢٢.

وحذره منه كي يكون على بينة من الأمرين المبني عليهما الابتلاء اللذين هما طريق الخير أو طريق الشر ،فالمؤمن اذن بعقيدته هذه فيما يمتحن به ونظرته له من زاوية الايمان تتحقق له مصلحة حسن الاختيار . فمن الطبعي أن يختار ويثبت على طريق الخير انطلاقا من إيمانه ذلك.

وحينئذ يتحقق للمؤمن الامتياز عن غيره لأنه انتفع بما وهبه الله من عقل وسمع وبصر فميز بينهما هو خير والتزم طريقه وبينما هو شر وتجنب سبيله ولذلك ترى الذين لم يدركوا غاية الخلق ومقاصد الوجود في هذه الدار أحط منزلة من العجموات حيث يقول عز وجل من قائل :

* لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها اولئك كالأنعام بل هم أضل اولئك هم الغافلون * (١)

غفلوا عن مجريات الابتلاء الذى خلقوا من أجله فلم يكونوا من الشاكرين حيث لم ينتفعوا بشيء من تلك الجوارح التي جعلها الله سببا للهداية كما قال عز وجل * وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون *. (٢)

فلما لم يستعملوا جوارحهم فيما نيطت بها معرفته من فنون النعم ويستدلوا بها على شئون منعمها ويداوموا على شكره جل شأنه لم تغن

---

(١) سورة الأعراف آية ١٧٩.

(٢) سورة الأحقاف آية ٢٦.

عنهم من عذاب الله شيئا وذلك أنهم لم يستفيدوا بسمعهم من الوحي ومواعظ الرسل ولا ببصرهم من الآيات الكونية المرسومة في صحائف العالم ولا بقلوبهم في معرفة الله لما كانوا كذلك لم يتبعوا طريق الخير فكفروا والعاقبة الحتمية هي الخلود في النار وبئس القرار . نوءيد ذلك بقول الله الكريم * انا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا ، إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا ، إنا أعتدنا للكافرين سلاسلا وأغلالا وسعيرا *.(١)

وبهذا نكون قد علمنا أن ظاهرة الابتلاء هي التي تبرز فعل الانسان المختار ليتم العطاء أو الحرمان من ميزان العدل الالهي ولتتحقق أيضا تلك المصالح الموءدية الى الايمان عموما . بيد أن السوءال الذى يفرض نفسه ويجد العاقل فكره مضطرا الى الجواب عنه هو : كيف أتاح الله للانسان ما يصحح به ابتلاءه؟، هذا ما سوف نتطرق إليه في الفصل القادم إن شاء الله .

---

(١) سورة الانسان آية : ٢، ٣، ٤ .

الفصل الثالث

أتاح الله للانسان ما يصحح به ابتلاءه

الفصل الثالث

أتاح الله للانسان ما يصحح به ابتلاءه

هل أتاح الله لهذا الانسان الذى خلقه ليبتليه من الوسائل ما يؤهله أولا لهذا الابتلاء ، ثم ما يمكنه ثانيا من اجتيازه بنجاح أو أنه تركه غفلا أعزل لا قدرة له ولا عدة معه ؟

وللجواب ،نقول : نعم قد أتاح الله لهذا الانسان المؤهلات لهذا الابتلاء ،وهيأه لبلوغ أقصى درجات الامتياز في النجاح فيه ،وتتمثل هذه الوسائل فيما يلي :

أولا : الفطـرة :

وهي لغة : اسم هيئة من الفطر الذى هو الايجاد والاختراع كما قال ابن الأثير (١) ، أو هي الايجاد على هيئة مرشحة لفعل من الأفعال كما يقول الراغب.(٢)

---

(١) الفطرة : الابتداء والاختراع والفطرة الحالة منه كالجلسة. والمعنى أنه يولد على نوع من الجبلة والطبع المتهيء لقبول الدين فلو ترك عليها لاستمر على لزومها ولم يفارقها الى غيرها ،وانما يعدل عنه من يعدل لآفات من آفات البشر والتقليد ، النهاية ، تحقيق محمود الطناحي جـ٣ /٤٥٧ ،نشر دار الفكر .

(٢) وفطر الله الخلق وهوايجاده الشيء وابداعه على هيئة مترشحة لفعل من الأفعال . فقوله ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها ﴾ إشارة منه تعالى إلى ما فطر أى أبدع وركز في الناس من معرفته " المفردات ،مادة فطر ، ص ٣٨٢ ط/ الحلبية.

وأما في الشرع : فللناس فيها أقوال عديدة ،خيرها وأجلهـــا وأقومها حجـة وأسلمها من النقد والشبهة ،أنها الاسلام وهو المعنى المقصود في قوله تعالى ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾.(١)

وفي قوله صلى الله عليه وسلم من حديث أبي هريرة : " ما من مولود الا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانـــه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء . ثـم يقول : رضي الله عنه " فطرة الله التي فطر الناس عليها ".(٢)

وفي شرح هذا الحديث يقول الحافظ ابن حجر (٣) في الفتح : وأشهر الأقوال أن المراد بالفطرة : الاسلام . قال ابن عبد البـر وهو المعروف عند عامة السلف.. . الى ان قال - وفي المسألة : أقـوال أخرى ذكرها ابن عبد البر وغيره ،منها : قول ابن المبارك أن المراد أنه يولد على ما يصيـر إليه من شقاوة أو سعـادة ، فمن علم الله أنه يصيـر

---

(١) سورة الروم آية ٣٠ . كتاب القدر باب معنى كل مولود

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى ج ١٦ / ٢٠٧ ط الثانية .
والبخاري بشرحه الفتح ج ١ / ١٣٠ كتاب في التفسير . واللفظ للبخاري باب قوله تعالى: لا تبديل لخلق الله

(٣) ج ٣ / ص ٢٤٨ / ٢٤٩ ،الجنائز وانظر رسالة ابن تيميه في الكلام على الفطرة ، مجموعة الرسائل الكبرى ج٢/ ٣٣٤ ، نشر دار الفكر .

مسلما ولد على الاسلام ومن علم الله أنه يصير كافرا ولد على الكفر . فكأنه أول الفطرة بالعلم . وتعقب بأنه لو كان كذلك لم يكن لقوله : " فأبواه يهودانه الخ - معنىً لانهما فعلا به ما هو الفطرة التي ولد عليها فينافي التمثيل بحال البهيمة . ومنها أن المراد أن الله خلق فيهم المعرفة والانكار ،فلما أخذ الميثاق من الذرية قالوا : جميعا " بلى " أما أهل السعادة فقالوها طوعا وأما أهل الشقاوة فقالوها كرها .

قال محمد بن نصر (١) : سمعت اسحاق بن راهويه (٢) يذهب الى هذا المعنى ويرجحه . وتعقب بأنه يحتاج الى نقل صحيح ،فانه لا يعرف هذا التفصيل عند أخذ الميثاق إلا عند السدى (٣) ولم يسنده وكأنه أخذه من الاسرائيليات ،حكاه ابن القيم عن شيخه ابن تيميه ، ومنها أن المراد بالفطرة الخلقة ،أى : يولد سالما لا يعرف كفرا ولا إيمانا ثم يعتقد إذا بلغ التكليف ورجحه ابن عبد البر وقال : إنه يطابق التمثيل بالبهيمة ولا يخالف حديث (٤) عياض ،لأن المراد بقوله : حنفاء أى على استقامة .

---

(١) هو المروزى ابو عبدالله ثقة حافظ توفى سنة اربع وتسعين ، التقريب جـ٢ ص ١١٣ .

(٢) هو أبو محمد المروزى ثقة حافظ مجتهد توفى سنة ثمان وثلاثين التقريب جـ١ ص ٥٤ .

(٣) هو اسحاق بن عبد الرحمن الكوفي ،صدوق يهم رمي بالتشيع توفى سنة سبع وعشرين ،التقريب جـ١ ص ٧١ .

(٤) " واني خلقت عبادى حنفاء كلهم وانهم اتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم " انظر صحيح مسلم بشرح النووى جـ١٧ / ١٩٦ ،ط/ الثانية وعياض بكسر اوله بن حمار بن أبي حمار التميمي المجاشعي . رالاصابة جـ٣ / ٤٨ وأسد الغابة جـ٤ / ١٦٢ .

وتعقب بأنه لو كان كذلك لم يقتصر في أحوال التبديل على ملل الكفر دون ملة الاسلام ،ولم يكن لاستشهاد أبي هريرة بالاية معنى .

ومنها قول بعضهم : إن اللام في الفطرة للعهد ،أى فطرة أبويه ،وهو متعقب بما ذكر في الذى قبله.(١)

ويؤيد المذهب الصحيح أن قوله : "فأبواه يهودانه" ليس فيه لوجود الفطرة شرط بل ذكر ما يمنع موجبها كحصول اليهودية مثلا متوقف على أشياء خارجة عن الفطرة بخلاف الاسلام. والذى يعنينا في الموضوع أن الآية الكريمة والحديث الشريف بينا أن الانسان خلق مجبولا على أن يسلك طريق الاسلام الذى هو طريق النجاح ،فرسول الاسلام صلى الله عليه وسلم ضرب المثل في هذا الحديث مقربا معنى كيفية خروج الانسان عن أصله مما يجعله خاسرا في الابتلاء من حيث إن البهيمة تولد جمعاء كاملة الخلقة ،وانما تجدع بفعل فاعل من خارجها . فكذلك الانسان يولد مهيأ لقبول الدين ممكنا في جبلته أصل الهدى ،فلو ترك لم يقبل غير طريق الخير الذى اذا سلكه نجح ،وبذلك يتبين أن التدين في الانسان بفطرته عميق ،واحساسه به أصيل ولذلك ما يلبث الانسان الذى أصر مكابرا معاندا معرضا عن الاستجابة الى الدعوة التي وافقت

---

(١) بمعنى أنه لو كان على فطرة أبويه لكان مسلما ،لأن الكافر خرج عن فطرته بفعل فاعل فكيف تكون أل للعهد ولأن الكفر طارئ بدليل الحديث الذى معنا .

فطرته . ما يلبث حينما تحيط به معضلة أو تنزل به نازلة حتى يرجع الى فطرته المتأصلة فيه فيخلص الالتجاء الى الله . والقرآن الكريم وضح هذه الصورة أوضح بيان . حيث يقول عز من قائل ﴿ هو الذى يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم ، دعوا الله مخلصين له الدين ،لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ﴾(١) فالآية الكريمة ظاهرة المعنى على أن الله ركز في الانسان ما يجعله يسلك طريق الهدى إن لم يجانب الصواب في الاختيار ، فاذا كان هذا حال المرء من الذى يطلب الهداية ، فان هؤلاء الكفار الذين عاندوا وكابروا فلم يقبلوا دين الله الموافق لفطرتهم ما لبثوا حين ادلهمهم الخطب واشتدت عليهم عاصفة البلاء ،ما لبثوا - والحالة هذه - حتى أخلصوا التوحيد والتوجه ،فرجعوا إلى جبلتهم المركوزة في طبائعهم حتى قال قائلهم : لئن لم ينجني في البحر إلا الاخلاص ما ينجني في البر غيره.(٢)

وهكذا كل إنسان سوى يحس في داخل نفسه أنه في حاجة الى قوة فوق قوته والى موجد أوجده ، وهو تحت سطوته ،والانسان بحسه

---

(١) سورة يونس آية ٢٢.

(٢) القصة في سنن النسائي بشرح السيوطي جـ٧/ص ١٠٥، ١٠٦.

ذلك يعيش دوما في حاجة الى من يلتجىء اليه . ولذلك حينما نتتبع مسالك البشرية على مدار تاريخها نجد أنه لم تخل أمة أو جيل إلا ويتجه الى الخضوع لشيء يسد به ما تحسه نفسه من فراغ . وهذه الحقيقة تعطينا أن الله جعل الانسان مفطورا على العبادة وهو بذلك قد سهل له طريق النجاح بجعله مفطورا عليها ، وقد سبق معنا بيان أنها ميدان للابتلاء فأتاح الله له فرصة كاملة لاتباع طريق الحق الذى يؤدى به إلى النجاة ، وهذا دليل على أن الانسان باختياره طريق الضلال في ميدان الابتلاء قد عدل عن فطرته المركوزة فيه وتكلف مالبس من طبعه بحيث خرج عن جبلته ، ولذلك كان الجزاء من الله عدلا .

فالخروج عن الفطرة المدعمة بالشرع خروج عما تميل اليه طبيعة الانسان ، بدليل أن هذه الفطرة تتطلع دائما الى البحث عن معرفة بارئها اذا انطلقت محررة من أى انحراف . فعدول الانسان عن فطرته التي خلق عليها كعدول إنسان مريض عن غذاء ملائم لطبيعته ، فمتى ما عدل عما يوافق طبيعته ويليق بها من الأغذية كان قد تسبب في اضمحلاله ووصول الأذى إليه ،فكذلك طبيعته الفطرية إن هو عدل بها عما يليق به من خير أو هدى إلى شر أو ضلال ، فقد ألحق بها الأذى وأحل بها النقمة ،وحينئذ يخسر في الامتحان. فالفطرة إذن في الانسان بمثابة الجسم فيه أيضا فكما ينساق الى الغذاء تلبية لحاجة جسمه فكذلك ينساق بفطرته لتلبية حاجتها،إلا أنه قد يخطىء في

كيفية تلبية حاجته هذه ،وهو المسئول عن خطئه . ومتى ما ذهب الانسان بفطرته إلى ما هو أنجع له وأنفع حسنت أحواله ،واستوى نظامه . وبالتالي ينتفع بوجوده في الحياة الدنيا فلا يسلك الا طريق الخير . والانسان حينما يلتزم بما يؤيد الفطرة من توجيهات إلهية وسنن نبوية يكون قد حقق نجاحه فيما سيمر به من ابتلاء.

ولما كانت الفطرة شيئا مركوزا في الانسان يدفعه إلى مبتغاه الذى يرضيه ،كان لا مناص من ترشيد تلك الخلقة الجوهرية في الانسان بالعقل ، إذ العقل يخرج بفطرة الانسان من عين التقليد ، فكم من إنسان يريد أن يتجه الى العبادة بحكم فطرته لكنه قد يخطيء في كيفية تأدية هذه العبادة ،فيعبد جمادا لا ينفع ولا يضر ، فلا بد من ترشيد هذه الفطرة ، نظرا لأن المقصود هو اتباع الحق . ولذلك نجد القرآن الكريم ما فتيء يذكر الانسان ويدعوه الى استعمال العقل منبع العلم والمعرفة وهو الذى يمنع الانسان أن يضل بفطرته فتخطيء المنهج اللائق بها وهو الوسيلة الثانية لا نجاح الانسان في الابتلاء .

ثانيا : وسيلة العقل .

مما امتن الله به على الانسان وميزه به عن غيره أن جعله ذا عقل تشريفا له وتكريما . ميزه عن الحيوان بالفكرة العقلية التي تهديه الى اتباع الحق المشرعي ومعرفة الخير للعمل به فأعطى الانسان بذلك

القدرة على تحصيل الفضيلة واجتناب الرزيلة . ومن هنا كان العقل في الانسان تابع للشرع هو الذي طريق المعرفة بمسالك الصواب والعلم لاجتناب الخطإ ، وهذا ما لاحظه علماء اللغة ،يقول صاحب مقاييس اللغة :

" وهو - العقل - الحابس عند ذميم القول والفعل . ونقل عنه الخليل قوله : العقل نقيض الجهل ،يقال : عقل يعقل عقلا ، إذا عرف ما كان يجهله قبل . أوانزجر عما كان يفعله ".(١)

فالانسان اذا استعمل ما رزق من عقل ففكر به في نفسه رأى آثار قدرة عظيمة ، فنظر الانسان في أصل نشأته يجعله يدرك أنه تنقل في أطوار عدة . فبعد أن كان نطفة ، صار علقة ،ثم مضغة ، كما قال عز وجل * ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين *(٢)
ثم بعد وصول الانسان الى الكمال العقلي ينقل الى أطوار هو يكرهها طبعا ولا يستطيع أن يدفعها عن نفسه ،وذلك أنه نقل من الفتوة والشباب إلى الكهولة والشيخوخة كما قال عز وجل * ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا * .

---

(١) مادة عقل جـ٤ / ٦٩ ط. الثانية الحلبية.

(٢) سورة المؤمنون آية ١٢ ،١٣ ،١٤ .

فالعقل إذن جعل الله فيه قدرة على تحصيل المعرفة بحيث يدرك حقائق مجردة بحكم تكوينه الروحي وذلك لما كان قابلا لفهم الأشياء فتكون معقولة . وحينما تتوفر للعقل قواعد القياس السليم من مقدمات ونتائج وما يحيط بتلك المقدمات ونتائجها من عوامل يتطلبها النظر في شيء ما ،فان العقل في الغالب يصل الى الأسباب الدالة على الخالق ،فالعقل إذن مهمته الأولى أن يعين الانسان على أنجع طريق لاجابة النوازع الفطرية . وكثيرا ما لفت القرآن الكريم النظر الى استعمال العقل للدلالة على الخالق المؤثر للايمان به مثل قوله تعالى ﴿ ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾(١) والمراد يتفكرون بأن يستعملوا عقولهم في استنباط أسبابها وكيفية تكونها ليظهر لهم كمال قدرة الصانع جل شأنه وحكمته في تكوين ظاهرة البرق أو الأسباب التي تؤدى إلى نزول الأمطار فتظهر قدرة الفاعل المختار في أعلى قوة من الكمال . والمتأمل في قوله تعالى بصدد تكوين الأمطار ﴿ ألم تر أن الله يزجى سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار يقلب الله الليل والنهار إن في ذلك لعبرة لأولى الأبصار ﴾.(٢)

---

(١) سورة الروم آية ٢٤.

(٢) سورة النور آية ٤٣.

المتأمل في ذلك يرى الدلالة الباهرة والاحاطة الشاملة والسيطرة المتفردة بالوحدانية ،والانسان إذا استعمل عقله مستبصرا لا شك أنه سينجح في معركة الامتحان . والقرآن الكريم أخبر كاشفا عن ندم واعتراف الذين لم يستعملوا عقولهم فقال عز من قائل ﴿ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير ،فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير ﴾.(١)

فلو تفكر الانسان بعقله في الدليل المسموع أو المبصر معتمدا في ذلك على ما ظهر له من صدق المعجزات لنجح ولما كان من الخاسرين. فتحكيم العقل إذن يرشد الى النهج القويم. الا أن العقل وهو على الحال التي ذكرنا في حاجة الى وسيلة تعينه على إدراك الأشياء وقد أتاح الله له من وسائل المعرفة .

وسيلة السمع والبصر :

امتن الله على الانسان بنعمتي السمع والبصر فجعله سميعا بصيرا يستطيع أن يتجه بنظره الى الآيات المبصرة من آفاقية أو أنفسيه وبسمعه إلى الدلائل المسموعة : يقول عز من قائل : ﴿ إنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا ﴾.(٢)

---

(١) سورة الملك آية ١٠/١١.

(٢) سورة الانسان آية : ٢.

وقد جعل الله للانسان هذه الالات ليدرك بها المعرفة ويعلم بها علوما يتمكن بها من النظر في الاشياء التي تجعله يصل الى طريق الخير. فيسمعه يدرك الآيات التنزيلية الناطقة بالتوحيد والبعث ،وببصره يدرك الايات التكوينية الشاهدة عليها . فبواسطة السمع والبصر يتوصل الانسان الى التمتع بسائر النعم الدينية والدنيوية وفي معرض الامتنان على الانسان بنعمة السمع والبصر يقول الله عز وجل: * قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من اله غير الله يأتيكم به انظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون *(١) ، فلو فات الانسان المسموع والمبصر لفاته الكثير من آيات الله وأعظمها خطرا ، ولو فقد الانسان البصر والسمع لاختلت حياته والتبست عليه الأمور حتى لا يرى موضع قدمه . وبالتالي لا تتاح له فرصة النظر في ملك الله وعجائبه ولذلك من الله على الانسان بالبصر فأودعه نورا يبصر به الضوء الباهر الذى ينظر به ما بين السموت والأرض ليرى الدلائل الواضحة على أن للكون صانعا واحدا له جميع صفات الكمال ،ومما يراه الانسان من الدلائل المبصرة أن الأرض اليابسة التي لا نبات فيها ولا ماء تصبح مخضرة فيرى الماء مساقا إليها واذا النبات والزروع تخرج زاهية للناس والأنعام ،فتنتشر فوق الأرض التي كانت جرداء خالية من الخضرة .

---

(١) سورة الأنعام آية ٤٦.

وقد دعا القرآن الانسان إلى التفكر في ذلك كما قال عز وجل :

* أولم يروا أنا نسوق الماء الى الأرض الجرز فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون *.(١)

وما أحسن قول القائل ،واصفا النبات الخارج من الأرض :

تأمل في نبات الأرض وانظر الى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات وأحداق كما الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات بأن الله ليس له شريك (٢)

فلو تأمل الانسان فيما يبصره من نعم شتى مدركة بالحس أو معقولة مسخرة له يشاهدها في كل مكان من حوله وينتفع بها في كل مايحتاج إليه في حياته لاستيقظ من غفلته واحتمى بطريق الهدى واستنار بمنهج الاسلام القويم وقد خاطب القرآن الذين لم ينتفعوا بالمبصرات من حولهم على وجه التقريع لهم لما لم يهتدوا بما يشاهدونه من دلائل مبصرة ونعم ظاهرة * ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموت وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة *(٣) . فمن تأمل ببصره في المبصرات الكونية وأصغى بسمعه للدلائل السمعية لا شك أنه

---

(١) سورة السجدة آية ٢٧.

(٢) ذكرها ابن كثير منسوبة لابي نواس في تفسيره جـ١/ ٥٩ ،نشر دار التراث القاهرة وهي من بحر الوافر .

(٣) سورة لقمان آية ٢٠.

سيسلك طريق الخير ويعرض عن طريق الشر ، ولو نظر الانسان في تقلب الليل والنهار لأدرك أن الله جعل الليل زمانا للراحة والسكن والاستجمام بعد التعب في النهار ، فاذا استراحت النفوس وأخذت من الليل سباتها انفلق الصبح وكشف عن العالم وانتشر الخلق جميعا ابتغاء مصالحهم ، فلو كان الليل فقط . أو النهار فقط لما استمرت الحياة فوق البسيطة لما لكل من الليل والنهار مصالح خاصة فلا تغني إحداهما عن الأخرى يقول عز من قائل ﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون ، قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيمه من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ، ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ (١) فلو استعمل الانسان سمعه مصغيا بتأمل وقبول للدلائل لتعرف على أن الله له القدرة المطلقة والتفرد في الخلق والابداع ولو استعمل البصر أيضا متأملا ما يبصره من شواهد منصوبة دالة على قدرة القدير وصنعة المختار المدبر لرأى ما يبهره وما يرشده الى معرفة ربه وخالقه ورازقه الذى تجب الطاعة المطلقة له.

---

(١) سورة القصص آية : ٧١، ٧٢، ٧٣.

وسيلة الوحـى :

ولما كان قصارى ما يفعله العقل المستنير بوسيلة السمع والبصر هوموافقة الفطرة الى طريق النجاة ، كان في حاجة إلى ما يوصل إلـى معرفة دقائق الشرع .

ولا سبيل إلى ذلك إلا أن يؤتينا الله وسيلة أخرى لتكميل العقـل بما يثبت به على ما يدركه من حقائق عامة بتوجيه إلهي من خلال حقيقة الوحى حتى لا يضل العقل سبل السلامة والهداية فيخطىء بصاحبه طريق النجاة.

والوحي مصدره وحى يحي من باب وعد . فالواو والحاء والحرف المعتل أصل يدل على إلقاء علم في خفاء أوغيره . ويقال : أوحى إليه بالالف مثله . ويكون بالاشارة والرسالة والكتابة وكل ما ألقيته الى غيرك ليعلمه وحيى كيف كان ، ثم غلب استعمال الوحي فيما يلقى الى الأنبياء من عند الله تعالى .(١) وهو ما يعبر عنه بعضهم(٢) بقوله : " ما أنزل الله على أنبيائه وعرفهم به من أنباء الغيب والشرائع والحكم " ، وهذه الرسالة ليست بصدد البيان لما تعدد من أنواعه وكيفياته فلذلك مجاله اللائق به من كتب الحديث والتوحيد وغيرها

----

(١) المصباح المنير جـ٢/ ٨١٠ ، نشر دار الكتب بيروت ، ومقاييس اللغة جـ٦/ ٩٣ ، مادة وحى . ط/ الحلبية الثانية .

(٢) انظر الوحي المحمدى لمحمد رشيد رضا ص ٤٤ طبعة المكتب الاسلامي .

وإنما المهم فيما أنا بصدده هنا أن ابرز للقارىء الثمرة العظمى التي تتم بهذا الوحي وهذه الثمرة نلخصها في الآتي :

أ - هداية الله العامة الى الأصول النافعة التي لا بد منها لصلاح الفرد والجماعة في الدنيا والآخرة ،

لأن العقل والحواس الظاهرة لا تغني عن ذلك إذ لا يمكن أن ينقاد جميع الأناسي لرأى عاقل بناء على أنه حق ، فمن الممكن أن تخالف جماعة شخصا عاقلا وهو لا يستطيع إلزامهم بأن فكره هو الصواب . والثابت في الناس هو اختلاف مداركهم مما يترتب عليه الاختلاف في الأهواء والنحل . صحيح أن الناس جميعا تلجئهم فطرتهم الى البحث عما يحسون به من قوة مسيطرة وأنهم تحت قهر وغلبة لكن لما اختلفت عقولهم في الادراك كانوا في حاجة الى الوحي فمن الله به عليهم ليرشدهم الى ما فيه صلاحهم بجمعهم على طريق واحد في العقيدة والمنهج يقول عز من قائل ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون ﴾.(١)

ب - كبح جوامح النفس تجاه نوازع الشر المتعددة ومغريات الفتن المتنوعة كاستعماله وسائل الترهيب المختلفة وبيان

---

(١) سورة النحل آية : ٤٤ .

ما أعد الله للأشرار من جزاء وبيل فيرفع الانسان يده عن الباطل والشر ويتوجه الى طريق الخير والحق ؛ لأن الانسان ذو طبيعة قابلة للخير والشر ،وهو بعقله فقط معرض للخطأ أو الاهمال فيسلك طريق الشر مسخرا شهواته ولذاته لأهوائه . فتورده موارد الشر وسوء العاقبة . فلا ثبات على نهج قويم وصراط سليم إلا عن طريق الوحي الذى نزل من عند العليم الخبير . يقول سبحانه ﴿ يأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا فأما الذين ءامنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطا مستقيما ﴾.(١)

فالوحي إذن بين للانسان طريق الخير والحق ودعاه إلى الايمان الذى تبنى عليه في الحقيقة جميع الخيرات ، دعاه إلى زجر النفوس عن هواها والى ضبط شهواتها بالصبر والايثار وعدم الاغترار بالدنيا وزخارفها .

جـ - وضع أعظم الحوافز الضابطة لسلوك النفس والدافعة لها الى اختيار مجالات الخير ومسالك البر باستعمال وسائل الترغيب المتعددة وبيان ما ينتظر المتقين من الجزاء الا وفي كبيان مصير الذين اعتصموا بالتقوى وهي الصفة الجامعة لكل سبل النجاح

----

(١) سورة النساء آية ١٧٤ ، ١٧٥.

كما قال تعالى ﴿ وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلم عليكم طبتم فادخلوها خالدين ﴾.(١)

وفي بيان أن المتقين لهم جنات النعيم ما يرغب الانسان في سلوك سبلها . والله يقول ﴿ تلك الدار الاخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا ،والعاقبة للمتقين ﴾.(٢)

د - كشف العدو المبين الذى يعمل على اغتيال نور القلب وإهلاك حياة الروح سواء كان هذا العدو من الداخل كالنفس أم من الخارج كالشيطان والكفار والمنافقين .

١ - فبالنسبة للشيطان حذر الوحي من اتباعه والانقياد له اذ في ذلك الفتنة والبلاء بحيث يوسوس للانسان بما يمنعه من الثبات على الايمان . ومن هنا - يوم القيامة - سيخاطب الله من لم يعقل على وجه التقريع والتبكيت على متابعة عدوه الشيطان وعلى مخالفته سبيل الحق الذى لو اتبعه الانسان لنجاه الابتلاء فيقول عز من قائل ﴿ ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم ،ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون ﴾.(٣)

---

(١) سورة الزمر آية ٧٣.

(٢) سورة القصص آية ٨٣.

(٣) سورة يس آية ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢.

والشيطان غيب عن الانسان فلا يراه بينما الشيطان يراه كما أخبر عز وجل محذرا الانسان من فتنته * يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون *(١)، فللشيطان قدرة على التأثير في أنفسنا فيقوى فيها رغبات الشر فلولا الوحي ما تبين للانسان المسالك التي يعمد إليها الشيطان لاغوائه . ولا مانع للشيطان من إضلال الانسان الا الوحي فهو وحده الكاشف للانسان عن مسالك الشيطان.

٢ - وبالنسبة للنفس ،فالمعروف عنها أنها ميالة للذائذ والشهوات ، فإن لم توضع لها حدود زاغت عن الحق وضلت بصاحبها عن السبيل المنجي ، ولذلك أنزل الله الوحي هاديا للانسان إلى طريق النجاة ومبينا الرشد من الضلال ، لأن من سلك طريق الخير وطهر نفسه ظاهرا وباطنا فاز ونجا ،ومن ضل بالمعاصي والنقائص خسرها . يبين ما قررناه قوله تعالى * إن يتبعون الا الظن وما تهوى الأنفس ،ولقد جاءهم من ربهم الهدى أم للانسان ما تمنى فلله الآخرة والأولى *(٢) وقوله تعالى * ونفس وما سواها ،فألهمها فجورها وتقواها ،قد أفلح من زكاها ،وقد خاب من دساها *(٣).

---

(١) سورة الأعراف آية ٢٧.

(٢) سورة النجم آية ٢٣.

(٣) سورة الشمس آية ٧، ٨، ٩، ١٠.

٣ - وبالنسبة للكفار والمنافقين فهم جادون في إيصال الشر للمؤمنين ويتطلعون لادخالهم في حزبهم ولذلك كشف الله عن عواقب طاعة الكافرين الذين يأملون أن يرجعوا بالمؤمنين الى الضلال بادخالهم في الظلمات بعد أن من الله عليهم بالايمان ، يقول عز من قائل:

* يأيها الذين ءامنوا إن تطيعوا فريقا من الذين اوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين ، وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم * (١) ، وقوله تعالى * يأيها الذين ءامنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين بل الله مولاكم وهو خير الناصرين *. (٢)

وطالما تمنى أهل الكتاب إرجاع المؤمنين إلى الضلال كما فعل اليهود بعد وقعة أحد حينما قالوا للمسلمين : لو كنتم على الحق لما هزمتم فارجعوا الى ديننا فهو خير لكم (٣) ، فنزل قوله تعالى:

* ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير *. (٤)

---

(١) سورة آل عمران آية ١٠٠ ، ١٠١.

(٢) سورة آل عمران آية ١٤٩ ، ١٥٠.

(٣) روح المعاني للآلوسي م١ / ج١ / ص ٣٥٦ ، نشر دار الفكر.

(٤) سورة البقرة آية ١٠٩.

أما المنافقون ، فقد كشف القرآن أمرهم الى درجة أن سورة كاملة نزلت في شأنهم ،كما أن سورة التوبة أسهبت بجانب كبير في كشف أمرهم للموءمنين ، فبينت مراوغتهم و تثبيطهم في أمر الجهاد الذى هو ذروة سنام الاسلام وذلك كما فعلوا في غزوة تبوك حينما تخلفوا عن الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ،فأخبر سبحانه بأنهم لو خرجوا معكم لفتنوكم بما سوف ينشرونه بينكم من نصب الحبال والمكايد لا سيما أن فيكم من يسمع اليهم وتنطلي عليه مقاصدهم وذلك قوله تعالى * لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين *.(١)

هـ - بيان التشريعات الالهية التي ارتضاها الله لعباده والتي لولاها ما كان للانسان أن يحيا حياة طيبة وما كان له أيضا أن يميز العمل الصالح من غيره كما قال عز وجل * من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو موءمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون *(٢) ولا يمكن لغير الوحي من قبله سبحانه التلميح بشيء من ذلك العمل وتحديده دع عنك الافصاح به.

---

(١) سورة التوبة آية ٤٧.

(٢) سورة النحل آية ٩٧.

والنجاح في الابتلاء الذى خلق له الانسان مرهون بطهارة النفوس واستقامة الضمائر . ولا يحصل ذلك إلا بالوحي لأنه بالتشريع الالهي تزكو نفس الانسان ، وتتجه الى الخير المؤدى الى النجاة. فلما كان العباد لا يتجهون للأحكام التكليفية الا بمعرفتها عن طريق الوحي منّ الله بالوحي على العباد تكريما لهم .

و - إنارة العقل بعلوم ومعارف سامية تتعلق بالحق سبحانه تارة وبملكه أو ملكوته تارة أخرى ، لما كان لا يمكن إدراكها إلا بهذه النعمة الجليلة ، أعني نعمة الوحي كان لزاما بيانها به ، فمثلا ثبت بالدليل العقلي أنه من الضرورى وجود حياة أخرى بعد الحياة الدنيا حتى يقام العدل بين البشر ، فكم من مظلوم ضاع حقه وكم من صالح اتهم لصلاحه وكم من فاسق جائر عتا في الأرض فسادا.

ففي هذه الحياة ظواهر اجتماعية تحتم وجود حياة أخرى يعطى فيها كل ذى حق حقه وينصف فيها كل مظلوم ويحاسب فيها كل ظالم فمنّ الله بالوحي مبينا أنه في دار الاخرة عقاب وثواب ، وقبل ذلك فترة حساب ما يطمئن المظلوم فيعتقد أن حقه لم يضع منه . وليرتدع الظالم ويرد الحقوق لأهلها وبالتالي يقلع عن ظلم الناس خوفا من العقاب في الحياة الأخرى كما قال عز وجل ﴿ اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب ﴾ (١) فأحوال ذلك

----

(١) سورة غافر آية ١٧ .

اليوم مما أعد فيه من جزاء وثواب قد خفيت على العقل ولا يمكن للانسان إدراكها فلا بيان لذلك الا من طريق الوحي .

ز - إقامة الحجة للذين آمنوا وصدقوا بما أنزل إليهم من عند الله فعملوا عملا صالحا وفق ذلك. وعلى الذين كفروا واستكبروا عما أنزل اليهم كما قال عز وجل ﴿ ولو ترى اذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وانهم لكاذبون ﴾ (١) ، يخبر تعالى عن حال الكفار حينما رأوا بأعينهم تلك الأمور العظام والأهوال الجسام بأنهم تمنوا أن يردوا الى دار الابتلاء ليعملوا العمل الصالح ولا يكذب بالايات التي نصبت وهذا صادر منهم لما رأوا العذاب المحقق وإلا فهم كاذبون . وهكذا فالذين آمنوا لما اتبعوا طريق الحق بانصياعهم لما يلقى إليهم من دلائل سمعية وما قد نصب في الكون من دلائل بصرية نجوا . وأما الذين جحدوا فقد خرجوا عن طريق النجاة فلم ينتفعوا بعقولهم، لأنهم لم يتدبروا الأدلة سواء كانت سمعية أو بصرية . يقول الله عز وجل ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾ (٢)

---

(١) سورة الأنعام آية ٢٧ ، ٢٨.

(٢) سورة الحديد آية ٢٥.

ويقول تعالى أيضا ﴿ يأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا فأما الذين ءامنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم اليهم صراطا مستقيما ﴾ (١) ، فأخبر سبحانه أنه أنزل الكتاب لمن يريد خيرى الدنيا والاخرة فأمر باتباعه وحذر من مخالفة أوامره فدعا الناس جميعا الى الاعتراف برسالة محمد صلى الله عليه وسلم لأنها البرهان على تحقيق الحق وإبطال الباطل والقرآن هو النور المبين ؛لأنه سبب لوقوع نور الايمان في القلب. (٢)

ففي هذا قطع للأعذار التي يمكن لبعض الجاحدين اتخاذها حجة لو لم ينزل ، أما وقد انزل الله كتابه فهو حجة واضحة للذين ءامنوا فسلكوا طريق النجاة باتباعهم للوحي الذى أنزل من عند الله جامعا لما يحتاج إليه الناس في جميع شئون حياتهم . وحجة على الذين سلكوا سبيل العناد فلم يؤمنوا بما أنزل إليهم وبذلك قطع الله عذرهم لا سيما الذين لم يسبق أن نزل إليهم كتاب ،فيعتذرون بالقول: إنما نزل على من كان قبلنا . وما كنا نفهم ما يقولون ،ونحن في غفلة وشغل ، كما قال عز وجل ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة ﴾ (٣)

---

(١) سورة النساء آية ١٧٤ ، ١٧٥ .

(٢) انظر روح المعاني م ٢ / ج ٦/ ص ٤٢ ، ٤٣ .

(٣) سورة الأنعام اية ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ .

والمراد من الآيــة الدعوة الى اتباع القرآن وتدبره والعمل
به لأنه عين الرحمة والهدى . وحبل الله المتين من أخذ به واتبعـه
حصلت له البركـة ،في دنياه وآخرته كما أنه في إنزاله قطـع لشبهـه
المكذبيـن والذين سوف يتخذون عدم انزاله-لو لم ينـزل - ذريعـة
للنجاة من الجزاء الذى حق عليهم لما خالفوا ما أنزل اليهـم
من أوامر ونواه .

الباب الثاني

الابتلاء بالخير والشر

ويتضمن الفصول التالية :

الفصل الأول : مفهوم الابتلاء بالخير والشر معنى وصفة وحكمة

الفصل الثاني : الابتلاء بالتكليف .

الفصل الثالث : الابتلاء بالمال والولد .

الفصل الرابع : الابتلاء بالمصائب .

الفصل الأول

مفهوم الابتلاء بالخير والشر معنى وصفة وحكمة ؟

لما كان الانسان مبتلى بالخير والشر ومعرضا لهما لزم النظر في معنى وكيفية وحكمة ابتلاء الانسان بهما . وقبل كل شيء أرى لزاما على الباحث في مثل هذه القضية أن يحدد مفاد الخير والشر المراد في هذا الباب . وفي ذلك يقول الراغب الأصفهاني (١) في تفسير الخير ما نصه : الخير ما يرغب فيه الكل كالعقل مثلا والعدل والفضل والشيء النافع . وضده الشر . قيل : والخير ضربان خير مطلق وهو أن يكون مرغوبا فيه بكل حال وعند كل أحد كما وصف عليه السلام به الجنة فقال : لا خير بخير بعده النار ولا شر بشر بعده الجنة ،(٢) وخير وشر مقيدان وهو أن يكون خيرا لواحد شرا لآخر كالمال الذى ربما يكون خيرا لزيد وشرا لعمرو ولذلك وصفه الله تعالى بالأمرين فقال في موضع ﴿ إن ترك خيرا ﴾،(٣) وقال في موضع آخر ﴿ أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات ﴾.(٤)

وقال الرازى فيما قال من تفسير قوله تعالى ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون ﴾(٥) الابتلاء لا يتحقق إلا مع التكليف

---

(١) كتاب المفردات : ص ١٦٠ مادة خير .

(٢) لم أعثر على أصله .

(٣) سورة البقرة آية ١٨٠ .

(٤) سورة المؤمنون آية ٥٥ - ٥٦ .

(٥) سورة الأنبياء آية ٣٥ .

فالآية دالة على حصول التكليف ، وتدل على أنه سبحانه وتعالى لم يقتصر بالتكليف على ما أمر ونهى وإن كان فيه صعوبة بل ابتلاه بأمرين: أحدهما ما سماه خيرا وهو نعم الدنيا من الصحة واللذة والسرور والتمكين من المرادات . والثاني ما سماه شرا وهو المضار الدنيوية من الفقر والآلام وسائر الشدائد النازلة بالمكلفين (١) . ويقول العلامة الألوسي في نطاق تفسيره لهذه الآية الكريمة - أعني آية الأنبياء - "بالمكروه والمحبوب هل تصبرون وتشكرون أولا . وتفسير الشر والخير بما ذكر مروى عن ابن زيد (٢) وروى عن ابن عباس أنهما الشدة والرخاء . وقال الضحاك (٣) : الفقر والمرض والغنى والصحة والتعميم أولى" (٤) فمحصل جملة هذه النقول إذن ،أن الخير هو المحبوب المرغوب فيه وأن الشر هو المكروه المرغوب عنه. ثم إنهما - أعني الخير والشر كثيرا ما يطلقان بالمعنى المصدرى لا سيما عند الاقتران بأل كالذى في القول الكريم ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة ﴾ كما يطلقان اسمي تفضيل على وزن أفعل حذفت الهمزة من أول كل منهما تخفيفا كما تقول : فلان خير من هذا وشر من ذاك وكما في قوله عز من قائل ﴿ أفمن يلقى في النار خير

---

(١) مفاتيح الغيب م١١/ج٢٢/١٦٩ ، الطبعة الثانية ،طهران.

(٢) هو عبد الرحمن بن زيد بن أسلم العدوى ضعفه في التقريب توفي سنة اثنين وثمانين ومائة . التقريب ج١/ ٤٨٠ ،طبقات المفسرين للداودى ج١ / ص ٢٦٥ نشر مكتبة وهبة القاهرة .

(٣) هو ابن مزاحم الهلالي صدوق كثير الارسال مات بعد المائة . التقريب ج١/ص ٣٧٣ .

(٤) روح المعاني للالوسي م٦/ج١٧/ص ٤٧ نشر دار الفكر .

أمن يأتي آمنا يوم القيامة ﴾[1] ،وقوله تعالى ﴿ اولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل ﴾[2] وذلك ما عبر عنه الراغب في مفرداته حيث يقول : والخير والشر يقالان على وجهين : أحدهما : أن يكونا اسمين كما تقدم وهو قوله ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ﴾[3] والثاني أن يكونا وصفين ،وتقديرهما تقدير أفعل منه ، نحو هذا خير من ذاك وأفضل . وقوله تعالى ﴿ نأت بخير منها ﴾[4] إذا تمهد هذا ، فإن مما لا يخفى أن الخير والشر بالتعميم الذى وصفنا ،والذى هو محصل ما أسلفنا من الأقوال المتقدمة كما قلت هو كل ما يشمل الماديات والمعنويات جميعا ،فكل ما كان مرغوبا فيه من الأشياء المادية كالمال والبنين وما إليهما من جميع ما يدخل تحتها مما هو محسوس ومشاهد من زينة الحياة الدنيا هو من الخير ،وكل ما هو مرغوب فيه كذلك من الأمور المعنوية كالعلم والعقل والجاه والسلطان والجود والشجاعة والمروءة وحسن الخلق وما إلى ذلك من كل ما يكتمل به العاقل من القيم الرفيعة والآداب السامية فهو من الخير . ومما لا ريب فيه أن بين المادى من المال والبنين وما إليهما ،وبين المعنوى من القيم الرفيعة

---

(١) سورة فصلت آية ٤٠.

(٢) سورة المائدة آية ٦٠.

(٣) سورة آل عمران آية ١٠٤.

(٤) سورة البقرة آية ١٠٦.

والمعايير العالية من تفاوت الدرجات واختلاف المنازل بونا شاسعا حيث تجد ما هو مادى أدنى بدرجات كثيرة لا تكاد تحصى بالقياس الى ما هو معنوى كما أنه مما لا مرية فيه أن راس القيم جميعا وأعلاها قدرا وأنهضها بالعبد الى آسمى ما يليق بالحر الكريم من المنازل العالية والدرجات الراضية هو معرفة الله عز وجل والعبوديه لجنابه الأعلى اعتقادا وقولا وعملا وأنه إذا كانت الوسيلة الضرورية التي لا بد منها لتحصيل هذين المطلبين الجليلين هي التكليف الالهي لنابها ،فإن جميع هذه التكاليف الشرعية -إذن - تكون بدورها خيرا ضرورة آن الوسيلة إنما تشرف بشرف الغاية وتخس بخستها . نعم هذا كله خير ،فان حقه أن يكون مرغوبا فيه لكل عاقل . وبهذا الذى نبهنا إليه بل دللنا عليه كذاك مع كونه من البدهيات الجليات التي حقها أن لا تحتاج الى تنبيه ،فضلا عن أن تكون من الدعاوى المفتقرة الى إقامة البينات ونصب الدلائل - أعني كون التكليف من الخير لما يتوقف عليه من سنة الله وحكمته من غايتي العبودية والمعرفة له سبحانه أقول : بما نبهنا عليه بل دللنا عليه من ذلك يتبين عدم خلو عبارة الشيخ الرازى رحمه الله المتقدمة في صدر هذا البحث ،(١) في هذا المجال من الخطأ أو ايهام غير ما ينبغي من الحق الذى بينا في هذا الصدد على أقل تقدير .

----

(١) ص ٩٠ ، ٩١ .

هذا وإذا كان من المسلمات أن الاشياء تتبين أفضل تبين بأضدادها ، فانه بقدر ما يحرم المرء من صنف الخير الذى ذكرنا يكون قد ناله مما هو على المضادة لهذا الصنف أوذاك من الشر على قدر ذلك الحرمان حتى إن من حصل على الدرجة الدنيا من الخير كالمال مثلا على حساب ما هو أسمى وأرفع من درجاته كشكر نعمة المال بالعمل الصالح الذى شرعه الله فيه يكون قد نال من الشر العظيم ما لا يكاد يذكر إلى جنبه ما حصل له من الخير القليل الضئيل حتى يمكن أن يقال حينئذ إن هذا المال الذى هو خير في الأصل كان شرا ووبالا على صاحبه بحيث لو لم يحصل له هذا المال البتة لكان ذلك عين الخير له في الحقيقة .

ويؤيد هذا المعنى ما ذكره ابن كثير في تفسيره (١) حيث قال : فيغني من يستحق الغنى ويفقر من يستحق الفقر

---

(١) تفسير القرآن العظيم جـ٤/ ص ١١٥ نشر مكتبة دار التراث القاهرة .

ومن ينبغي التنبيه إليه والاعراض عن التغافل عنه أنه ليس بين الخير بالمعنى الذى قررنا وبين الأجر أو المثوبة منه تعالى ، ولا بين الشر بالمعنى الذى قررنا كذاك وبين الوزر أو العقوبة منه عز وجل تلازم ،فحرمان المال أو الجاه أو السلطان أو العلم بما لا تتوقف عليه معرفة الله وطاعته من القادر على تحصيل ذلك فضلا عن العاجز عنه - إن سلكنا على ضوء ما بينا في عداد الشر - ليس دليلا على الاثم أو العقوبة ،كما أن تحصيل المال أو الجاه أو السلطان وما الى ذلك ليس له لذاته أجر أو مكرمة ، و إنما الأجر لما يمكن بل ينبغي أن يوءدى إليه ذلك من مراض الله عز وجل . إذا علم هذا لدى القارىء الكريم فإنا نقول : ابتلاء الله تعالى عباده بالخير معناه أنه يوءتى العبد من صنوف الخير المادية أو المعنوية فضلا منه ورحمة بالعبد من جهة ما هو في الواقع و نفس الأمر ،وفتنة واختيارا له من جهة أخرى . أما الفضل والرحمة فظاهر مما يحصل من اللذات الحسية والمتعة النفسية . وأما الفتنة والاختيار فمن جهة أن من حصل له هذا الصنف أو ذاك من الخير هل استغله كما ينبغي واستثمر من معطيات الهدى والبر فيه ما جعل زرعه يخرج شطئه حتى استغلظ فاستوى على سوقه فحصل لنفسه بذلك أعظم غاية أعني رضوان الله وجزاءه الأوفى أو أنه تعس وانتكس فسلب الخير مضمونه و قلبه على نفسه وعلى غيره كذلك في بعض الأحيان شرا عظيما وبلاء مستطيرا

فغوت على نفسه بذلك من مراتب الخير العليا ما لا يقاس إليه ما حصل له من درجاته الدنيا. ومما لا ينبغي أن يغيب عن فطانة الفطن هنا أنه يستوى في الدخول تحت الابتلاء جميع صنوف الخير الدنيوى ومراتبه أعلاها وأدناها، فكما يتصور بل يقع بالفعل مثل هذا الابتلاء في أقل صنوف الخير الدنيوى شأنا كالمال مثلا، فكذلك يتصور بل يقع بالفعل في أعلى منازله قدرا كمعرفة الله والعبودية له حينما يحولهما العبد بخبثه ويجعلها وبالا على نفسه فيحرمها ما هو مقتضى هذه المعرفة، وحق تلك العبودية بالعجب بهما وهز العطف [١] غرورا وكبرياء على ما نال منهما فانه عندئذ يكون قد نسب الفضل الى نفسه فكفر بمن أنعم بذلك الفضل عليه بل يكون على التحقيق قد نازع جبار السماوات والأرض إزاره ورداءه وهي أسفل دركات الشر، فاستحق بذلك أسوأ الجزاء عليه كما قال ربنا تعالى في الحديث القدسي المشهور "الكبرياء ردائي فمن نازعني ردائي قصمته". [٢] وعلى نحو من ذلك فقل في ابتلائه تعالى عباده بالشر، فانه يحرم العبد هذا الصنف أو ذاك من صنوف الخير منزلا به ما هو على المضادة له من أشكال الشر

---

(١) هو بكسر العين وسكون الطاء، الجانب من الشيء. انظر المصباح مادة عطف جـ٢ / ص٤٩٦، نشر دار الكتب العلمية بيروت.

(٢) اخرجه الحاكم في مستدركه من حديث أبي هريرة وقال على شرط مسلم وأقره الذهبي جـ١/ ٦١ كتاب الايمان.

كأن يحرمه المال مثلا فينزله بذلك المنزلة المعروفة بين الناس بالفقر أو يحرمه الصحة منزلا إياه المنزلة المعروفة بين الناس بالمرض الى أشباه ذلك من صنوف شتى ابتلاء للعبد وفتنة أيحمد الله على كل حال فيحول ذلك الحرمان الى قيمة رفيعة ومرتبة سامية من قيم الخير ومراتبه أعني فضيلة الصبر أم يحول مثل هذا الصنف الأدنى من الشر والذى كان يمكن أن يحصل به لنفسه أعظم الخير إلى ما هو أعظم منه شرا وأشد نكرا فيشتكي ويتسخط ويحسد غيره على ما اتاه الله من النعمة التي فقدها هو ثم ما يزال به الأمر على هذا النحو حتى يجره الى التردى في دركات الشر من سافل الى أسفل الى أن ينتهي به الى الكفر والعياذ بالله ، ولله در الحافظين الجليلين المفسرين الكبيرين محمد بن جرير أبو جعفر الطبرى ، وابو الفداء اسماعيل بن كثير ، فقد أخرج الأول (١) بسنده عن ابن عباس في قوله تعالى * ونبلوكم بالشر والخير فتنة * يقول : نبتليكم بالشدة والرخاء والصحة والسقم والغنى والفقر والحلال والحرام والطاعة والمعصية والهدى والضلال .

ويقول ابن كثير بصدد تفسير الآية الكريمة : "أى نختبركم بالمصائب تارة وبالنعم تارة أخرى فننظر من يشكر ومن يكفر ومن يصبر ومن يقنط" (٢)

---

(١) جـ ١٧ / ص ١٩ الطبعة الأميرية الأولى مصر.

(٢) تفسير القرآن العظيم جـ ٣ / ص ١٧٨ دار التراث القاهرة .

هذا هو معنى وصفة ابتلاء الله عباده بالخير والشر المعنيين في القول الكريم ﴿ كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة ﴾.(١)

وأما حكمة الابتلاء بهما - بالخير والشر - فضروبها كثيرة وأنواعها متشعبة وسأتعرض - باذن الله - لبيان الحكمة فيهما عند الحديث على كل نوع منهما فيما سيأتي من دراسة. وأما هنا فيمكننا أن نجمل القول في ذلك فيما يلي :

أ - ظهور من يصبر في المحن ومن يشكر في المنح بحيث يتحمل مرارة الالام بالشرور الموقتة التي قد تعقبها لذات دائمة، وفي الجانب الاخر ظهور من يلجم شهواته التي قد تعقبها آلام دائمة اذ ابتلاء الانسان مبني على ما هو أمر ضروري فيه، وذلك أن الانسان خلق مركبا تركيبا طبيعيا للذات والالام فلا يختص بواحد منهما الا اذا خرج عن طور الاعتدال. فالانسان السوى هو الذى يشكر في السراء ويصبر في البأساء والضراء. فالابتلاء بهما لتمييز من يصبر ومن لا يصبر بأن يجزع فينقلب خاسرا وذلك حال من لم يتبع سنن الحق، ويستفيد من الهداية الالهية فقد يسيء في العمل بتعدى الحدود، وسواء في ابتلائه بالخير أو الشر، وحينئذ يشقى في الدارين كما بين سبحانه بقوله : ﴿ فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ﴾.(٢)

---

(١) سورة الأنبياء آية : ٣٥.

(٢) سورة طه آية : ١٢٤.

ب : للتذكير بالنظر في نعمة الابتلاء بالخير وذلك أن اختلاف الأحوال على الانسان بحيث يبتلى بالخير مرة ،وبالشر مرة رحمة من اللــه كي يرجع من غفل ونسي فيتوب ويسلك طريق الحق ،وكي يثبت من استقام واتبع الهدى وبالتالي يسارع في تحصيل الخير ، يبين هذا المعنى قولــه صلى الله عليه وسلم فيما أخرجه البخارى (١) من حديث عبدالله بن مسعود قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم " الجنة أقرب الى أحدكم من شراك نعله ، والنار مثل ذلك " ففي هذا النص دليل على اقتراب الخير والشر من الانسان ولذلك حثه الله على المبادرة الى الخيرات من فعل الطاعات وتــرك المحرمات ، كما أنه يجب على المرء أن لا يزهد في قليل من الخير أن يأتيه ولا في قليل من الشر أن يجتنبه بدليل أن الانسان لا يدرى الحسنــة التي يرحمه الله بها ولا السيئة التي يسخط عليه بها.

فتقلب الأحوال اذن على الانسان يجعله دائما في تفكر وتذكر وذلك يؤدى بالانسان الى اليقظة فيرجع عن غيه وطغيانه إن كانت قد زلت قدمه ،يقول عز من قائل : ﴿ وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهـــم يرجعون ﴾ (٢). يقول الشيخ الرازى (٣) عند تفسيره لهذه الآيــة :

---

(١) صحيح البخارى بشرحه فتح البارى كتاب الرقاق باب الجنة أقرب الخ جـ١١/ص٣٢١.

(٢) سورة الاعراف آية ١٦٨.

(٣) مفاتح الغيب جـ١٥/ص٣٤ط/الثانية الحلبية.

وكل واحد من الحسنات والسيئات يدعو الى الطاعة أما النعم فلأجل الترغيب وأما النقم فلأجل الترهيب .

جـ - اعتقاد الانسان أنه مبتلى بالخير والشر يجعله في حمى من الاغترار بالدنيا وزينتها بحيث لا ينخدع بلذاتها المؤقتة فيسلك طريقا وسطا بأن لا يقنط ولا ييأس عندما يبتلى بالشر ولا يبطر عندما يبتلى بالخير فيغمط الناس حقوقهم ،أما الذى تطغى به شهواته فقلما يسلم من الاخفاق في الامتحان ، فيخسر بذلك الفائدة المتوخاة من الابتلاء .

د - لتربية الانسان المبتلى واعداده كي يتحمل مسئوليته في الحياة . فمرور الانسان بالمكروهات قد يرق بسببه قلبه ويصفو ضميره ،كما أن الانعام عليه أيضا بالخيرات يجعله يقدر للمنعم إنعامه عليه معترفا بالحق لبارئه فيكون من الشاكرين ويتضح بذلك من يتحمل ويكون في مستوى التضحية من أجل الايمان فيصبر في الحالين ويتضرع بالالتجاء إلى الله وحده فيستقر على طريق الحق ،يقول عز وجل :

﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم ﴾ (١)

أى أن الله يختبر عباده المكلفين بالأوامر والنواهي ليظهر من يصبر على مشاق التكاليف . ويعمل وفق ما أمر الله به عملا فعليا يتعلق به الجزاء وذلك حتى لا يقع التباس أو خفاء بين صفوف المكلفين بأن يتميز المؤمنون بانكشاف أمر المنافقين أو الجزعين .

---

(١) سورة محمد آية ٣١ .

الفصل الثاني

الابتلاء بالتكليف

توطئـــــة :

تقدم القول عند بيان معنى القول الكريم ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة ﴾ بأن أعلى الخيرات معرفة الله وطاعته الشاملة للعبودية القلبيـــة والقالبية والوصول إلى هذه المنزلة العالية من الخيرات لا يتم إلا بوسيلـة التكليف ولذلك ميز الله الانسان بأن كلفه بما كلفه به من أوامر ونـــواه فمنّ عليه بالفكرة العقلية التى تهديه الى معرفة الحق لذاته ،ومعرفة الخير للعمل به بحيث أعطي القدرة على تحصيل الفضيلة واجتناب الرذيلة ، ولما كان الانسان كذلك كان موءهلا لأن يبتلى بالتكليف ،والبحث فـــي هذه القضية يتطلب معرفة معنى التكليف لغة وشرعا .

فأقول : التكليف مأخوذ من تكلف الأمر تجشمه ،وتكلف الشيء فعله بجهد تصله منه مشقة معتادة وذلك ما أفاده صاحب القاموس بشرح الزبيدى (١) إذ يقول : والتكليف الامر بما يشق عليك ،وقد كلفه تكليفا . قال الله تعالى ﴿ لا يكلف الله نفسا الا وسعها ﴾ (٢) وتكلفه تكلفا إذا تجشمه ، نقله الجوهرى ،زاد غيره على مشقة وعلى خلاف عادة . وفـــي الحديث " أنا وأمتي برآء من التكليف " (٣) ومن هذا المعنى أيضا انطلق المفهوم الشرعي ،يتضح ذلك فيما أفاده امام الحرمين (٤) حيث قـــال :

---

(١) باب الفاء فصل الكاف مادة كلف جـ ٦/ ٢٣٨ .

(٢) سورة البقرة آية ٢٨٦ .

(٣) لم أعثر على من ذكره مسندا وورد في هذا المعنى ما هو في حكم المرفوع من قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه " نهينا عـــن التكليف " أخرجه البخارى من حديث أنس . كتاب الاعتصام . باب ما يكره من كثرة السوءال . فتح البارى جـ١٣/ ٢٦٤ .

(٤) البرهان جـ١/ ١٠١ ط/ الثانية . دار الاعتصام القاهرة .

"هو إلزام ما فيه كلفة ،ونقل عن غيره طلب ما فيه كلفة وهو أولى لشموله".

وفيما أفاده صاحب[١] المفردات من قوله : والتكليف إسم لما يفعل بمشقة أو تصنع أو تشبع ولذلك صار التكليف على ضربين محمود ،وهو ما يتحراه الانسان ليتوصل به إلى أن يصير الفعل الذى يتعاطاه سهلا عليه و يصير كلفا ومحبا له. وبهذا النظر يستعمل التكليف في العبادات . والثاني مذموم وهو ما يتحراه الانسان مراءاة وإياه عني بقوله تعالى ﴿ قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين ﴾.[٢] وقول النبي صلى الله عليه وسلم : " أنا وأتقياء أمتي برآء من التكليف "[٣] . وقوله تعالى ﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ﴾ أى ما يعدونه مشقة فهو سعة في المآل نحو قوله ﴿ وما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾.[٤] وما قرره الفيروزابادى وشارحه ،والاصفهاني في مفرداته ،ندرك التطابق الذى بين المعنى اللغوى والمعنى الشرعي حيث إن كلا منهما يدل على أمر فيه كلفة ، وقد يمتاز المعنى الشرعي عن اللغوى نظرا ،لأن المشقة في الشرعي مقيدة بحيث لا يتجاوزبها أن تكون غير معتادة وذلك ما عناه صاحب المفردات بقوله السابق في النوع المحمود . والذى معناه أن الانسان حينما يعتاده

---

(١) كتاب المفردات في غريب القرآن مادة كلف ص ٤٣٩.

(٢) سورة الزمر آية ٨٦.

(٣) انظر ص ١٠٢ هامش (٣).

(٤) سورة الحج آية ٧٨.

ويمارس فعله يكلف[١] به حتى يصبح محبا له. وهو المعنى بالعبودية التي من أجلها كلف الانسان ،كما أنه يدرك من خلال تعريف الأصفهاني مفهوم يعطينا أن الانسان في تحركه بين الاعمال التكليفية والتصرفات الشرعية هو مرهون من حيث الأجر أو عدمه بالنية ،وذلك أنه ما كان منه بإخلاص وموافقا لقواعد التكليف كانت لصاحبه المثوبة. وما كان تصنعا أو تشبعا كان مذموما. وبالتالي يرد على صاحبه[٢] . فالمذموم إذن لم يدخل في الحكم التكليفي حقيقة وإنما دخل صورة . يؤيد هذا المعنى قوله عز من قائل ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ﴾[٣] وقوله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن الله عز وجل ،قال الله : "أنا أغنى الشركاء عن الشرك ،من عمل عملا أشرك فيه معي غيرى تركته وشركه".[٤]

فالحكم التكليفي مبني إذن على موافقة القواعد التي أمر الله بها . هذا أولا ،وثانيا : مبني على الاخلاص لرب العباد فلا يقبل الله أى عبادة دخلها الشرك ومنه الرياء ،وهو الشرك الأصغر كما سماه صلى الله عليه وسلم . كما أن تقييد المشقة بالمعتادة يعطينا أنها ليست

---

(١) أى يولع به ويعتاده . المصباح مادة كلف جـ٢/ ٦٥١ نشر دار الكتب العلمية بيروت.

(٢) بمعنى أن المأمورات أو المنهيات إذا لم تكن موافقة لقواعد الشرع أو تكون مشوبة بالرياء والسمعة عند الأداء لا تقبل . ومن هنا كانت صورته الظاهرة عبادة ولكن بحكم أنها مردودة ليست داخلة في الحكم التكليفي حقيقة.

(٣) سورة البينة آية ٥.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة جـ١٨/ص ١١٥ باب فضل الانفاق على المساكين انظر صحيح مسلم بشرحه النووى ط/ ٣.

مطلقة وذلك يدفع ما قد يوهم أن الله ابتلى عباده بما يشق عليهم وهو الكريم الرحيم ، بل مشقة مبنية على قدرة الانسان المستطاعة بدليل ما شرع الله من رخص كالفطر في رمضان للمريض والمسافر وغيرهما ، وكأكل المحرمات في حال الاضطرار وغير ذلك مما يدل على رفع الحرج في تكليف الانسان . ومن هنا نرى عدم جدوى الحديث في قضية التكليف بما لا يطاق وذلك في نظرى أن هذه القضية لا فائدة من البحث فيها وإيثارها بالنظر في وقوعها أو عدمه حيث إن المقصود من التكليف بعيد عن ذلك المعنى إذ هو مبني على الاستطاعة بحيث لا تكليف الا مع القدرة . فما الفائدة إذن من الجدال حول قضية لم تقع ولن تقع . فنسبة المشقة في المأمورات والمنهيات هي بمثابة نسبة ما يلقاه الصانع مثلا من مشقة في انتاجه الصناعي أو أى عمل دنيوى . فطبعي أن تكون المشقة في انجازه والنفوس تعتاده وبالتالي فكل عاقل لا ينازع في أن تقلب الانسان في هذه الحياة مبني على الكلفة والمتاعب فلا يسلم أحد منها ، بل الحياة في دار الابتلاء مطبوعة بالتعب والنصب ، بدليل ما جاء في قوله عز وجل محذرا آدم من مخالفة الأمر الالهي الكريم بعدم الأكل من الشجرة المترتب عليه الخروج من الجنة الذى يؤدى الى النزول في دار الشقاء ﴿ وقلنا يآدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ﴾.(١)

---

(١) سورة طه آية : ١١٧.

وانطلاقا من هذا المعنى ندرك أن المشقة التي في التكليف الشرعي مشقة معتادة وهي طبعية في أى تحرك في هذه الحياة الدنيا . ويجمل بعد هذا أن أقول في خلاصة معنى التكليف المصاحب للمشقة إنه حبس النفس عن الميل الى ما يضرها ،وهو المعنى بما حرم الله عليها أو كره لها تعاطيه . أو إباحة ما فيه نفعها بقدر الاعتدال ،وهو المعنى بما أحل الله لها أو رغب فيه لها ،وهذا المعنى يعطينا أن التكليف منظم للأوصاف التي طبع عليها الانسان من شهوات وغرائز وذلك حتى لا يميل بها عن الحد المرسوم لها الذى إذا خرجت عن الأفعال المكتسبة المطلوبة أو المنهى عنها أصيبت حياته بخلل وضياع في مسيرة الحياة الدنيا ينتج عنها خسران في الدار الآخرة . يؤيد ذلك القرآن الكريم في القول الصريح ،حيث يقول سبحانه * لا يكلف الله نفسا الا وسعها *[1] ويقول: * يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر *[2] ،ويقول : * وماجعل عليكم في الدين من حرج *[3] ، فالتكاليف مبنية على الوسع والاستطاعة وعدم التشديد في القيام بها كما يلاحظ ذلك جليا في الحديث الوارد عن المصطفى صلى الله عليه وسلم : "فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم"[4]

---

(١) سورة البقرة آية ٢٨٦.

(٢) سورة البقرة آية ١٨٥.

(٣) سورة الحج آية ٧٨.

(٤) أخرجه البخارى من حديث أبي هريرة رضي الله عنه . [illegible] فتح البارى كتاب الاعتصام باب الاقتداء بسنن رسول الله ج١٧/ ٢١ ط/ الحلبية .

وبناء على ذلك لم تقع المشقة في التكاليف إلا بقدر الشيء المعتاد الذى لا تنفك عنه حركة الانسان في حياته. وبعد تصور مفهوم التكليف لغة وشرعا يلزمنا بيان مفهوم التكليف عمليا فنقول :

إن الله عز وجل هو الخالق وهو المالك لكل شيء والمتصرف في جميع الأكوان والعوالم وهو الفعال لما يريد في خلقه. وقد فضل بعض خلقه على بعض وهو الذى خلق الانسان وفضله وكرمه وجعله خليفة في الأرض ،وكلفه بما أوحى إليه من الالزامات الشرعية ﴿ لا يسأل عما يفعل ﴾[١] ، والانسان أمام ما هو مسئول عنه و مكلف به لا يمكن أن يتحرك فيه أو يؤديه حسب عقله الذى هو في حاجة الى ما يكتمل به. بل لا بد من تنظيم المسارات التي ينبغي أن تنطلق منها تلك المسئولية . أعني المجالات التي يدور عليها التكليف من حيث أنواعها . وبيان ذلك أن الانسان مكلف ومسئول بمقتضى أوامر ونواه من خلالها يستطيع تجنب ما قد يخل أو يؤدى بسيره في الحياة إلى فساد إذا هو لم يتحرك وفق تلك الأوامر وتلك النواهي المنظمة لسلوكه والتي تكسبه الفضيلة وتجنبه الرذيلة . ومجريات تعلقات التكليف بفعل الانسان لا تخرج عن الاقتضاء[٢] أو التخيير بمعنى طلب الفعل طلبا جازما أو غير جازم

---

(١) سورة الأنبياء آية : ٢٣.

(٢) انظر المستصفى للغزالي جـ /٦٥ ط/ الأولى بالأميرية ١٣٢٢هـ. وانظر روضة الناظر ونخبة المناظر بشرح عبد القادر الدمشقي جـ١/ ٩٠ ط / السلفية مصر.

أوطلب الكف عن الفعل طلبا جازما أو غير جازم أو ما كان الانسان مخيرا فيه بين الفعل أو الترك وهذا ما قرره صاحب مراقي السعود بقوله: (١)

ثم الخطاب المقتضى للفعل جزما فإيجاب لدى ذى النقل

وغيره الندب وما الترك طلب جزما فتحريم له الاثم انتسب

أولا مع الخصوص أولا مع ذا خلاف الاولى وكراهة خذا

لذاك والاباحة الخطاب فيه استوى الفعل والاجتناب

فلم تخرج دائرة التكليف عن هذه الأربع أعنى قسمي الطلب أو الكف ،أما ما كان الانسان مخيرا فيه فليس هو مما ابتلى به الانسان اذ الكلفة فيه غير ظاهرة . وهو المباح كالتخيير في خصال الكفارة أيها فعل المكلف أجزأه . وإن كان الوجوب في مجموعها ،فتلك مدارات التكليف التي توصل إليها علماء الاسلام فقعدوها بعد سبرهم لجميع مقاصد الشريعة الخاتمة لما قبلها سواء كانت كلية أو جزئية ، فما كان الخطاب في العمل به جازما بحيث يتحتم العمل به من جهة فعله وعدم تركه فهو واجب فلا يجوز مخالفة الأمر فيه والا استحق صاحبه الذم والملامة من الآمر المشرع وذلك كقوله تعالى ﴿ يأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ (٢) وكقوله : ﴿ وأقيموا الصلاة

---

(١) مراقي السعود بشرحه نشر البنود جـ١/ ٢٨ .

(٢) سورة البقرة آية ٢١ .

وآتوا الزكاة * (١) وكقوله : * يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون أياما معدودات * (٢) وكقوله * ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا *. (٣)

٢ - وما كان الخطاب فيه طلبا للترك بمعنى النهي عن فعل ذلك الشيء نهيا قاطعا فهو الحرام وهو الذى يذم فاعله ويؤاخذ على ارتكابه وذلك مثل النهي الوارد في الآية الكريمة * واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا * (٤) والقول الكريم * ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا * (٥) وقوله عز قائلا * ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق *. (٦)

٣ - وما كان الخطاب فيه من حيث طلب فعله لكنه طلبا لم يصل إلى درجة التحتم والايجاب فهو المندوب أو المستحب ، وهو الذى لا تلحق من لم يفعله مذمة أو ملامة وإنما فعله خير من تركه وذلك كسائر النوافل مثل صلاة الضحى أو كتابة الدين الوارد في قوله تعالى * يأيها الذين ءامنوا إذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه * (٧)

---

(١) سورة البقرة آية ٤٣ .

(٢) سورة البقرة آية ١٨٣ .

(٣) سورة آل عمران آية ٩٧ .

(٤) سورة النساء آية ٣٦ .

(٥) سورة الاسراء آية ٣٢ .

(٦) سورة الاسراء آية ٣٣ والانعام آية ١٥١ .

(٧) سورة البقرة آية ٢٨٢ .

وكالنكاح لمن لا يخاف على نفسه العنت وما أشبه ذلك مما هو مذكور في محاله .

٤ - وما كان الخطاب فيه واردا مورد النهي غير أنه لم ينه عن فعل ذلك الشيء نهيا قاطعا يستحق مرتكبه الذم والعقوبة على فعله بل تركه خير من فعله وذلك كاللعب الذى يقدح في المروءة أو الحلول في مواطن التهم وما أشبه ذلك.

هذه المواطن الأربعة هي التي يتحرك الانسان المكلف بمقتضاها بناء على مراعاة مصلحة الانسان وحظه في التحرك على ضوئها وأى خروج في سلوك الانسان عنها يوءدى الى ضياع موضوع التكليف وبالتالي سيخسر الانسان بإعراضه عن حدود التكليف ،وبذلك يفتح بابا ويعطي لجاما للشيطان فيقوده إلى دار البوار.بقول عز وجل ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون ﴾.(١)

وتلكم المعاني تنقلنا حتما إلى اعتقاد أن التكليف ضرورة لسلامة حياة الانسان في قيامه بالخلافة الأرضية في دار الفناء كما هو ضرورة أيضا لفوزه وفلاحه في دار الخلود والبقاء .

---

(١) سورة الزخرف آية ٣٦ .

التكليف ضرورة لسلامة العالم من الفساد :

الناس مختلفون في التفكير والنظر في الأشياء فما يراه هذا حسنا قد قد يراه الاخر قبيحا وبالعكس وإن كان الناس عموما متفقين على أن : الأفعال منها النافع ومنها الضار ،وطبعا يرون أن النافع حسن والضار قبيح إلا أنهم اختلفوا في تحديد ذلك بناء على اختلافهم في التفكير المنبثق من أن إدراك الانسان أو علمه بالأشياء وعواقبها محدودان ، يضاف لذلك ما يحيط به من دوافع تختلف من شخص لآخر ،اذ المشاهد والمحصل من التجربة تفاوت الناس في الذكاء والغباء ومعرفة السديد من الآراء وحدس عواقب الأمور ،فالعقول إذن ليست متساوية في إدراك الأشياء ومعرفة عواقبها ،فظاهرة الاختلاف بين الناس في ذلك سنة جارية ، وفطرة طبع عليها الانسان منذ خلقه الله ،هذا أولا ، وثانيا : المكلف يسعى طالبا حظه مما جبل عليه من تعاطي الشهوات ونيل الملذات ،وسد الحاجات لأنه خلق وله شهوة الطعام والشراب ،فإذا مسه الجوع والعطش تحرك لتلبية حاجاته ،من ذلك ما أمكنه وله شهوة النكاح ،فإذا فارت غريزته بحث عن الأسباب التي توصله الى إشباعها ، ومثل ذلك من ضرورة الانسان التي تدعوه الى تحصيل المسكن والملبس وجميع وسائل الاستقرار التي نتج بسببها صراع في هذه الحياة ، فإذا لم ينظم سلوك الناس في حياتهم الاجتماعية أصيبت حياة الانسان بالدمار والفناء .

ثالثا : الانسان المؤمن يتطلع إلى حياة آخرى وإلى دار آخرى يتاح فيها العدل ويحصل فيها عوض ما قد ضاع لأصحابه في الدنيا ، من نقص في الحقوق وتشويه للمنازل وذلك أن الانسان يرى كثيرا ما تهضم حقوق العباد وكثيرا ما يتعالى القوى على الضعيف فيغصبه حقه وبالتالي يرى العاقل أن ظاهرة اختلال الموازين في معاملة الناس بعضهم لبعض مستمرة دون أن يأخذ الضعيف حقه ، ودون أن يضرب على يد الظالم حتى يقتص منه ويؤخذ منه الحق لصاحبه مما يدل على أن هناك دارا تقام فيها الموازين القسط ويجازى فيها الانسان على عمله الذى أسلف في هذه الدنيا والتكليف بالايمان بهذه الدار دافع قوى وحاجز للانسان من الوقوع فيما يترتب عليه فساد أو خلل في الحياة ، فلو ترك الانسان -والحالة هذه بحيث لا يستطيع العقل منفردا إدراك الصواب مما اختلفت فيه العقول - لما أمكن تنظيم مسالكه المادية والروحية ، وبالتالي لا يستطيع العقل إدراك الايمان بوجود دار الجزاء . والايمان عامل من العوامل التي تجعل الانسان يحسب لتحركاته في الحياة حسابا دقيقا يمنعه من الجور والطغيان ، كل ذلك لم يحصل لولا نعمة التكليف ، والا لاختلت الموازين وأشرفت الحياة على النهاية ، فالتكليف من لدن الله العليم الخبير ضرورة لسلامة الحياة من الفساد . وعلى مر أزمان وجود البشرية في هذه الأرض لم ينقطع التكليف ، وحينما تصل البشرية الى درجة خلو مجتمعاتهم من امتثال الأوامر الالهية بحيث لا يبقى من يقول لا اله الا الله ،

الكلمة التي بنيت عليها جميع التكاليف لحقت كلمة الله فيأمر بفناء العالم ومن هنا فأى عمل يقوم به الانسان يجب أن يتصوره على النحو الذى وضعه الشارع من تحريم أو تحليل ، لأن أى مخالفة أو إعراض عما وضعه الشارع أو أى انحراف في القصد يخرج تحرك الانسان من دائرة العمل التكليفي يؤدى ذلك الى الدمار والضياع بانحطاط الانسان الى دركة الحيوانية الصرفة التي لا عقل لها ولا تفكير ولا تدبير فيصبح أخس من العجماوات الضالة بل يكون أضل منها ، فمثلا لو لم يكن التكليف من الخالق القدير زاجرا عن القتل لأدى ذلك الى الفناء . وعن الزنا لأدى ذلك الى اختلاط الأنساب وفساد النسل وضياع المواريث ، وعن الظلم لأدى ذلك الى الضرر في النفوس والأموال ، وعن كل ما هو رذيلة كالبغي والحسد والكذب والبخل والنميمة والغش والخيانة . لو لم يكن التكليف بخصوص ذلك للزم الاهمال ، ولفسد العالم كله ولتغيرت أوصاف التكريم في الانسان كفضيلة الفهم بالعقل وغيرها من الفضائل التي خص الله بها الانسان دون سائر الحيوانات وبذلك ينزل الى البهيمية كما هو مشاهد وواقع في المجتمعات التي أضربت صفحا عن معالم التشريع الالهي ، وهذا يعطينا أن التكليف ضرورة لبقاء الانسان في منزلته التي خلق عليها كما أنه يعطينا أن التشريع لا يصلح إلا من لدن العليم الحكيم الذى خلق الانسان ويعلم ما يصلح له ويصلحه والذى تفرد بالألوهية والربوبية ، كما أنه يعطينا أيضا أن الله يبتلي عباده من

خلال ما هو مصلحة لهم كما تبين لنا قبل قليل من أن التكليف مبني على أساس مصلحة الانسان بحيث ما كان منهيا عنه ثبت ضرره على مرتكبه وما كان واجبا ثبتت ضرورة نفعه للانسان هذا . ولما كان التكليف ضرورة لقيام حياة الانسان التي هي في الحقيقة وواقع الأمر سلسلة من حلقات الابتلاء اقتضى البحث معرفة صفة الابتلاء به.

وذلك أن الانسان كانت خلقته مشتملة على جانبين : أحدهما شهواني أرضي ،والآخر روحاني متعلق بالملأ الأعلى ،وعن طريقه يصل الانسان إلى كماله. فبالشهواني يستطيع الانسان المحافظة على ماديته المتعلقة ببدنه بواسطة المأكل والمشرب وما يتبع ذلك من وسائل البقاء والاستمرار للنوع البشرى . وبالجانب الروحي يستطيع المحافظة على الأخلاق النافعة والموافقة لتكريم الانسان وهذا ما خلق الانسان له. وذلك من حيث طهارة النفس وتزكيتها ،والانسان بهذا المعنى صار واسطة بين كفتين . فرجحان إحداهما على الأخرى يلحق بالانسان الضرر، ثم الانسان بخلقته تلك يصير بين الحكمة والعدل والسفه والجور وبين الهدى والضلال أو الايمان والكفر ،وبمعنى أعم ،بين موالاة الله وموالاة الشيطان ،فمن راعى تلك الازدواجية من حيث الاستعداد لسلوك طريق الخير أو سلوك طريق الشر فميز بينهما وهو قادر على ذلك بما وهبه الله من وسائل يميز بها بين الخير والشر ، بأن توجهت نفسه الى الخير. وتجنبت الوقوع في الشر فسيكون من الشاكرين الناجين وإن لم يراع

تلك الازدواجية وغلب جانب الشر على جانب الخير فسيسقط في طريق الضلال وبذلك يكون كافرا بنعمة الخالق حيث أعرض عما كلفه الله بـه ولم يجاهد نفسه في الفعل والترك انطلاقا من الايمان وما يتبعه من قيام بالعبادات ابتداء.أوعدم الاتيان بها على وجهها والمحافظة عليها أو من جهات اجتناب المنهيات الفعلية والقولية بل انجر وراء الشهوات المستلذة مما منع الشارع من تعاطيه كلية كالخمر أو لكون تعاطيه يوءدى الى مخالفة أمر أو نهي كاختلاط النساء بالرجال الأجانب عنهن .ذلكم التصور نجده في كتاب الله العزيز حيث يقول عز من قائل * إنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا *(١) ويقول عز من قائل * ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها *(٢) فمن نشأة الانسان تلك ،أى كونه مزدوج النزعة ابتلى بالتشريع أوإن شئت فقل : ابتلى بتنظيم ازدواجيته تلك عن طريق ما يمنعه من شيء أو ايجاب شيء عليه فسواء كان ذلك الايجاب أو المنع الزاما متحتما أم لا وذلك بقدر ما فيهما من نفع للانسان أوضرر . ثم إنه من الواجب معرفته أن الانسان بين ذلك المنع أو الايجاب يتحرك حسب اختياره فلم يجبر على

---

(١) سورة الانسان آية ٢ ،٣ .

(٢) سورة الشمس آية ٧ ،٨ ،٩ ،١٠ .

أبي منهما بل أعطاه الله القدرة على التفكير والاختيار و تفضل عليه بالتوجيه الذى عن طريقه يستطيع تنمية فطرته فيماجبلت عليه من خير فلم يتركه الله لفطرته وعقله بل إضافة الى العقل والحواس والقيم المنبثقة عن الضمائر منّ عليه بما يصل به إلى الكمال الانساني من رسل مبينين دلائل الايمان المحدد للموازين التي ينبغي للانسان أن يسير وفقها وأن لا يتخطاها الى غيرها - أعني قواعد التكليف - ،وهذا يعطينا أن كل ما هو واجب لاصدار الحكم الصحيح أواتخاذ الطريق المتجه الى الحق والصواب هو في وسع كل فرد فيجب على كل إنسان مكلف أن يختار الأرض المفيدة ليستغلها ما استطاع الى ذلك سبيلا ،انطلاقا من مسئوليته عن كل ما ابتلي به من خير أوشر أوأمر أو نهي والناس في ذلك فريقان :

أ - فريق أدركوا الحقائق ببصرهم و بصيرتهم فلا تصدر منهم الا أفعال محمودة بالنظر لما كلفوا به من أمر أو نهي فكان تحركهم على منهج التكليف منبتا العشب والكلأ منتجا بأفعالهم ثمرات تعود عليهم بالنجاح والسعادة في الدارين ،لأنهم أدركوا الحق باختيارهم فقاوموا ما يعترضهم من انحراف بمجاهدة الرغبات الشهوانية فاختاروا طريق النجاة فيما ابتلوا به من أوامر و نواه كانت لهم العاقبة الحسنى بما وفوا به من تحمل الأمانة في التكليف و بالتالي حافظوا على ما تفضل الله به عليهم من تكريم في العالمين.

ب - فريق وقفوا عند حجب الشهوات فلم ينظروا أو يتحركوا في ميزان التكليف ببصيرتهم [١] فكان تحركهم على أرض صلداء [٢] فلم تنبت شيئا وكانت ثمرات أفعالهم مذمومة عائدة عليهم بالوبال والخسران حيث عرضوا أفعالهم للخطايا والمعاصي بمخالفة ما كلفوا به من أوامر ونواه وظلموا أنفسهم بجهلهم طريق الحق الذى تحملوه فلم يهتدوا الى الصواب فيما ابتلوا به من حمل الأمانة التي جعلها الله ضابط التكريم للانسان حينما يوفى بما عاهد عليه الله وبما أخذ عليه من ميثاق . وبالجملة لم يتحفظوا بضمائرهم من الزيغ عن الهدى الذى قدم إليهم ،يقول عزقائلا * ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما ،إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان إنه كان ظلوما جهولا * [٣] ويقول سبحانه * ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون * [٤]، وقوله عز وجل * ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون انهم لن يغنوا عنك من الله شيئا وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولي المتقين هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يقنون * [٥] فاتباع الهوى إذن بترك ما أمر الله به أو ارتكاب ما نهى

---

(١) وان كانوا يبصرون بأعينهم كما قال عز وجل * لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها *

(٢) أى صلبة ملساء ،القاموس باب الدال فصل الصاد مادة صلد ج٢/ ٣٠٠ .

(٣) سورة الأحزاب آية ٧١ ، ٧٢ .

(٤) سورة المؤمنون آية ٧١ .

(٥) سورة الجاثية آية ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ .

عنه هو تخل عما التزم به الانسان وتعهد القيام به في عالم الذر كما أخبر سبحانه في قوله ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيمة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون ﴾.(١)

والانسان بما قد تحمله من تكاليف تتفاوت مسئوليته تجاه تلك التكاليف بحيث تصغر مرة وتعظم أخرى وذلك بقدر ما في الأمر من صلاح وما في النهي من فساد لحياة الانسان عموما ، فمدار الأوامر على مصالح المكلفين وأساسها الايمان بالله الخالق ومدار المنهيات على ما يفسد مقومات حياته أيضا وأخسها الكفر بالمنعم فالمخالفة إذن تكبر أو تصغر بناء على المصلحة أو المفسدة التي تعود منها ومن هنا لا نستطيع أن نجعل حدا للكبيرة من المخالفات إذ الاصرار على الصغائر يجعلها كبائر بل نفس الكبائر تتفاوت على قدر ما فيها من فظاعة المفسدة فكل مخالفة تصل مفسدتها إلى درجة لحوق الدمار بالانسان من حيث الاعتقاد في القلب والعمل بالجوارح هي في درجة العظم والفحش الذى يجعل الجزاء كبيرا .مثلا مخالفة الأمر باقامة الصلاة ليست كمخالفة الأمر برد

---

(١) سورة الأعراف آية ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ .

السلام أو الأمر بإنقاذ الهالك المتعين كالمخالفة بإزالة الأذى من الطريق وفي النهي ارتكاب ذنب النظر الى الأجنبية ليس كارتكاب الزنا وارتكاب جريمة القمار ليس كارتكاب جريمة السرقة وهكذا. فالمخالفة توصف بالكبر والفحش بناء على المفاسد المترتبة عليها . يقول الله عز وجل :

﴿ الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش إلا اللمم ﴾.(١)

قال العلامة الألوسي "وكبائره ما يكبر عقابه " والفواحش ما عظم قبحه من الكبائر فعطفه على ما تقدم من عطف الخاص على العام ،واللمم ما صغر من الذنوب وأصله ما قل قدره .(٢)

والانسان في تحركه ذلك من حيث الامتثال أو المخالفة مختار في إرادته الخير منها أو ما هو شر منها متسبب في الناتج عنها ،ومذمته متعلقة بكسبه . صحيح أنه لا يمكن نكران الارادة الكونية وهي إرادة عامة قدرية متعلقة بكل الكائنات كما قال عز وجل ﴿ إن ربك فعال لما يريد ﴾(٣) ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون ﴾(٤) فما يريده الله كائن لا محالة وما لم يرده

---

(١) سورة النجم آية ٣٢.
(٢) روح المعاني م٩/ج٢٧/٦١ نشر دار الفكر .
(٣) سورة هود آية ١٠٧.
(٤) سورة الأنعام آية ١٢٥.

فلا سبيل إلى إيجاده . هذه الارادة بالنسبة للأمر أو النهي لا ترفع مسئولية الابتلاء بالتكليف عن الانسان ،بمعنى أن الانسان المكلف مجبور على هذا الفعل أو على هذا الترك وانما القضية في هذه الارادة أن الله المريد علم في سابق علمه أن هذا المكلف أو ذاك سيسلك الخير بامتثاله الأوامر واجتنابه النواهي أو طريق الشر بعكس ذلك وهو مختار في كل سلوكه بمشيئة الله فلا يكون من ذلك إلا ما أراده الله بناء على سابق علمه ،فامتثال الانسان أو عدمه هو بالنسبة لهذه الارادة العامة بمثابة كشف - ولله المثل الأعلى - لما سيفعله الانسان حرا مختارا حينما يأتيه الأمر الشرعي وهو ما نسميه الارادة الشرعية التي يجب على المكلف التحرك ضمن تعاليمها وهي المعنية في القول الكريم ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾(١) فالارادة في الآية الكريمة المأمور به فيها مطلوب امتثاله والله راض عن فاعله ،والمنهي عنه مطلوب اجتنابه فيجب تركه. وهذا المعنى هو الذى يقتضيه القول في تعريف التكليف (وهو الزام ما فيه كلفة) ،لأن الله أمر العباد أن يفعلوا أو أن يتركوا وذلك يستلزم وجوب إيقاع المأمور وعدم ايقاع المنهي عنه ،وهذا يعطينا أن الارادة الكونية لها خاصية العموم المطلق بأن تشمل الارادة الشرعية وتنفرد عنها بمعنى أن كل ارادة شرعية هي إرادة كونية وليس العكس

---

(١) سورة البقرة آية ١٨٥ .

فقد يأمر الله بما قد لا يقع كونا مثل عدم إيمان أبي لهب ،فعدم إيمانه كشف عنه القدر وهو مختار في ذلك فلم يمنع من الايمان بفعل فاعل بل هيئت له أسباب الايمان ودواعيه من دلائل واضحة آمن على ضوئها كثير من قومه الذين يعيشون في بيئته .

الخلاصة هي أننا نريد القول بأن الانسان فيما هو مبتلى به من تكليف مسئول عن اخفاقه أو نجاته. فمن أخفق فهو المتسبب في ذلك إذ له ميزة الحرية في الاختيار . يقول الله عز وجل ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم ﴾.(١) يقول صاحب الظلال بصدد حديثه عن الآية الكريمة " وفي هذا المبدأ يتجلى تكريم الله للانسان واحترام إرادته وفكره ومشاعره وترك أمره لنفسه فيما يختص بالهدى والضلال في الاعتقاد وتحميله تبعة عمله وحساب نفسه"(٢)، ويقول العلامة الألوسي عند تفسيره لقوله تعالى ﴿ بل الانسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره ﴾(٣) "أي حجة بينة واضحة على نفسه شاهدة بما صدر عنه من الأعمال السيئة ".(٤)

---

(١) سورة البقرة آية ٢٥٦.

(٢) جـ١/ ٢٨٥ نشر دار العلم للطباعة جدة .

(٣) سورة القيامة آية ١٤.

(٤) روح المعاني م١٠/ جـ٢٩/ص ١٧٧ نشر دار الفكر.

إذن فالذى يجب على المكلف النظر فيه والاهتمام به من حيث التفكير والعمل هو ما يأتيه من تعاليم تكليفية من أمر و نهي معتمدا على الدلائل الموصلة للحق ولا ينفعه التعليل في إخفاقه بالحقيقة الكونية ، ومن كان كذلك فقد سلك سبيل الشيطان حيث إنه احتج على عصيانه الأمر بالسجود لآدم عليه السلام بالقدر فأخطأ الطريق المنجي ، ومثله من سلك سبيله في ذلك والحجة قائمة على من حاول التنصل من تبعات ما تسبب في نتيجته ، أو التنكر لأفعاله وذلكم ما جاء في القول الكريم ﴿ سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون الا الظن وإن أنتم الا تخرصون ، قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهديكم أجمعين ﴾(١) فالآية الكريمة تبين أن الله تبارك وتعالى أقام الحجة على الانسان حينما من على المكلفين بالعقول التي يفهمون بها ما يعرض عليهم ويدعون إليه وهم بذلك لديهم وسائل القدرة على اكتساب الخير أو ارتكاب الشر فقطعت عليهم جميع طرق الأعذار عما يقترفونه من مخالفات إذ ما من شيء يصدر من المكلف امتثالا أو مخالفة إنما هو باختياره ولم يكن مضطرا أبدا والا لو كان هناك اضطرار لكان من الحكمة والعدل أن يضطر جميع المدعوين للهداية ولكن شاء الله أن يوفق للهداية الذين اختاروا سلوك طريق الحق وانتفعوا بالدليل ، كما شاء سبحانه خذلان الذين صموا آذانهم وأبصارهم عن الحق وانصرفوا الى

---

(١) سورة الأنعام آية ١٤٨ ، ١٤٩ .

طريق الضلال بمحض اختيارهم وارادتهم . وهذا مشاهد ومحسوس فيما نراه جاريا في ساحة الايمان أو دائرة الدعوة . وذلك يوضح لنا أن هنـاك ربطا بين الفضيلة والمثوبة ، وبين الرذيلة والعقوبة ،وهناك أبرار وهناك أشرار . وهناك مؤمن أو كافر كل حسب اختياره . يؤيد ما قلته القول الكريم الذى يحذر الانسان من الوقوع في فتنة ابليس الذى من أطاعـه حقت عليه الضلالة ﴿ يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكـم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما إنه يريكم هو وقبيلـه من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تعودون فريقا هـدى وفريقا حق عليهم الضلالة إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون اللـه ويحسبون أنهم مهتدون ﴾ (١) وقوله تعالى ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون ﴾ (٢) وقولـه تعالى ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم ﴾ (٣) وقوله عز وجل ﴿ يأيها الذين آمنوا إن تتقـوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سيآتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم ﴾ (٤)

---

(١) سورة الأعراف آية ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ .

(٢) سورة النحل آية ٨٨ .

(٣) سورة المائدة آية ٣٨ .

(٤) سورة الأنفال آية ٢٩ .

وغير ذلك من الآيات العظيمة التي تجعل الانسان أمام واقعه في تبعات ما يكسبه من أفعال مختارا في اقترافها اذ وقوع الانسان في المعصية بتوليه الشيطان يجعل المسئولية عليه كاملة . وكون الله يعلم ذلك في سابق القدر لا يؤثر في المعلوم وما دام الانسان هو الذى اختار تولية الشيطان ولم يفكر في تمييز الحق من الباطل فهو المسئول عن وقوعه في الخسران ثم بعد هذا لا يمكن التسوية بين أمرين متباينين ومتضادين : الحق والباطل . يقول عز وجل * أم حسب الذين اجترحوا السيآت أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون *(١) وقوله تعالى * الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون *(٢) إذن حجة الله قائمة على المخالفين الذين خسروا فلم يشكروا بالمحافظة على ما كلفوا به من أمانة الطاعة والانقياد وبالتالي لم يحافظوا على نقاء فطرتهم التي فطروا عليها ،يقول أبو سعيد عبدالله البيضاوى في تفسيره للآية الكريمة * يخرجونهم من النور الى الظلمات * من النور الذى منحوه بالفطرة الى الكفر وفساد الاستعداد والانهماك في الشهوات ".(٣)

---

(١) سورة الجاثية آية ٢١.

(٢) سورة البقرة آية ٢٥٧.

(٣) أنوار التنزيل بحاشية الشهاب جـ٢/ ٣٣٦ ،نشر دار صادر بيروت.

وبعد هذا يخطر على بال المفكر الناظر في سلسلة الخلق والتدبير سؤال عما إذا كانت هناك مصالح ظهرت لنا من خلال ابتلاء الانسان بالتكليف ؟ نقول : نعم وان كان في بادئ الأمر يجب على الانسان المخلوق أن لا يجادل في أن لله الحكمة البالغة في كل أفعاله ، ومهما جادل الانسان وركب عصا السفسطة فلا يسعه الا أن يستسلم مرغما ويعتقد أن الله الحكيم كلف الانسان لمصالح تعود عليه بالخير والنفع ولذلك إذا أحسن العمل الذى يظهره الابتلاء ، ولا يتم التمييز بين الحسن والقبيح من الأعمال الا عن طريق التكليف ، وهذه مصلحة كلية يدخل تحتها جميع ما سنتطرق اليه من مصالح جزئية ، يبين ذلك أن الانسان مفطور على الاتجاه الى معبود يخضع له ليكمل ما يحس به من نقص - وهذا شيء اتفق عليه جميع علماء الكلام والفقهاء وحتى المفكرون على مر العصور - إذ العبادة ضرورية في استقرار الانسان ، لأن بها يحصل كمال نفسه ، وسعادته تتم بسد ذلك النقص النفساني . أضف الى ذلك أن الانسان في حاجة الى ما يطمئنه على مآله في الحياة الأبدية بعد هذه الحياة التي ثبت انقضاؤها قطعا بالحس المشاهد . من هنا فحينما كلف الله الانسان إنما كلفه للأخذ بيده الى طريق يصيب فيه مبتغاه في ادراك الاحسان باتجاهه الى المعبود الحق . وذلك أن الله وحده العليم بطبائع الناس ومايستكن في نفوسهم هو وحده أيضا الذى يشرع للانسان ما يوافق حاجاته فيدفع عنه بالتكليف ما قد يقع فيه من مضار لولاه أى التكليف ما سلم من أن

يتدنس بها سواء كانت تلك المضار دنيوية أو دينية .

أولا : إن من التكليف تحريم أخذ مال الغير بغير حق كالسرقة.

فلو ثبتت السرقة بشروطها وجب قطع يد السارق وذلك ليرتدع أصحاب النفوس المريضة عن تلك الفعلة والا سادت الفوضى وانتشر الرعب وبالتالي انعدم الأمن الذى لولاه لم يبق للحياة معنى ، اذ ضياع الأموال التي هي أساس في حركة الانسان يكون سببا في انهيار جميع مقومات الحياة فمن أجل صيانة تلك المقومات جاء الحكم الصارم في حد السرقة بقطع اليد في قوله تعالى * والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم *.(١)

ثانيا : التكاليف الواردة بخصوص حفظ النفوس ، فحد القصاص بقتل القاتل عمدا عدوانا ،فلولا القصاص لانعدمت الحياة ولحق الفناء ولظهر الشر على الخير ، يقول العليم الحكيم * ولكم في القصاص حياة يأولي الألباب لعلكم تتقون *.(٢)

أما بخصوص الأمور الواردة في تحريم ما يتلف العقل كالسكر والتخدير ،لولا النهي عن ذلك واقامة الحد والتعزير لاختلت حياة الانسان بما يصيبها من تدمير ولخلت من المحبة والوفاق كما قال عزوجل * إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون *.(٣)

---

(١) سورة المائدة آية ٣٨ .

(٢) سورة البقرة آية ١٧٩ .

(٣) سورة المائدة آية ٩١ .

ثالثا : التكاليف الواردة بشأن الابضاع كتحريم فاحشة الزنا الذى اذا انتشر بين قوم هد كيانهم باختلاط أنسابهم وتضييع حقوق الوارثين منهم وبالتالي يفتك بأجسامهم فتكا مبرما لا حل له الا بالرجوع لقواعد التكليف ، يقول عز وجل ﴿ ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا ﴾.(١)

رابعا : التكاليف الواردة بخصوص تهذيب النفوس ورياضتها كالصوم الذى لا يخفى -على من جربه من الأمم- ما فيه من نقاء للروح واتصال قوى بالخالق يجعل الانسان متعاليا عن الماديات معرضا بذلك عن المحرمات ويجلب صاحبه إلى طريق النور ومشكاة الصلاح كما قال عز وجل ﴿ يأيها الذين ءامنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾(٢) وقوله صلى الله عليه وسلم "الصيام جنة "(٣) نقل صاحب الفتح(٤) عن ابن العربي قوله : إنما كان الصوم جنة من النار لأنه إمساك عن الشهوات . وأضاف يقول : والحاصل أنه اذا كف نفسه عن الشهوات في الدنيا كان ساترا له من النار في الآخرة . وهكذا كل أمر أو نهي إلا وهو وارد لمصلحة الانسان بحفظ ما هو في حاجة إليه

---

(١) سورة الاسراء آية ٣٢ .

(٢) سورة البقرة آية ١٨٣ .

(٣) أخرجه البخارى من حديث ابي هريرة، كتاب الصيام منه، فتح البارى باب فضل الصوم ج٤ / ١٠٣ .

والجنة : بضم الجيم ، الوقاية . كتاب النهاية لابن الأثير - ج١ / ٣٠٨ ، نشر دار الفكر .

(٤) ج٤ / ص ١٠٤ كتاب فتح البارى .

لئلا تختل حياته . وذلك الحفظ جعله علماء الشريعة بعد الاستقراء لمقاصد الشريعة منوطا بضرورات خمس اتفق عليها علماء الاسلام من حيث إن التكليف مقصود بها فمثلا لحفظ أركان الدين شرع الجهاد عن طريق الوجوب ،ولولا الجهاد ما قامت للدين قائمة وهذا المعنى نجده في القول الكريم ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾(١) وقوله عز وجل ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ﴾(٢) ، والدين شامل لجميع قواعد الاسلام من عبادات كالصلاة والزكاة ،وأعمال مبنية على حظوظ المكلفين ترجع إلى المحافظة على بقاء الانسان من خلال حفظ النفس والعقل والنسل والمال وجميع التكاليف مدارها على هذه القضايا التي هي في الحقيقة جوهر قوام حياة الانسان ومرتكز تحركه فلو عدم الانسان لفقدت ظاهرة التدين ،ومثل ذلك قل في فقدان العقل والنسل . واختلاف أمور المال يترتب عليه هدم معيار وحساب المبادلات التي هي عنصر أساسي في استقرار الحياة على هذه الأرض وبذلك نعلم أن التكليف هو محافظة على قيام قواعد هذه الضرورات ،بدفع ما قد يتسبب في اختلالها ، وبعد هذا فامتثال الانسان لأوامر التكليف يظهر

---

(١) سورة التوبة آية ٢٩ .

(٢) سورة الحج آية ٣٩ .

شكر المنعم على العباد بالانقياد إليه والطاعة لأوامره حتى ولو لم يعلم المكلف الحكمة في بعض ما كلف به ،وذلك جلي في قوله عز وجل ﴿ كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم ءايتنا ويزكيكم و يعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون ﴾(١) وقوله تعالى في ختام بيان كفارة اليمين ﴿ كذلك بين الله لكم الآيات لعلكم تشكرون ﴾(٢) فالشكر إذن يمكن التعبير عن معناه بأنه يتمثل في تحمل النفس المشقة المعتادة التي في التكليف وذلك بتجنب القبائح وفعل المحاسن التي يترتب عليها العقاب أو الثواب ، وهو ما نعنيه بفعل الواجبات و ترك المحرمات اللاتي جاء بها التشريع من عند الله بإرسال الرسل ،اذ من نعم الله على الانسان أنه لا يوءاخذه عما لم يُبلَّغ به من تكاليف لقوله عز وجل ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾(٣) و نفي التعذيب في الآية الكريمة قبل إرسال الرسل دليل على عدم الوجوب بالعقل فحسب إذ هو ليس حجة منفردا. صحيح أن الانسان العاقل مضطر للبحث عن أصله وعمن خلقه وأوجده بمقتضى الفطرة ، وصحيح أن على العقل أن ينظر ويفكر فيما يدعو اليه الرسل المؤيدون بالمعجزات ، لكن ليس في استطاعته إصابة الحق المنشود

---

(١) سورة البقرة آية ١٥١، ١٥٢.
(٢) سورة المائدة آية ٨٩.
(٣) سورة الاسراء آية ١٥.

كاملا ،وبناء عليه فلا يجب التكليف بالعقل فقط خلافا لأهل الاعتزال حيث قد نحا الزمخشرى-في تفسيره الكشاف عند الآية الكريمة بما يشير مع تكلف بمحاولة البعد عن المعنى الصريح للآية الكريمة -الى جعل العقل ملزما للانسان وموجبا التكليف و مخالفه يوجب عليه العذاب الى آخر ما يستشف من تفسيره للآية الكريمة (١) وقد تعقبه صاحب الانصاف بما فيه الكفاية حيث قال في آخر تعقيبه ما نصه : " نعم العقل عمدة في حصول المعرفة لا في وجوبها وبين الحصول والوجوب بون بعيد والله الموفق ".(٢)

وفي هذا الشأن يقول البيضاوى في معنى الآية : " يبين الحجج ويمهد الشرائع فيلزمهم الحجة وفيه دليل على أن لا وجوب قبل الشرع ".(٣) ويقول أيضا الألوسي في معناها "بيان للعناية الربانية اثر بيان اختصاص آثار الهداية والضلال بأصحابها وعدم حرمان المهتدى من ثمرات هدايته وعدم مؤاخذة النفس بجناية غيرها أى وما صح وما استقام بل استحال في سنتنا المبنية على الحكم البالغة أو ما كان في حكمنا الماضي وقضائنا

---

(١) كايراده سؤالا معناه أن الحجة لازمة للناس وقائمة عليهم مادامو يعقلون فجعل العقل ملزما لهم حيث يستطيعون به ادراك معرفة الله ولذلك مافائدة ارسال الرسل ؟ وأجاب بما معناه : انما هم -أى الرسل - منبهين وموقظين لمن غفل عن النظر في الأدلة .

(٢) جـ ٢/ ٣٥٤ نشر دار المعرفة بيروت وانظر الأحكام لابن حزم جـ١/ ص ٤٧ الى ص ٥٤ نشر مطبعة العاصمة ،القاهرة

(٣) أنوار التنزيل جـ٦/ ١٧ ،نشر دار صادر بيروت .

السابق أن نعذب أحدا بنوع مّا من العذاب دنيويا كان أو أخرويا على فعل شيء أو ترك شيء أصليا كان أو فرعيا - الى أن قال ،بعد قوله تعالى ﴿ حتى نبعث رسولا ﴾ قال : يهدى الى الحق ويردع عن الضلال ويقيم الحجج ويمهد الشرائع "(١) وما ذهب اليه البيضاوى والآلوسي من أن الوجوب بالشرع لا بالعقل هو الذى يوافق المنطق السليم والتفكير السديد نظرا لأن الوجوب بالعقل لا يستقيم عقلا وذلك أن العقل اذا أوجب شيئا إما أن يوجب لمنفعة أم لا ،فان كان لمنفعة لا يخلو إما أن ترجع للمشرع وهو الله سبحانه أو للمكلف بفتح اللام.

فايجابه لغير منفعة ولا لمقصد يرجى من فعله عبث ،والعبث عند العقلاء مذموم إذ المدرك من الوجوب إما الثواب أو العقاب . ولا مجال للعقل في ادراك ذلك فبطل كونه لغير منفعة وبقي لدينا أنه -أى الايجاب - لمنفعة وطبعي لا بد أن يكون هناك منتفع ،هذا أولا . وثانيا : -على القول بأنها ترجع -أى المنفعة -الى المنعم يوقعنا ذلك فيما هو محال بدليل أن المقصود بالمنفعة إما جلب مصلحة أو دفع مضرة والخالق المنعم ثبت له الكمال في كل شيء فله الكمال في الصفات والأفعال وله الغنى المطلق وما دام الأمر كذلك فهو منزه عن ايصال منفعة له مما يقوم به الانسان من مظاهر الشكر سواء قلنا الايجاب بالعقل - وقد بطل قطعا - أو بالشرع وهو الحق الذى لا مرية فيه فثبت بذلك

---

(١) روح المعاني م٥ /ج١٥/ص ٣٦ نشر دار الفكر بيروت .

أن المنفعة ترجع الى المكلف لكن عن طريق الشرع بدليل عجز العقل عن إدراك ما يترتب على تعبه من منفعة إلا بالسمع وإلا فكيف يتعب نفسه في شيء لا نصيب له فيه في الدنيا والآخرة .(١) بعد هذا تحصل لدينا أن من الحكمة بالتكليف اظهار شكر المنعم بما من به على المكلف من نعمة التشريع كما قال عز وجل ﴿ لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم ﴾(٢) ، إذن عن طريق التكليف يتم تطهير الانسان نفسه ووصلها بالنور الرباني باستغراق الجوارح في الأعمال المأمور بها والاعراض عن الأعمال المنهي عنها ، كل ذلك يوجب شكر المنعم به . والشكر هذا يظهر لنا أن التكليف يخرج الانسان من اتباع الهوى الذى لو ترك واياه لأدى به الى الخسران ، يقول سبحانه ﴿ ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموت والأرض ومن فيهن ﴾(٣) ، ويقول عز من قائل ﴿ أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم ﴾(٤) . هذه الآيات وغيرها من أمثالها : تدل على

---

(١) المنهاج بشرح الأسنوى جـ١/١١٨ ، ط/ الصبيحي مصر ، والموافقات جـ٢/١٧٢ نشر دار المعرفة بيروت.

(٢) سورة آل عمران آية ١٦٤ .

(٣) سورة المؤمنون آية ٧١ .

(٤) سورة محمد آية ١٤ .

أن ترك الانسان متبعا هواه يؤدى - بالتجربة - الى الهلاك والدمار والى تقهقر المجتمعات وانحطاطها من الفضيلة الى الرذيلة ولذلك كانت قواعد التكليف هي المانعة من الاسترسال في اتباع الهوى ، وهذا لا ينافي أن الله وضع التكاليف موافقة لمصالح الانسان المكلف بل الشريعة كلها مبنية على تحصيل حظوظ المكلفين لكن لا على مقتضيات شهواتهم ، لأن ذلك يلزم منه فقدان مصالح الانسان وحظوظه بل من مصلحة الانسان تحديد ما يهواه ويوجب هذا أن الأهواء في مبتغياتها تختلف بناء على اختلاف الأوضاع واختلاف الناس في الصفات والطباع . وهذا يحتم وجود مصدر ينظم مسارات الناس في حياتهم لسلامتها وليس هو الا التكليف الالهي ، وحينما خرج الناس عن قواعد التكليف وشرعوا حسب أهوائهم الجماعية أو الفردية وقعوا فيها لا مخرج منه من الفساد وفقدان السعادة الا بتطبيق قواعد التكليف الالهي ، لأن اتباع الهوى يجعل الحياة غير متوازنة مما يفقد معه الانسان الراحة والاطمئنان وبالتالي يستبد الأقوياء بمقدرات الحياة ولا مكان للضعيف بينهم ولذلك لا ترى من يحارب الانضمام تحت قواعد التكليف الالهي الا الذين يخشون على فقدان ما يلبسون به شهواتهم العارمة فتراهم يأنفون من كل تشريع يخالف شهواتهم وأهوائهم الى درجة أن ينكروا الايمان وهو القاعدة الكبرى لباقي مقتضيات التكليف ، يقول عز وجل ﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك

هم المفلحون ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون * (١)

وقوله سبحانه * ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء

الذين لا يعلمون إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا وإن الظالمين

بعضهم أولياء بعض والله ولي المتقين * (٢) ،وهذا يعطينا مصلحة

اخراج الانسان -من خلال التكليف- عن اتباع هواه الذى يؤدى به

الى الانتكاس. وسواء في ذلك عدم الخضوع لجميع قواعد التكليف البتة

أو العمل ببعض ذلك وترك بعضه الآخر أو العمل بتشريعات قد

نسخت حيث انتهت مهمتها حسب ظروف الأمم والزمن وذلك النسخ

لا يكون الا في الجزئيات والا فالشرائع كلها متفقة على كليات الايمان التي

تزكو بها نفس الانسان كما قال عز وجل * شرع لكم من الدين ما وصى به

نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا

الدين ولا تتفرقوا فيه * (٣) إذ كل ما هو ضرورة في حياة الانسان قد

روعي في كل ملة وان اختلفت وجوهه وصفاته بحسب اختلاف الأعصار

والأشخاص مثل الدواء الذى يعالج به الداء فان النافع منه في زمان

قد يضر في زمان آخر والدواء الذى يزيل علة شخص قد لا يزيل علة

آخر، فكذلك التكليف الذى طرأ عليه النسخ يكون أصلح في المعاش

---

(١) سورة النور آية ٥١ ، ٥٢.

(٢) سورة الجاثية آية ١٨ ، ١٩.

(٣) سورة الشورى آية ١٣.

والمعاد مما لو بقي العمل به. وهكذا إلى أن ختم الله الشرائع بما هو شامل وصالح لكل العصور وبما هو مرن وقابل لكل تقلبات حياة الانسان وذلك أن الشريعة الخاتمة جاءت بالكليات السابقة والجزئيات التي لا تتغير بتغير الزمن والانسان فهيمنت على جميع الشرائع ونسختها وان كانت الأصول التي في الشرائع السابقة موجودة في الشريعة المحمدية الا أن اتباعها يلزم بأمر جديد لا مما سبق في الأولى . نجد ذلك صريحا في القول الكريم * وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم *(١) فالآية تبين أن اختلاف الشرائع كان للابتلاء وذلك حتى يظهر من يذعن معتقدا أن ما جد من الشرائع هو الأمثل وهو الأنفع في المعاش والمعاد فيخضع للأمر الجديد عاملا به مصدقا وصادقا في طاعته. ومن يتبع هواه وما تبتغيه نفسه من شهوات فيزيغ بذلك عن الحق . كما أن الآية الكريمة تبين أن التكليف قد يكون لمحض الابتلاء مثل الأمر الوارد في شأن جنود طالوت حيث أمروا بأن لا يشربوا من النهر إلا ما حدد لهم وهو غرفة واحدة وهم في أشد القيظ والظمأ ، فليس هناك من حظ للمكلف في هذا الأمر إلا إظهار من يصبر ويتحمل ويصدق فيما كلف به ومن لا يصبر فيظهر كذبه

---

(١) سورة المائدة آية ٤٨ .

وحينئذ لا يصلح لتحمل مشقة الجهاد بالقتال ، يقول عز وجل * فلما فصل طالوت بالجنود قال : إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه إلا قليلا منهم * (١) . ومن هذا القبيل أيضا ما ابتلى به بنو اسرائيل من أوامر كانوا دائما يسلكون سبيل التحايل فيها على كيفية العمل بها وبالتالي فهم متشككون في أن الله أمر بها . كما صنع أصحاب السبت حينما اختاروا تخصيصه للعبادة فامتحنهم الله فيه . فأمرهم بترك العمل وحرم عليهم فيه صيد الحيتان ، فكانت الحيتان تتكاثر يوم السبت على شاطيء القرية وتقل في غيره ، فحفروا حياضا بجانب البحر ومدوا إليها جداول ، فكان الحوت يتساقط فيها ولا يستطيع الخروج منها لعمقها فيأتون هم يوم الأحد ويصطادونها فاعتدوا بمخالفة أمر تحريم صيدها فمسخهم الله قردة كما أخبر سبحانه * ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين * (٢) وفي قوله تعالى * وسئلهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر اذ يعدون في السبت اذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون * (٣) . في هذه الآية الكريمة تحذير

---

(١) سورة البقرة آية ٢٤٩ .

(٢) سورة البقرة آية ٦٥ ، ٦٦ .

(٣) سورة الأعراف آية ١٦٣ .

لليهود الذين عاصروا النبي صلى الله عليه وسلم وكانوا ينكرون ما يجدونه في التوراة من صفات دالة على صدق النبي صلى الله عليه وسلم فيما يخبر به ومن ذلك الاخبار بما كانوا يخفونه من قصة أصحاب السبت الذين تجاوزوا حدود الله بالصيد يوم السبت الذى كانت الحيتان تدنوا فيه وتظهر على وجه الماء (١) ،فلاستمرارهم على التمرد والعناد يسر الله ظهور الحيتان وسخرها لتأتي في اليوم الذى اختاروه للانقطاع عن العمل. فتحايلوا بما هو ظاهر المخالفة لأمر الله فحق عليهم العذاب ،وكما فعلوا أيضا في الشحوم التي حرمها الله عليهم بسبب بغيهم كما قال تعالى ﴿ فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا وأخذهم الربوا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل واعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما ﴾ (٢) ، فلما حرم عليهم أكلها أذابوها وباعوها وأكلوا ثمنها . فأخبر سبحانه بذلك في قوله ﴿ ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومها إلا ما حملت ظهورها أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون ﴾ (٣) وفيما أخبر به الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم حيث قال " قاتل الله يهود حرمت عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا ثمنها " (٤) . وكما فعل أصحاب البقرة بتشكيكهم

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ٢ /٢٥٧.

(٢) سورة النساء آية ١٦٠ ، ١٦١.

(٣) سورة الأنعام آية ١٤٦.

(٤) أخرجه البخارى في صحيحه من حديث أبي هريرة، كتاب البيوع باب لا يذاب شحم الميتة. انظر فتح البارى جـ٤/ ٤١٤.

في ذبحها واتهامهم نبي الله موسى بالاستهزاء فسلكوا سبيل الالتواء والتعنت بالسؤال عن حقيقة البقرة بطلبهم تعيين صفتها . وكان يكفيهم أن يذبحوا أى بقرة ،لأن الامر بذلك جاء شاملا لأى بقرة كما نقل عن ابن عباس قوله :

" لو أخذوا أدنى بقرة لاكتفوا بها ولكنهم شددوا فشدد الله عليهم "(١)

وبدليل أنه بعد سؤالهم الأول يأتيهم الأمر بعدم السؤال ،المفهوم من قوله تعالى ﴿ فافعلوا ما تؤمرون ﴾ أى من ذبح البقرة ولا تكرروا السؤال واطرحوا التعنت جانبا . ولذلك ما كادوا يذبحونها ؛ لأن غرضهم من الأسئلة التعنت وعدم الاستجابة للأمر الالهي كما قال عز وجل ﴿ وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزوا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ، قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي ، قال إنه يقول : إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون ، قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين ، قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث مسلمة لا شية فيها قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون ﴾(٢)

---

(١) أخرجه ابن جرير من رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس بسند صححه ابن كثير في تفسيره. انظر جامع البيان للطبرى ج١/٣٤٧ ط/ الثانية الحلبية . وانظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج١/١١٠ نشر دار التراث القاهرة.

(٢) سورة البقرة آية ٦٧ الى ٧١.

وبصدد بيان ما ينبغي للمكلف الانشغال به حينما يؤمر بشيء من عند الله يقول صلى الله عليه وسلم " دعوني ما تركتكم فانما أهلك من كان قبلكم سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فاذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه واذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم "(١) فالذى ينبغي للمكلف الاتجاه اليه هو الفعل لما يؤمر به والترك لما ينهى عنه بحيث يبذل وسعه في الطاعة والامتثال في كل من النواهي والأوامر ، لأن ذلك هو الأهم من الاشتغال بالسؤال والافتراض لما لم يقع ولم يؤمر به . ولذلك لما نسخ الله استقبال بيت المقدس في الصلاة وأمر بالتوجه الى الكعبة المشرفة ارتد ممن كان قد آمن من اليهود وأرجف المنافقون كعادتهم بينما المؤمنون الذين آمنوا بصدق اتبعوا أمر الله فتوجهوا حيث أمرهم من غير شك ولا ريب ، كما جاء في الصحيح من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال " بينا الناس بقباء في صلاة الصبح إذ جاءهم آت فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أنزل عليه الليلة قرآن وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها وكانت وجوههم الى الشام فاستداروا الى الكعبة ".(٢)

---

(١) أخرجه البخارى في صحيحه من حديث أبي هريرة . كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب الاقتداء بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم (فتح البارى جـ١٣/ص٢٥١) .

(٢) أخرجه البخارى في صحيحه . كتاب الصلاة باب ما جاء في القبلة . (فتح البارى جـ١/٥٠٦) .

وذلك قوله تعالى ﴿ وما جعلنا القبلة التي كنت عليها الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه ، وان كانت لكبيرة الا على الذين هدى الله وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرءوف رحيم ﴾. (١)

فالمراد أن الله جعل التوجه أولا الى بيت المقدس ثم نسخه بالتوجه الى الكعبة اختبارا للناس ليظهر من يتبع الرسول ومن يعرض وينفر عنه متكبرا منقلبا على عقبيه (٢) . وهذا المعنى أيضا واضح في الأمر الوارد في تحريم الصيد على المحرمين مع كثرة غشيانه الصيد إلى أماكنهم بحيث يستطيعون تناوله بالأيد فابتلاهم الله اظهارا للذين يلتزمون بالتكليف غيبا فيربطون جأشهم ويتحملون و يمتثلون و يعتصمون بالصبر عما هم في حاجة إليه إذ من لا يملك نفسه ويصبر في مثل هذه المواقف لا يستطيع التحمل فيما سوف يلاقيه من مواقف أخرى تكون النفس أشد ميولا اليها وذلك ما أمر به سبحانه في قوله : ﴿ يأيها الذين ءامنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ليعلم الله من يخافه بالغيب ، فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم ﴾. (٣)

هذه الآية الكريمة تدل على أن الله تعالى يبتلي عباده بالأمر ليتميز الخائف من عقابه الأخروى وهو غائب مترقب لقوة ايمانه فلا يتعرض للصيد ممن لا يخافه لضعف ايمانه فيقدم عليه فيظهر من يطيع الله في السر والعلن بامتثال شرعه وعدم مخالفة أمره . ومن لا يطيعه ولا يمتثل شريعته بأن يخالف أمره . اللهم وفقنا لطاعتك.

---

(١) سورة البقرة آية ١٤٣ .

(٢) التفسير الكبير للرازى م٢/ج٤/ ١١٤ نشر دار الفكر . وانظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج١/ ١٩١ نشر دار التراث القاهرة.

(٣) سورة المائدة آية ٩٤ .

الفصل الثالث

الابتلاء بالمال والولد

ظهر لنا بجلاء من خلال ما تقرر في الفصلين السابقين أن الانسان مبتلى بالخير والشر ، وأن الخير كل محبوب ،والشر كل مكروه ، وأن الخير اذا لم يسلك به مسلك الحق قد ينقلب شرا وأن الانسان قد وضع أمام الخير والشر سواء وذلك كي يتميز كل فرد من خلال ما أوجب الله من تكاليف حددت مسار الانسان فيما تشتهيه نفسه كما ألزمت الانسان بأمور قد لا يعرف العلة في الالتزام بها وذلك حتى يظهر من يتبع طريق الحق ومن يتجه الى سبل الباطل بأن يسلك الطريق المادى فقط وحينئذ يخسر نفسه وأدركنا أن الانسان في حياته الدنيا اما أن يواجه نعما وخيرات واما أن يواجه نقما وشرورا . وضروب الابتلاء بهما متشعبة وكثيرة إلا أن أعظمها فتنة وأخطرها موقفا الابتلاء بالمال ثم بالولد ولذلك قدم ذكر المال في قوله عز وجل * إنما أموالكم وأولادكم فتنة * فقدم المال على فتنة الأولاد لعظم فتنته وكثرة غوائله . يقول الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم "إن لكل أمة فتنة ،وفتنة أمتي المال".(١) والمال فتنة سواء في توفره لدى الانسان وهو ما نصفه بالغنى أو فقدانه لديه وهو ما نصفه بالفقر فما مأخذ كل منهما ؟

---

(١) أخرجه الترمذى بسنده من حديث عياض . والحاكم أيضا من حديثه . وقال الترمذى : حسن صحيح غريب . وقال الحاكم : صحيح الاسناد وأقره الذهبي . تحفة الأحوذى الزهد جـ٦/ ٦٣٠ ،المستدرك جـ٤/ص ٣١٨ الرقاق .

أ - الغنى : جاء في مقاييس اللغة " الغين والنون والحرف المعتل أصلان صحيحان أحدهما يدل على الكفاية والآخر صوت . فالأول الغنى في المال يقال غنى غنى . والغناء بفتح الغين مع المد الكفاية ، يقال : لا يغني فلان غناء فلان أى لا يكفي كفايته ." (١)

والراغب رحمه الله في مفرداته جعل معاني الغنى على ثلاثة أنواع :

١ - عدم الحاجة وليس ذلك إلا لله تعالى وهو المذكور في قوله تعالى ﴿ إن الله هو الغني الحميد ﴾ (٢) ﴿ يأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد ﴾ . (٣)

٢ - قلة الحاجة وهو المشار اليه بقوله تعالى ﴿ ووجدك عائلا فأغنى ﴾ (٤) وذلك هو المذكور في قوله عليه الصلاة والسلام " الغنى غني النفس " . (٥)

٣ - كثرة القنيات (٦) بحسب ضروب الناس كقوله تعالى ﴿ ومن كان غنيا فليستعفف ، ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف ﴾ (٧) وكقوله تعالى ﴿ يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ﴾ (٨) أى لهم غنى النفس

---

(١) جـ٤/ ٣٩٧ مادة غنى ، ط/ الثانية .
(٢) سورة لقمان آية ٢٦ .
(٣) سورة فاطر آية ١٥ .
(٤) سورة الضحى آية ٨ .
(٥) أخرجه البخارى في كتاب الرقاق باب الغنى غنى النفس من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس " جـ١١/ ٢٧١ فتح البارى .
(٦) أى المال الذى لم يتخذ للتجارة . المصباح المنير جـ٢/ ٦٢٦ دار الفكر.
(٧) سورة النساء آية ٦ .
(٨) سورة البقرة آية ٢٧٣ .

ويحسبهم الجاهل أن لهم القنيات لما يرون فيهم من التعفف والتلطف .

ب - الفقر معناه كما جاء في مقاييس اللغة والمفردات أيضا

ففي الأول يقول: (١) الفاء والقاف والراء أصل صحيح يدل على انفراج في شيء من عضو أو غير ذلك . ومن ذلك الفقار للظهر الواحدة فقارة سميت للفصول التي بينها . والفقير المكسور فقار الظهر وقال أهل اللغة منه اشتق اسم الفقير ،وكأنه مكسور فقار الظهر من ذلة ومسكنة ،ومن ذلك فقرتهم الفاقرة ،وهي الداهية كأنها كاسرة لفقار الظهر . وبعض أهل العلم يقولون : الفقير الذى له بلغة من عيش ويحتج بقوله :

أما الفقير الذى كانت حلوبته وفق العيال فلم يترك له سبد (٢)

قال : فجعل له حلوبة وجعلها وفقا لعياله أى قوتا لا فضل فيه .

وفي الثاني (٣) للفقر أربعة معان :

١ - وجود الحاجة الضرورية وذلك عام في الانسان ما دام في دار الدنيا بل عام في الموجودات كلها . وعلى هذا قوله تعالى ﴿ يأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد ﴾. (٤) والى هذا النوع من الفقر أشار عز وجل بقوله في وصف الانسان ﴿ وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام ﴾. (٥)

----

(١) جـ٤/٤٤٣ مادة فقر .

(٢) نسبه ابن السكيت في اصلاح المنطق للراعي ص ٣٦٠ نشر دار دار المعارف مصر .

(٣) كتاب المفردات في غريب القرآن ص ٣٨٣ مادة فقر .

(٤) سورة فاطر آية ١٥ .

(٥) سورة الأنبياء آية ٨ .

٢ - عدم المقتنيات وهو المذكور في قوله تعالى ﴿ للفقراء الذين احصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضربا في الأرض ﴾[(١)] وقوله ﴿ إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله ﴾[(٢)] ، وقوله ﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين ﴾[(٣)]

٣ - فقر النفس وهو الشره المعني بقوله عليه الصلاة والسلام : " كاد الفقر أن يكون كفرا "[(٤)] وهو المقابل لقوله صلى الله عليه وسلم "الغنى غنى النفس "[(٥)] والمعنى بقولهم : من عدم القناعة لم يفده المال غنى .

٤ - الفقر إلى الله المشار اليه بقوله عليه الصلاة والسلام " اللهم اغننى بالافتقار إليك ولا تفقرني بالاستغناء عنك "[(٦)] وإياه عنى بقوله تعالى ﴿ رب إني لما أنزلت الي من خير فقير ﴾[(٧)].

وبعد فانما نعرض في هذا البحث للمعنيين العرفيين المشهورين بين الناس لكل من الغنى والفقر : أعنى كون الغنى هو كثرة المقتنيات على ما سبق في كلام الراغب وكون الفقر هو عدم المقتنيات أو قلتها القريبة من العدم على ما قال الراغب أيضا كذلك . وأول ما ينبغي على الباحث

---

(١) سورة البقرة آية ٢٧٣.
(٢) سورة النور آية ٣٢.
(٣) سورة التوبة آية ٦٠.
(٤) ضعفه في الجامع الصغير منسوبا لأبي نعيم في الحلية . انظر فيض القدير ج٤ / ٥٤٢.
(٥) هامش (٥) في ص ١٤٣.
(٦) لم أعثر على مصدر قد خرجه.
(٧) سورة القصص آية ٢٤.

هنا أن يصدر به قوله : بعد تحديد المراد من الأمرين اللذين هما محل البحث فيما معنا أن نبين كيف كان المال ضرورة اجتماعية جارية على ماأراد الله من سننه الكونية وكيف أن الله جعله زينة ، فأقول :

إن طبيعة الانسان في حياته الدنيا ترتكز على الاتصال وذلك أن الانسان لكي يحافظ على حياته يلزمه التعاون مع الناس حتى يحقق ما يحتاج إليه من خدمات تلبي رغباته من غذاء وكساء ومأوى وغير ذلك من الحاجيات الضرورية وهذا يجعل الانسان مدفوعا نفسيا واجتماعيا للاتصال بأبناء جنسه ليلبي رغباته وقضاء مصالحه وحاجاته التي تدعو إليها مدنيته ومجتمعه ولا يمكن أن يشبع حاجاته إلا عن طريق المال الموجود الذى يستخدمه الانسان بصورة تا لاشباع حاجاته المختلفة. والمال يشمل كل شيء له قيمة نافعة من المواد الطبيعية كالمعادن وقوى حيوانية أو نباتية كالأنعام وكالانتاج الزراعي أو النقود المعروفة بالعين من ذهب أو فضة أو ما يقوم مقامهما من المثمنات ، وهذه الأخيرة أصبحت أهم الأموال اليوم وأصل المقتنيات والذخائر وذلك لعمومها في التبادل. فالنقدان لهما قيمة عامة في المبادلات فيمكن الحصول بهما على أى نوع من المتمولات ، فالمال إذن أساس تبنى عليه حياة الانسان . وبالمال يحصل الانسان على الطعام والملبس والمسكن ، وكل حركة اقتصادية لا وجود لها إلا بالمال (١) . فالمال إذن ضرورة وعامل من العوامل

---

(١) ر في ذلك مقدمة ابن خلدون من ص ٢٠٨ الى ص ٢١٠ ط/الأولى الخيرية ـ القاهرة .

التي لا يستغنى عنها الانسان اذ و وسيلة للرغائب وطريق موصـــل للذائذ والانسان رغائبه غير محدودة. ولذلك كلما ازداد من المـــال تطلع لأكثر مما عنده ،وصدق رسول الاسلام صلى الله عليه وسلم حيث يقول: فيما أخرجه مسلم من حديث أنس (١) " لو كان لابن آدم واديان من مـال لابتغى واديا ثالثا ولا يملأ جوف ابن آدم الا التراب ويتوب الله على مــن تاب" والنقود ضرورة لحركة المجتمع الانساني بحيث جعلهما ثمنا لجميـــع الأشياء المثمنة ،فمن ملك نقودا كانت له القدرة على تحصيل الرغائب التـي تدرك بالمال . ولما كان المال ضرورة لقيام حياة الانسان جعله الله زينـــة فحببه لنفوس الناس كما قال عز وجل ﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا ﴾ (٢) وليبتلى الانسان من خلال ما يحب بناء على تصرفه فيه من حيث العـــدل وسلوك طريق الحق يقول عز قائلا ﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لهـا لنبلوهم أيهم أحسن عملا ﴾ (٣) جعل الله المال زينة لينتفع به الناس حســـب ما تقتضيه الأوامر الالهية مبتلين به ليصلوا إلى سعادة الدين والدنيـا عندما يتعاطاه الانسان وفق أوامر الشريعة الكريمة ، يؤيد هذا المقصــد من الزينة قول الفاروق رضي الله عنه " اللهم إنا لا نستطيع الا أن نفـرح بما زينته لنا اللهم اني أسألك أن أنفقه في حـقه ".(٤)

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى جـ٧ / ١٣٨ ،الزكاة باب كراهـــة الحرص على الدنيا.

(٢) سورة الكهف آية ٤٦.

(٣) سورة الكهف آية ٧.

(٤) أخرجه البخارى في كتاب الرقائق باب قول النبي صلى الله عليه وسلم : هذا المال خضرة حلوة ،فتح البارى جـ١١/ص٢٥٨.

وزينة المال جعلت الشريعة لها حدودا فيما يريده الانسان بما اشتهته نفسه مبتلى بتلك الحدود فمن رعاها بمجاهدة النفس. وطلب التوفيق من الله وأخذ من ذلك التزيين بقدر ما حدد له فهو في مكان محمود من زينة المال ،ومن نظر الى الزينة من زاوية الانغماس في المشتهيات والانهماك فيما يحبه منها فقد تنكب الطريق المحمود والمغزى المقصود. وقد بين المصطفى صلى الله عليه وسلم الغرض المنشود من زينة المال وضرب المثل الأعلى لبيان الحد من زينته ،يقول صلى الله عليه وسلم " ان أكثر ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الأرض ،قيل : وما بركات الأرض ؟ قال : زهرة الدنيا . فقال له رجل : هل يأتي الخير بالشر ؟ فصمت النبي صلى الله عليه وسلم حتى ظننت أنه ينزل عليه ثم جعل يمسح عن جبينه فقال : اين السائل ؟ قال : أنا . قال أبو سعيد : لقد حمدناه حين طلع لذلك قال : لا يأتي الخير الا بالخير . ان هذا المال خضرة حلوة وإن كل ما أنبت الربيع يقتل حبطا (١) أو يلم الا آكلة الخضرة (٢) أكلت حتى اذا امتدت خاصرتاها استقبلت الشمس فاجترت (٣) وثلطت (٤) وبالت ثم عادت فأكلت وان هذا المال حلوة (٥) فمن أخذه بحقه ووضعه

---

(١) معناه هلكا من قولهم حبطت بالكسر حبطا بفتح الموحدة اذا أفرطت في الأكل حتى هلكت أو تقرب من الهلاك وهذا معنى قوله أو يلم . كتاب النهاية لابن الأثير ج / ٣٣١ .

(٢) نوع من البقول ليس من أحرارها وجيدها . كتاب النهاية لابن الأثير ج٢/ ٤٠ مادة خضر.

(٣) معناه استرجعت ما أدخلته في كرشها من العلف فأعادت مضغه . الفتح لابن حجر ج١١/ ٢٤٤ .

(٤) بفتح المثلثة الرجيع كالقيء للانسان . كتاب النهاية لابن الأثير ج١/ ٢٢٠ مادة ثلط .

(٥) معناه التشبيه ،فشبه المال بالبقلة الحلوة الخضراء باعتبار أنه زينة الحياة الدنيا .

في حقه فنعم المعونة هو، وان أخذه بغير حقه كان كالذى يأكل ولا يشبع.(١)
بين صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث العظيم مكان زينة المال من عمل الانسان فيه فضرب المثل لمن اتخذ زينة المال لاشباع شهواته غير مبال من أين يأخذ هذا المال وفيما ينفقه ،بأن يكسبه من طريق غير مشروع ويمنع منه مستحقه بما تأكله الماشية من ربيع مكثرة من أكله لاستمرائها إياه فيؤدى بها الى انشقاق أمعائها فتهلك أو تكون بذلك قريبة من الهلاك فكذلك الذى لا يقف عند المراد من زينة المال وذلك بأن يأخذه من غير حل ويبخل به عمن يستحقه يكون قد عرض نفسه للهلاك في دار الفناء وباء بالخسران في الحياة الآخرة .

وفي جانب الذين نجحوا من حيث إدراكهم المغزى من زينة المال ،ضرب صلى الله عليه وسلم المثل لمن اهتدى الى المقصود من زينة المال بماشية تأكل نوعا من النبات بعد ذهاب نضارته وخضرته فلا تستطيبه ولذلك لا تكثر الأكل منه. بمن التزم طريق الوسط في قضية المال بحيث طلبه من الحل فلم يحمله الحرص على المال بأن يأخذه من حرام فهو من النجاة من الهلاك بمكان كما نجت آكلة الخضرة . فمن اتخذ زينة المال ارضاء لرغباته لا محالة هالك كما هلكت الماشية التي لم تبال بما يضرها من الأكل فلم تبتعد عنه . ومن جعل زينة المال

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه من حديث أبي سعيد الخدرى .
باب ما يحذر من زينة الدنيا والتنافس فيها
كتاب الرقاق/ بفتح البارى ج١١/ ٢٤٤ وابن ماجه في سننه. كتاب الفتن . باب فتنة المال ج٢/ص ٣٧٨ .

عونا له على طاعة الله وراقب ربه في جميع تصرفاته المالية من حيث الكسب والانفاق ، فاكتسبه من طرق مشروعة وانفقه فيما يرضي الله ،نجا بذلك وسلم في الدنيا وفي الاخرة وفاز وأفلح . فالمال إذن جعله الله زينة بناء على أوامر ونواه موحى بها من عنده سبحانه.

ولما كان الانسان بطبيعته ميالا للذائذ ومنعطفا لما ترتاح إليه نفسه ونافرا مما تأنفه فارا مما يوء لمه ،وجميع أعماله وتحركاته منطلقة من هذه القواعد يضاف لذلك أن الناس متفاوتون في اللذات والرغائب بدليل ما ثبت من تعارض لذة طائفة مع آلام أخرى وبالعكس . وبناء عليه فلو ترك الأمر لاستيفاء كل أحد لذائذه والدفع عن آلامه حسب هواه لاستأثر باللذائذ الأقوياء ومن ثم تثور الفتن بين الضعفاء والأقوياء فتسود العداوة والبغضاء بين الطبقات المتباينة . مما يجعل المجتمع الانساني يفقد راحته ،لما كان الأمر كذلك فلا بد من إقامة موازين تحدد جلب الرغبات وتمكن الناس من حقوقهم ومما يحبونه من أموال. ووقايتهم مما ينتج عنه خلل في حياتهم ،فالمنافع والمضار تتفاوت كما سبق . فمن ثم كان لا بد من أن ينظم الله أمر المال سواء من حيث اكتسابه أو انفاقه تحقيقا للتوازن المالي بين أفراد المجتمع الفقراء والأغنياء منهم سواء فلكي يتم توزيع المال بين الناس جميعا ولا يقصر على فئة دون فئة. ولكي يتم روح التضامن والتكافل بين الناس فيما يحتاجون إليه من منافع لا تقضى إلا بالمال الذى له سلطان وتأثير على النفوس البشرية . أمر الله

الانسان فيه بأوامر يتحقق من خلالها تنظيم التعامل المالي بناء على الأمانة والصدق والوفاء ، فأباح الله الكسب الحر الحلال وبين طرقه المشروعة من معاملة تجارية أو مبادلات عوضية مثل الصناعة والزراعة وغير ذلك ، كما أجاز الملكية الفردية ولم يمنعها كالنظام الشيوعي ،وأوجب نفقات على الموسرين فلم يهضم الفقراء حقوقهم مثل ما تحكم به الرأسمالية (١) وفي الوقت نفسه حرم الكسب الباطل كالربا والرشوة والغصب والسرقة والخيانة وأخذ المال باليمين الكاذبة وجحد الحق وما إلى ذلك من محرمات مبسوطة ومفصلة في الكتب الفقهية . يقول عز وجل في شأن الربا

* يأيها الذين ءامنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون * (٢).

ويقول ما أحكمه من قائل * ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالاثم وأنتم تعلمون * (٣) ويقول أيضا * يأيها الذين ءامنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم * (٤) كل ذلك حفاظا على توازن حياة الانسان

---

(١) كتاب : اقتصادنا لمحمد باقر الصدر . ص ٢٧٢ الى ص ٢٧٧ ومن ص ٥٠٦ الى ص ٥١٤ نشر دار الكتاب بيروت .

(٢) سورة البقرة آية ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

(٣) سورة البقرة آية ١٨٨ .

(٤) سورة النساء آية ٢٩ .

التي إذا أصيبت بخلل في المعاملة المالية انهارت ،وحينما انحرف الناس في طرق اكتساب المال من الأبواب المشروعة كما صرفوه عن غايته وأنفقوه في غير مرضاة الله أصيبت اقتصاديات البشرية بانهيار حار في حله خبراء مرموقون على مستوى المجتمع الانساني ،فالتنظيمات الاسلامية - اذن - وحدها هي التي عالجت القضية المالية في حياة الانسان بما يكفل العدالة من شمول في النظام وسمو بالنفس عن الماديات ،هذا من حيث الكسب ،وأما من حيث الانفاق فقد فرض فيه حقوقا وأوجب فيه تقديرات تكفل حقوق المحرومين وتوءازر بين الفقراء والأغنياء فأوجب على الأغنياء من العون للفقراء ما يحفظون به كرامتهم ويدفعون به عوزهم وتخفيفا لما يلاقونه من ضيق في الرزق وشظف في العيش وحرج في التصرف ،من أجل ذلك رغب الاسلام في الانفاق على وجه الوجوب كالزكاة وكاعالة من تلزمه نفقتهم من الأقرباء وعلى وجه الندب كالتصدق تطوعا وكالانفاق العام في بناء المساجد والمصحات وغير ذلك من سبل الانفاق التي امتلأت ببيانها كتب السنة وشرحتها كتب الفقه الاسلامي .

والله لما أمر الانسان بالانفاق إنماكان أمره لمصلحة الانسان نفسه فلم يأمره بما ليس في طاقته لا سيما أن اللطيف الخبير يعلم مدى حب الانسان للمال . فأمره بجزء يسير لا كلفة فيه ولا حرج جزء معلوم في نصاب معلوم أو نفقة واجبة للضعفاء من الأقرباء والأولاد في زمن محدود وصفة محدودة . وفوق ذلك كله يتبين أن من صرف المال

الطيب فيما أحله الله وأمر به مع الاخلاص والرضا وعده الله بالمثوبة ضعف ما أنفق وزيادة على ذلك تغفر ذنوبه مما يجعله من الفائزين في الدنيا المفلحين يوم القيامة ،يقول الكريم عز من قائل ﴿إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم ﴾[١] ، وهكذا ندرك أن الله ابتلى الانسان من حيث وجود المال عنده وذلك يظهر في أنه من وجد عنده المال إما أن يمتثل أمر الله فيه فيأخذه بحق وينفقه في حق . وهذا الصنف قد نجا وسلم وإما أن يحرص على جمعه ويبالغ في محبته حتى يكسبه من غير حله ويمنعه من واجبات إنفاقه وحقوقه ،وهذا الصنف تنكب سبل السلام ووقع من هذا الباب في الخسران . فالمبتلى بالمال - اذن - لا يخلو إما أن يكون شاكرا أو جاحدا. فالشاكر هو الذى يعترف بأن المال لله وبأن النعمة كلها له فهو المختص بالايجاد والخلق وهو المعطي بناء على حكمته البالغة في ذلك العطاء ولذلك نرى هذا العبد لا يمنع الناس حقوقهم فلا يبخل بما هو مستخلف فيه بل يعطيه وينفقه بسخاء كما أمر طيبة به نفسه ،وأما الجاحد فيفتر بما لديه من مال ويجحد الفضل لأهله والشكر لصاحب النعمة. وبالتالي يتعالى على الناس أمثاله وأفضل منه ،واذا دعي لامتثال ماأمر به امتنع وأضاف النعمة لنفسه. كما فعل قارون بني اسرائيل فيما ذكره الله في قوله الكريم ﴿إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه

----

(١) سورة التغابن آية ١٧.

من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين وابتغ فيما آتيك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين. قال إنما أوتيته على علم عندى أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا * (١) وقوله عز وجل * فاذا مس الانسان ضر دعانا ثم إذا خولناه نعمة منا قال : إنما أوتيته على علم بل هي فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون *. (٢)

والانسان بحاله هذه حينما يبتعد عن الصراط المستقيم ولم يهتد لما يوافق فطرته يكون قد تنكر للنعمة بعد أن تعطى له من مصدرها وتخول له على أنه مستخلف فيها فقط فيدعيها لنفسه زورا وبهتانا ويرى أن ما استخلف فيه من مال هو من علمه بطرق الكسب أو لاستحقاقه ذلك لكرمه على الله. وما درى أن المال يعطى للانسان ابتلاء ليظهر شكره أو كفرانه كما أن الفقر يبتلى به المرء فيظهر صبره أم جزعه كما سيأتي بيانه ،والانسان حينما يبطر النعمة ويفتخر بالمال ويمنع الحق الذى أوجب عليه صاحب المال الذى تفضل عليه فخوله إياه ليصرفه في طاعة الله بأداء حقوق الفقراء والمساكين حينما يكفر بذلك تأتي العاقبة جريا على سنن الله في مثل هذا الصنف من الناس بالحرمان بمحق

---

(١) سورة القصص آية ٧٦ الى ٧٨.

(٢) سورة الزمر آية ٤٩.

ما يتمتعون فيه من النعم ،وذلك ظاهر فيما ذكره العليم الخبير في كتابه الحكيم عن أصحاب الجنة الذين منعوا ما كان يعطيه سلفهم من ثمار هذه الجنة للفقراء والمساكين بحيث عقدوا العزم مقسمين على قطع ثمار تلك الجنة خفية عن أعين المحتاجين ليضيقوا عليهم بحرمانهم مما كانوا ينتفعون به من الجنة وهم على نيتهم هذه - فسلط الله على جنتهم ما أهلكها وذهب بثمارها عقابا لهم بقوله تعالى * إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين (١) ولا يستثنون فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم (٢) فتنادوا مصبحين أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين فانطلقوا وهم يتخافتون أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين وغدوا على حرد (٣) قادرين فلما رأوها قالوا إنا لضالون بل نحن محرومون قال أوسطهم ألم أقل لولا تسبحون قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين * (٤).

وفيما أخبر به الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم مما أخرجه البخارى (٥) من حديث أبي هريرة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) معناه يجتنونها ويتناولونها . انظر المفردات ص ٢٨٠ مادة صرم.

(٢) فعيل بمعنى مفعول كما قال ابن مالك :

وناب نقلا عنه ذو فعيل   نحو فتاة أو فتى كحيل

والمراد أن جنتهم أصبحت تشبه البستان الذى قطعت ثماره.

(٣) أى على منع أو على قصد . انظر الكشاف عند تفسيره للآية ج٤/١٢٩ نشر دار المعرفة بيروت .

(٤) سورة ن آية : ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ .

(٥) صحيح البخارى بشرح فتح البارى ، كتاب الانبياء ، باب ما ذكر عن بنى إسرائيل ج٦/ص ٥٠١ نشر دار المعرفة بيروت .

يقول : إن ثلاثة في بني اسرائيل أبرص وأقرع وأعمى بدا [١] لله عز وجل أن يبتليهم فبعث إليهم ملكا ، فأتى الأبرص فقال : أى شيء أحب اليك ؟ قال : لون حسن وجلد حسن قد قذرني الناس . قال فمسحه فذهب عنه فأعطى لونا حسنا وجلدا حسنا . فقال : أى المال أحب اليك ؟ قال : الابل - أو قال البقر ، هو شك في ذلك ان الأبرص والأقرع قال أحدهما الابل وقال الآخر البقر - فأعطى ناقة عشراء [٢] فقال : يبارك لك فيها .

وأتى الأقرع فقال : أى شيء أحب اليك ؟ قال : شعر حسن ويذهب هذا عني قد قذرني الناس ، قال : فمسحه فذهب وأعطي شعرا حسنا . قال : فأى المال أحب اليك ؟ قال : البقر . قال : فأعطاه بقرة حاملا ، وقال : يبارك لك فيها .

وأتى الأعمى فقال : أى شيء أحب اليك ؟ قال : يرد الله إليّ بصرى فأبصر به الناس ، قال : فمسحه فرد الله إليه بصره ، قال : فأي المال أحب اليك ؟ قال : الغنم ، فأعطاه شاة والدا فأنتج هذان وولد [٣] هذا فكان لهذا واد من الابل ، ولهذا واد من بقر ولهذا واد من الغنم .

---

(١) أى قضى الله أن يبتليهم . انظر فتح البارى جـ٦/ص ٥٠٢ .

(٢) بضم العين المهملة وفتح الشين المعجمة مع المد هى الحامل . الفتح نفس الرقم للجزء والصفحة السابقين أى ص ٥٠٢ وكتاب النهاية لابن الأثير جـ٣/ ٢٤٠ .

(٣) بتشديد اللام المكسورة والشاة الوالد هي التي لها أولاد كما يقال شاة حامل . انظر فتح البارى جـ٦ / ٥٠٢ .

ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته فقال : رجل مسكين تقطعت به الحبال في سفره فلا بلاغ اليوم الا بالله ثم بك - أسألك بالذى أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال - بعيرا أتبلغ به في سفرى. فقال له : إن الحقوق كثيرة . فقال له : كأني أعرفك . ألم تكن أبرص يقذرك الناس فقيرا فأعطاك الله ؟ فقال : لقد ورثت لكابر عن كابر ، فقال : إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت .

وأتى الأقرع في صورته وهيئته فقال له مثل ما قال لهذا ،فرد عليه هذا، مثل ما رد عليه هذا فقال : إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت.

وأتى الأعمى في صورته فقال : رجل مسكين وابن السبيل وتقطعت به الحبال في سفره فلا بلاغ اليوم إلا بالله ثم بك أسألك بالذى رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها في سفرى. فقال : قد كنت أعمى فرد الله علي بصرى وفقيرا فقد أغناني فخذ ماشئت فوالله لا أجهدك (١) اليوم بشيء أخذته لله ،فقال : أمسك مالك فانما ابتليتم فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبيك ".

وكقوم سبأ الذين من الله عليهم بنعم وافرة في بلادهم فاتسعت أرزاقهم وزروعهم وثمارهم حتى كانوا في عيش رغيد وأماكن آمنة. وقرى متواصلة متقاربة مع كثرة أشجارها وثمارها فكان المسافر لا يحتاج الى حمل زاد وماء فحيثما حل ونزل وجد الماء والثمار . فبطروا هذه النعمة

---

(١) أى لا أشق عليك في رد شيء تطلبه مني أو تأخذه ا. هـ فتح البارى جـ٦/٥٠٢.

وكفروا بمن أسداها إليهم ، وبالتالي آثروا الذى هو أدنى على الذى هو خير كما فعل بنو إسرائيل حينما طلبوا البصل والعدس وغيرهما من الأطعمة التي هي أقل لذة من المن والسلوى . فكذلك قوم سبأ طلبوا من الله أن يباعد بين قراهم ويفصل بين عمرانهم ، فعجل الله لهم الاجابة بتخريب تلك القرى وتعرضهم للسخط والعذاب وجعلهم أحدوثة للناس يتعجبون من أحوالهم ويعتبرون بعاقبتهم ومثالهم وذلك ما أخبر به سبحانه في قوله ﴿ لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأياما آمنين . فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ (١)

فحينما بطروا النعمة فقدوها وحرموا من التمتع بها ، شأنهم شأن أى جحود كنود . وفي ذلك أيضا دلالة واضحة وآيات عظيمة لمن كان كثير الصبر عن الشهوات ودواعي الهوى ، وعلى مشاق الطاعات صبور في الملمات شكور على النعم .

---

(١) سورة سبأ آية ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ .

وهكذا نرى من خلال تلك النماذج أن كفران النعم وغمط الفضل لصاحبه الذى أسدى تلك النعم بأن يتعمد الانسان نكرانها ويدعى ظلما وبهتانا أن تحصيل المال من عنده فقط وبناء على مقدراته وخبرته وفطنته ويجحد المصدر الذى من عليه بذلك . وبالتالي يبخل بما أوجب صاحب النعمة عليه من حقوق للأقارب والضعفاء والفقراء والمساكين وغير ذلك من أوجه البر والاحسان فيقسو قلبه ولا يترفق بالضعفاء فيكرمهم بما يصلون به إلى حاجاتهم . نرى ذلك كله سببا في الحرمان من التمتع بالنعم .

وفي الجانب الآخر نرى المثل الأعلى والقدوة المثلى في الاعتراف بالحق لأهله يظهر في الرجل الأعمى الذى تقدم بيان موقفه ،ويظهر فيما قام به الصديق رضي الله عنه حينما دعى للانفاق والتصدق ضمن جمع من الصحابة ،وذلك فيما أخرجه الحاكم في مستدركه من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول :أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما أن نتصدق فوافق ذلك مالا عندى فقلت : اليوم أسبق أبا بكر ،إن سبقته يوما فجئت بنصف مالي ،فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أبقيت لأهلك ؟ فقلت : مثله. وأتى أبو بكر بكل ما عنده ، فقال : يا أبا بكر ،ما أبقيت لأهلك ؟ فقال : أبقيت لهم الله ورسوله . قلت : لا أسابقك الى شيء أبدا ". (١)

---

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه وقال على شرط مسلم وأقره الذهبي ، كتاب الزكاة جـ١ / ٤١٤ .

هذا ما ظهر لي من حيث الابتلاء بالمال وجودا ، وأما الابتلاء به من حيث العدم فينتج عنه أمران إما الصبر ، وذلك باظهار الرضا بالاعتماد على الله من خلال الايمان بأن البسط والقبض هو لله وحده يعطي من يشاء ويحرم من يشاء . وبالتالي يتمنى الشيء الحسن بحيث لو كان له لامتثل فيه أمر الله يصرفه فيما يرضى الله ، وبهذه النظرة عندما يفقد الانسان المال يكون قد سلك طريق النجاة.

وإما الجزع وذلك بأن يتورط المبتلى بفقد المال فيما لا يليق بأهل الدين والمروءة ، ولا يبالى بسبب فاقته وحاجته على أى حرام وثب ولا في أى حالة تورط ويمد عينيه الى أصحاب المال الذين نزل بهم الى أخس الدركات فيتمنى مثل ما لهم من الأموال وما فعلوه فيها من انحرافات عن الأوامر ووقوع في المنهيات . فهذا الصنف بنظرته تلك أخطأ مواطن الفلاح ووقع في بوءرة الخسران ، تلكم معان قررتها انطلاقا من قوله تعالى ﴿ لتبلون في أموالكم ﴾(١) وقوله تعالى ﴿ ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ﴾(٢) وقوله تعالى ﴿ فأما الانسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن . وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن كلا ﴾(٣) .

---

(١) سورة آل عمران آية ١٨٦ .

(٢) سورة البقرة آية ١٥٥ .

(٣) سورة الفجر آية ١٥ ، ١٦ ، ١٧ .

وقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الشريف الذى بين فيه منازل المبتلين بوجود المال أو بفقده وذلك أن نوعا من المبتلين أعطى مالا فصرفه حيث أمره الله وهو بذلك بلغ منزلة عالية في النجاح . ونوعا أعطى مالا وصرفه حيث نهاه الله ومنع حقوقه . وهو بذلك نزل إلى أخس المنازل . ونوعا ليس له مال بل ابتلى بالفقر لكن تمنى أن لو كان له مال لفعل فيه ما فعل الرجل الصالح فله منزلته بمثل أجره ولو لم يفعل .

ونوعا رابعا مبتلى بالفقر لكن تمنى أن لو كان له مال لفعل فيه مثل ما فعل صاحب المنزلة السفلى . يقول صلى الله عليه وسلم " وأحدثكم حديثا فاحفظوه فقال : إنما الدنيا لأربعة نفر : عبد رزقه الله مالا وعلما فهو يتقي ربه ويصل رحمه ويعلم لله فيه حقا ، فهذا بأفضل المنازل ، وعبد رزقه علما ولم يرزقه مالا فهو صادق النية يقول لو أن لي مالا لعملت فيه بعمل فلان فهو بنيته فأجرهما سواء ، وعبد رزقه الله مالا ولم يرزقه علما يخبط في ماله بغير علم لا يتقي فيه ربه ولا يصل فيه رحمه ولا يعلم لله فيه حقا فهو بأخبث المنازل . وعبد لم يرزقه الله مالا ولا علما فهو يقول : لو أن لي مالا لعملت فيه بعمل فلان فهو بنيته فوزرهما سواء "(١)

هذا واذا كان القول قد بلغ بنا الى بيان كيفية الابتلاء بالمال وجودا وعدما ، فقد يتبادر الى ذهن الانسان سؤال فلماذا لم يكن الناس متساويين

---

(١) أخرجه الترمذى في سننه من حديث أبي كبشة الأنمارى وقال حسن صحيح . انظر شرح المباركفورى للسنن جـ٦/ ٦١٦-٦١٧ .

في هذا الباب ولماذا يعطى الكافر أو العاصي وتيسر لهما سبل الجمع وقد يحرم المؤمن من ذلك وهو الذى أحسن الخلافة في الأرض وأحسن التصرف فيما لديه ولو كان يسيرا ؟

للاجابة على ذلك أقول : اقتضت حكمة البارى عز وجل أن تكون الحياة في دار الابتلاء مبنية على الاختلاف والتفاضل في العيش والرزق والقوة والضعف وذلك أنه من المشاهد والمحسوس أن الناس متفاوتون في كثير من القضايا ومنها تفاوتهم في الكسب من حيث الغناء أو الفقر . ذلك أن الاختلاف والتباين سبب للائتلاف والتوافق بين الناس فيما يسعدهم اذ أن ظاهرة الاختلاف سبب في اتمام قضاء الحوائج والمصالح بين الناس حتى ينال كل واحد من الأجر والمنفعة ما يحتاجه من أساسيات الحياة وذلك ليتعايش الناس ويترافدوا فيصل الجميع الى قضاء مصالحهم التي تقوم عليها الحياة فلو تساوى الناس جميعا لضاعت مصالهم ولسد باب الاستعانة فيما بينهم ،والانسان في حاجة إلى غيره ليكمل مايحتاجه من متطلبات استمرار حياته وبقائه والله خلقه كذلك. ولئلا يستمر في الطغيان أيضا بالمال والبغى بالقوة ،لأن الانسان ديدنه الطغيان اذا استغنى كما أخبر العليم الخبير ﴿ كلا إن الانسان ليطغى أن رءاه استغنى ﴾(١) ومعنى ذلك أن التباين والاختلاف طريق للائتلاف بحيث يعين الناس بعضهم بعضا فيما يحتاجون إليه. والا فبالنظر لما

---

(١) سورة العلق آية ٦ ، ٧ .

ينتظر الكافر من عذاب مقيم أليم ولما يناله من تمتع من زخارف الدنيا الفانية التي من حقارتها أنها لا تزن جناح بعوضة عند الله كما أخبر الصادق المصدوق " لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافرا شربة ماء." (١)

حالهم تلك بالنسبة لما ينتظر المؤمن من نعيم سرمدي ومن كل ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين لا تساوى شيئا يذكر ، يؤيد هذا ما أخرجه مسلم (٢) بسنده من حديث أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة فيصبغ (٣) في النار صبغة ثم يقال يا ابن آدم هل رأيت خيرا قط ؟ هل مر بك نعيم قط ؟ فيقول : لا . والله يا رب . ويؤتى بأشد الناس بؤسا في الدنيا من أهل الجنة فيصبغ صبغة في الجنة فيقال له : يا ابن آدم هل رأيت بؤسا قط ؟ هل مر بك شدة قط ؟ فيقول : لا والله يا رب ما مر بي بؤس قط ولا رأيت شدة قط " ، وما جاء في قوله عز من قائل ﴿ نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون ، ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون وزخرفا وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين ﴾ (٤) ، والآية الكريمة بصدد بيان حقارة الدنيا وهوانها

---

(١) أخرجه الترمذى بسنده من حديث سهل بن سعد قال : صحيح غريب من هذا الوجه . السنن بشرحها تحفة الأحوذى ، الزهد ج٦ / ٦١١ باب ما جاء في هوان الدنيا على الله

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى ، صفات القيامة ج١٧ / ص١٤٩ . باب صبغ أنعم أهل الدنيا في النار

(٣) أى يغمس كما يغمس الثوب في الصبغ . كتاب النهاية ج٣ / ١٠ مادة صبغ.

(٤) سورة الزخرف آية ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ .

على الله ولذلك لو جعلها الله خاصة بالكفار من حيث التمتع بها ما استفادوا منها شيئا لفنائها وزوالها ،ولكن لما علم الله أن الناس يفتتنون بها ويميلون للتمتع بزخارفها سخرها لهم جميعا والا لسلك الناس كلهم سبيل الكفر يضاف لذلك أن ما ينتظر الكفار من عذاب سحيق لا يقاس بتمتع الدنيا لا من قريب ولا من بعيد ثم إن عملية الابتلاء تقتضي أن تكون الحركة مبنية على التواصل بين الناس والاختلاف هذا فقير وهذا غني ،وبذلك يظهر من يشكر حينما تكون حاله منعمة ومن يصبر حينما يضطر لشيء لا يستطيع الوصول اليه. فاختلاف الأحوال اختبار للناس بعضهم ببعض الأغنياء مبتلون بالفقراء من حيث ازدراؤهم وذلك لمّا يرى الأغنياء أن لهم المنزلة عليهم من حيث إنهم أغنياء فيمنعونهم حقوقهم التي لهم عليهم أو من حيث نظرتهم الى الفقير بالمساواة ،بمعنى أنه لا فضل لانسان على إنسان الا بالعمل الصالح . والفقراء أيضا مبتلون بالأغنياء من حيث الصبر هل يصبر الفقير على حاله ويحتسب بروءيته فيرى أن العطاء من عند الله وحده وأن له وحده المشيئة في البسط والقبض أو يحسدون الأغنياء على ما أتاهم الله من فضله . يقول عز وجل ﴿ وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين ﴾.(١)

ويقول عز من قائل ﴿ وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم ﴾.(٢)

---

(١) سورة الأنعام آية ٥٣.

(٢) سورة الأنعام آية ١٦٥.

فاختلاف الأحوال من خلال النظرة السابقة يعد حكمة بالغة ، فقد قدر ذلك لقضاء مصالح الناس كل بحسب حاله وحاجته ،وانطلاقا من ذلك المعنى قد يعطى الله المال للعاصي والكافر فيمدهم بجميع أصناف الحياة وبما يشتهون من الملذات ،وذلك أن الانسان حينما لا يهتدى الى الحق تكبرا وعنادا قد يمده الله بالمال استدراجا ومكرا به كما جاء في قوله عز وجل ﴿ أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون ﴾[١] وقوله جل وعلا ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون ﴾[٢]

يوضح هذا المعنى ما أخرجه أحمد في مسنده[٣] حيث قال حدثنا عبدالله ثنا أبي ثنا يحيى بن غيلان حدثنا رشدين بن سعد عن حرملة ابن عمران التجيبي عن عقبة بن مسلم عن عقبة بن عامر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه مايحب فانما هو استدراج ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به - الى - مبلسون ﴾ .

---

(١) سورة المؤمنون آية ٥٥ ، ٥٦ .

(٢) سورة الأنعام آية ٤٤ .

(٣) كتاب المسند ج٤ /ص ١٤٥ نشر دار صادر بيروت رواته مذكورون في الثقات الا رشيد بن ضعفه في التقريب والحديث ذكره السيوطي في الجامع الصغير وحسنه ولم يعلق عليه المناوى بشيء. راجع الجامع الصغير بشرحه فيض القدير ج١/ ٣٥٤ .

فهذا دليل على أن الله يستدرج هذا الصنف بتواتر النعم الدنيوية عليهم فيظهر لهم الاحسان في الدنيا ما يغيب عنهم و يستر عنهم من عذاب الآخرة فيظنون أنه راض عنهم وهو تعالى قد حتم عليهم العذاب و قرب منهم الخذلان أنه سبحانه قد لا يعطى الكافر ولا العاصى وذلك لمصلحة التذكير والتفكير في طريق الحق علهم يرجعون الى حظيرة الصلاح مثل ما جاء في قوله عز وجل ﴿ وبلوناهم بالحسنات والسيآت لعلهم يرجعون ﴾ .(١) وفي قوله تعالى في شأن المنافقين ﴿ أولا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون ﴾ .(٢) فالآية الكريمة تنكر على المنافقين عدم رجوعهم عن غيهم و عدم اتعاظهم بما يتقلبون فيه من اختبارات تجعل العاقل يقف عند حصولها مفكرا مما سيؤدى به إلى الايمان بالله المالك للموجودات كلها . ولذلك فله أن يقسم النعمة والبلاء كما يشاء بحكمته لا كما يشاء سواه بهواه . وهذا المعنى أيضا يجعل العاقل يكف عما هو فيه من ضلال وغواية.(٣) وقد يعطى الصالحين حتى يتمكنوا من الاستمرار في العمل الصالح و نشره بين العالمين وقد لا يستطيعون ذلك لو لم يبسط عليهم في الرزق وبالتالي لما حصلوا على درجة الشاكرين ليستحقوا بها الثواب . وقد قال صلى الله عليه وسلم " نعم المال الصالح للرجل الصالح " (٤) . وقد

---

(١) سورة الأعراف آية ١٦٨ .
(٢) سورة التوبة آية ١٢٦ .
(٣) راجع تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ٢/ ٤٠٣ نشر مكتبة التراث القاهرة .
(٤) أخرجه الحاكم في مستدركه من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه وقال صحيح على شرط مسلم وأقره الذهبي جـ٢/ص ٢ كتاب البيوع .

لا يعطى الصالح فيحرمه منه وذلك ليظهر صبره ومدى ثقته بربه ورضاه بحكمه فيه فيصل أيضا بذلك الى ثواب عظيم ،وخلاصة القول إن اختلاف مراتب الناس في المال من حيث البسط أو الضيق لم يكن مبنيا من أجل أن هذا يعطى المال اكراما له ،وذاك يمنع إهانة له بل الأمر في الحالين للابتلاء ،وهذا يعطينا أن ظاهرة الفقر والغنى لا تعطى الانسان قيمة أو تخفضه منزلة وإنما القيمة للعمل الصالح وبالذى قد تم تقريره وتوضيحه في كيفية الابتلاء بالمال أكون قد وضحت معنى الفتنة بالمال في قوله تعالى ﴿ انما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم ﴾(١) وقوله تعالى ﴿ يأيها الذين ءامنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون ،واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم ﴾(٢) ويبقى توضيح الجانب الثاني في الآيتين الكريمتين من حيث الابتلاء بالولد .

مبحث الابتلاء بالولد :

لا شك أن الولد جعله الله زينة في الحياة الدنيا كالمال وذلك لكي تستمر الخلافة في الأرض إلى أن يشاء الله وليكون الانسان قد أدى واجب الخلافة كما يجب أن يؤدى فلا بد من اعداده ،فيجب على الآباء تربية الأولاد تربية تجعلهم يتحملون الخلافة على حال تسعد

----

(١) سورة التغابن آية ١٥.

(٢) سورة الأنفال ٢٧/٢٨.

البشرية سواء كان اعداد الأولاد ماديا أو روحيا وهذا يجعل الابتلاء بالأولاد من أثقل ما تحمله الانسان من أمانة وذلك يظهر في ثلاثة جوانب :

١ - جانب الرغبة في إسعاد الأب ولده ماديا إذ من المسلم به أن حب الأولاد في قلوب الآباء فطرى . ومن هنا يحرصون على أن يكون أولادهم في عيش رغد يبذلون قصارى جهدهم وكل ما في مقدورهم من كسب وعطاء ومساعدة بالأموال والوقت لتحصيل ما يكون سببا في إسعادهم .وقد يكون حبهم مؤديا الى اقتراف المعاصي وتضييع الفرائض فربما باشر الوالد الحرام لأجل ولده كغصب مال الغير فيطعم ولده الحرام فيؤدى به الى سبيل العصيان والكفران أو البخل بما فرض الله عليه من مال في سبيل ابقاء الثروة للولد فلا يخرج ما أوجب الله عليه من زكاة في ماله وغيرها من حقوق ثابتة . وحينئذ بهذه النظرة يكون الولد عدوا من حيث افراط الوالد في حبه كما جاء في القول الكريم ﴿ يأيها الذين ءامنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم ﴾ (١) يقول مجاهد في معنى هذه الآية (٢) يحمل الرجل على قطيعة الرحم أو معصية ربه فلا يستطيع مع حبه إلا أن يطيعه (٣) . وجاء عن ابن عباس فيما أخرجه الترمذى

---

(١) سورة التغابن آية ١٤ .

(٢) ا.ه ابن كثير جـ٤/ ٣٧٦ نشر دار التراث القاهرة .

(٣) سنن الترمذى بشرحها تحفة الأحوذى جـ٩/ ٢٢٣ كتاب التفسير .

وقال حسن صحيح لما سأله رجل عند هذه الآية قال : فهوءلاء رجال أسلموا من مكة ،فأرادوا أن يأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم فلما أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم رأوا الناس قد فقهوا في الدين فهموا أن يعاقبوهم فأنزل الله هذه الآية ﴿ وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فان الله غفور رحيم ﴾ (١) وذلك أن الانسان قد يضعف عن أداء الواجب بسبب حب الولد لما في نفس الأب من عمق في العطف عليه إلى درجة إيثار ولده على نفسه ولذلك جاء التنبيه الكريم تحذيرا للانسان من الوقوع في موطن الخسران يقول سبحانه ﴿ يأيها الذين ءامنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ﴾ (٢) ويدخل في هذا الجانب ابتلاء الانسان أيضا بالمفاضلة بين أولاده بناء على حبه لأحدهما أكثر من الآخر فيخصه بالهبات والعطايا . ويحرم الاخرين وذلك ما حذر منه المصطفى صلى الله عليه وسلم فيما رواه النعمان بن بشير أنه قال: نحلني (٣) أبي نحلا فقالت أمي - عمرة بنت رواحة - لا أرضى حتى تشهد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءه ليشهده على صدقتي فقال : أكل ولدك نحلت مثله ؟ قال : لا . قال : اتقوا الله واعدلوا في أولادكم - وقال - : إني لا اشهد على جور . قال : فرجع أبي فرد تلك

----

(١) سورة التغابن آية ١٤.
(٢) سورة المنافقون آية ٩.
(٣) يقال : نحله ينحله نحلا بالضم أى أعطاه . النهاية لابن الأثير جـ٥/٢٩ : نحل.

الصدقة.(١)

٢ - جانب إسعاد الولد روحيا. وفيه يبتلى الانسان بأنه يجب عليه أخذ ولده بالعقائد والآداب الاسلامية حتى يستأنس بها وينشأ عليها ليسهل عليه تقبلها عندما يشب ويكبر.

وهذا يحصل ابتداء ببذل الجهد في تلقينه ما يستطيع حفظه من القرآن الكريم حتى إذا عقل بالغ الأب جهده في تعليمه الضروري من علوم الدين وترويضه على العبادات كالصلاة التي ورد بخصوصها الحض عليها في قوله صلى الله عليه وسلم فيما أخرجه الحاكم من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده : " مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين ،واضربوهم عليها وهم ابناء عشر سنين ،وفرقوا بينهم في المضاجع "(٢) وفيما رواه الترمذي من حديث سبرة(٣) قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " علموا الصبي الصلاة ابن سبع سنين واضربوه عليها ابن عشر "(٤) وذلك ليتمرن على الصلاة التي هي عماد

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وقال حسن صحيح مع اختلاف في الألفاظ ،انظر صحيح البخاري بشرح فتح الباري جـ٥/٢١١ كتاب الهبات نشر دار المعرفة وصحيح مسلم بشرحه للنووي جـ١١/٦٧ نشر احياء دار التراث العربي ،وسنن الترمذي بشرحها تحفة الأحوذي جـ٤/٦٠٨ . الأحكام.

(٢) أخرجه في مستدركه وسكت عنه والذهبي أيضا سكت عنه الا أن المعروف أن حديث عمرو بن شعيب حسنه العلماء . يقول الذهبي : ولسنا نقول إن حديثه من أعلى أقسام الصحيح بل هو من قبيل الحسن . كتاب ميزان الاعتدال جـ٣/٢٦٨.

(٣) هو بفتح أوله وسكون الموحدة ابن معبد الجهني له صحبة توفي في خلافة معاوية . انظر التقريب جـ١/٢٨٣.

(٤) سنن الترمذي بشرح تحفة الأحوذي وقال حسن صحيح . المواقيت جـ٢/٤٤٥.

الدين كله لكي يبلغ وهو مستمر على العبادة والطاعة وليتربى فيه الجانب الكبير من الاعراض عن المعاصي وترك الموبقات فكم من أبناء تشبعوا بالالحاد فأنكروا وجود الخالق بينما لم يعلموا أو يلقنوا شيئا من الايمان والاسلام فأشربت قلوبهم الالحاد في سن تقبل كل غرس ،ولما أينعت أفكرهم كانت قلوبهم قد ران عليها درن المعاصي والأوزار فيصعب رجوعها الى حظيرة الايمان الذى لا يسعد الانسان الا به. ثم اذا بلغ الولد بعد ذلك وجب على أبيه الحرص على تعليمه معرفة البارى جل وعلا من خلال الأدلة التي نصبت للوصول الى معرفة الله كي يجنبه السقوط في بوءرة الالحاد أو الشرك . فحيذره مبينا له صدق الأنبياء فيما يبلغونه عن الله . ووجوب اعتقاد نسخ رسالة الاسلام التي جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم لجميع الرسالات السابقة فكل من سلك سبيلا غير سبيل الاسلام باء بالخسران والتحسر ، كما قال عز وجل ﴿ ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾(١) وهكذا حينما يجنب الانسان ولده الوقوع فيما يوءدى به الى الخسارة ويسلك به سبيل الهدى والرشاد وبذلك يحفظه ويقيه من النار ،فاذا أمره بترك المعاصي وحضه على فعل الطاعات يكون قد نجح الأب في الابتلاء بالولد حيث ألقى ما عليه من تبعات ثقيلة ومسئوليات تحملها ،وحينما تسبب في وجود الولد أصبح لازما بل واجبا عليه أن يحول بينه وبين الشقاء بتعليمه أبواب

---

(١) سورة آل عمران آية ٨٥.

الخير والآداب ووقايته من الشر والخيبة في العقبى وذلك ما نبه إليه القرآن الكريم ودعا المؤمنين إلى الالتزام به في الآية الكريمة ﴿ يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة ﴾(١) وهو أيضا ما أخبر به المصطفى صلى الله عليه وسلم في الحديث الجامع المتفق عليه من رواية عبدالله بن عمر رضي الله عنهما «ألا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته فالامام الأعظم الذى على الناس راع وهو مسئول عن رعيته والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عن رعيته ،والمرأة راعية على أهل بيت زوجها وولده وهي مسئولة عنهم وعبد الرجل راع على مال سيده وهو مسئول عنه ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته »(٢) الأب اذن ممتحن فيما رزق من ولد برعايتهم ماديا وروحيا كما هو جلي من خلال ما عرضته مبينا مدللا عليه بالقرآن والسنة .

٣ - جانب الابتلاء بفقد الولد سواء بالعقم أو بالموت أو بتنوع الاعطاء بحيث يرزق ولدا أنثى ويحرم من الولد الذكر(٣) وقد كانوا في الجاهلية يدفنون البنات وهن أحياء والذى لم يرتكب هذا الجرم العظيم منهم يتوارى عن القوم ويتركها على قيد الحياة لكن على حالة فيها الاهمال وعدم القيام بحقوقهن كما أخبر سبحانه في قوله :

---

(١) سورة التحريم آية ٦.

(٢) أخرجه البخارى في صحيحه كتاب الاحكام باب قول الله ﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ﴾ فتح البارى ج١٣/ص١١١ دار المعرفة بيروت.

(٣) وقد حدثني من أثق به أن أستاذا في الشريعة أخذه البكاء حزنا لما بشر بميلاد بنت منه.

﴿ واذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون ﴾ (١) فالذى يجب على الانسان العاقل هو التسليم في هذه الأحوال والاعتقاد بأن الله الخالق الحكيم هو الذى يقسم النعم وهو الذى يبتلي بالمكروهات ولذلك من وصل لهذه الدرجة من الايمان يرى فقده للولد بالموت أو بالعقم هو بمحض إرادة الله الحكيمة حيث هو المتفرد بالخلق بناء على مشيئته - سبحانه - لا على مشيئة الانسان ولذلك يجب عليه التفويض لله حينما لا يرزق بولد البتة أو يرزق بما لا تهواه نفسه.. فعليه تجنب الكفران والجزع ، لأن الله المتفرد بالخلق والذى له في ذلك الكمال والحكمة ما يفعله هو الصواب والأرفق بالانسان ، والانسان أيضا حينما يدخل في حظيرة الايمان يمتاز عن غيره ممن لم يدخل فيها بحيث لا تمسه النار وذلك لما يصبر عند فقده للولد ويحتسب ذلك لله كما أخبر صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فتمسه النار الا تحلة القسم ". (٢)

---

(١) سورة النحل آية ٥٩.

(٢) أخرجه البخارى في صحيحه بشرح فتح البارى كتاب الايمان باب قول الله تعالى "وأقسموا بالله جهد أيمانهم" جـ١١/٥٤١ نشر دار المعرفة ، وقوله " تحلة " بفتح المثناة من فوق وتشديد اللام تحليلها أى لا تمسه النار الا مسة يسيرة مثل تحلة المقسم الحالف والاشارة بذلك الى قوله تعالى ﴿ وان منكم الا واردها ﴾ انظر النهاية لابن الأثير جـ١/٤٢٩ مادة " حلل ".

ويخطيء الانسان حينما يجزع لما يحرم من نعمة الولد أو يعطى ما لا يريد هو من أولاد ، لأنه لا يرى ما هو الأصلح له. اذ العليم القدير الذى قدر الأشياء وجعل لها موازين هو أيضا الذى يخص بعض الناس بالاناث وبعضهم بالذكور وبعضهم يمن عليه بالولد ذكرانا واناثا ويحرم بعضا آخرين من كليهما فهو العليم القدير وناس آخرون يبتليهم بموت الولد بعد أن رزقهم إياهم ،فلا دخل للطبائع أو الأجناس في الحرمان من ذلك أو الاعطاء بل هو محض مشيئة العليم الخبير كما قال عز وجل ﴿ لله ملك السموت والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما إنه عليم قدير ﴾.(١) والمقصود أن الله جعل أحوال العباد من حيث المن عليهم بالأولاد مختلفة بناء على مقتضى مشيئته سبحانه فيهب لبعض إما صنفا واحدا من ذكر أو أنثى أو الصنفين جميعا ويعقم آخرين . وذلك لعلمه بالأشياء وما فيها من المصالح . إذ قدرته نافذة في تكوين الأشياء كيف شاء وأراد ،ومن هنا قد يخص بعض عباده بالأولاد البنات ابتلاء لهم،يؤيد هذا قوله صلى الله عليه وسلم "من ابتلى من هذه البنات بشيء فأحسن إليهن كن له سترا من النار".(٢) يقول النووى "انما سماه ابتلاء لأن الناس يكرهونهن في العادة".(٣)

---

(١) سورة الشورى آية ٤٩ ،٥٠.

(٢) أخرجه البخارى في صحيحه من حديث عدى ومسلم في صحيحه من حديث عائشة انظر صحيح البخارى بشرحه فتح البارى كتاب الزكاة باب "اتقوا النار ولو بشق تمرة" جـ٣ /٢٨٣ وانظر صحيح مسلم بشرح النووى جـ١٦/١٧٩ باب فضل الاحسان الى البنات.

(٣) كتاب شرح النووى جـ١٦/١٧٩.

الفصل الرابـــع

الابتلاء بالمصائـــــــــــب

توطئـــة :

وبعد ، فقد اتضح لدينا معنى وصفة الابتلاء بالمال والولد والحكمة من ذلك. ولا يخفى أن الابتلاء بهما امتحان بالنعم ، والانســـان لا ينفك عن التغير والتقلب ، فهو مبتلى مرة بالخير ومرة بالشر وذلـك مصداق قوله تعالى ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة والينا ترجعون ﴾ (١) .
فالانسان إذن كما هو مبتلى بالنعم مبتلى أيضا بالمصائب الأمر الذى دعا الى عقد فصل لبيان الابتلاء بها والحكمة منها وبناء على ذلك أقول :

بدءا كما هي العادة التي درجت عليها في هذه الرسالة يلزمنا التعرض لمعنى الكلمة التي ينطلق منها ما يتعلق بعنوان الفصل من معان.
فالمصائب جمع مصيبــة ، والمصيبة شرعا : الأمر المكروه ينزل بالانســـان وهي مأخوذة لغة : من الرمية بالسهم ثم استعملت في كل نازلــــــة.
فالمصيبة الشدة النازلة من النوائب . نجد هذا المفهوم فيما صرح بـــه صاحب المفردات (٢) حيث قال : " والمصيبة أصلها في الرمية ثم اختصت بالنائبة نحو ﴿ أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها ﴾ (٣) ونحـــو ﴿ وما أصابكم يوم التقى الجمعان ﴾ (٤) وقوله ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ﴾ (٥) وأصاب جاء في الخير والشر قال تعالـــى

---

(١) سورة الأنبياء آية ٣٥.

(٢) ص ٢٨٨ مادة : صوب.

(٣) سورة آل عمران آية ١٦٥.

(٤) سورة آل عمران آيـة ١٦٦.

(٥) سورة الشورى آية ٣٠

* إن تصبك حسنة تسوءهم وإن تصبك مصيبة *(١) * ولئن أصابكم فضل من الله *(٢) ، وهذا المعنى في الحالين مأخوذ من الصوب أى المطر ، وذلك في الاصابة بالخير ومن الرمية بالسهم في الاصابة بالشر . انتهى بالمعنى .

ويرادف لفظ المصيبة في المعنى السيئة . وذلك أنه كما يطلق لفظ الحسنة على النعم يطلق لفظ السيئة على المصائب كما جاء في قوله تعالى (٣) * ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك *.

وبصدد بيان هذا الترادف يقول شيخ الاسلام ابن تيمية :" إن المراد هنا بالحسنات والسيئات النعم والمصائب كما في قوله تعالى * وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون *(٤) أى امتحناهم واختبرناهم بالسراء والضراء ".(٥)

إذن معنى المصيبة والسيئة في الشرع هو ما يصيب الانسان من مكروهات وهي لا تخرج عن الاصابة : إما في النفس أو المال ، أو الأقارب .(٦)

---

(١) سورة التوبة آية ٥٠ تكملة الآية * يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون *.

(٢) سورة النساء آية ٧٣ تكملة الآية * ليقولن كأن لم يكن بينكم وبينه مودة يليتني كنت معهم فأفوز فوزا عظيما *.

(٣) سورة النساء آية ٧٩ .

(٤) سورة الأعراف آية ١٦٨ .

(٥) كتاب الفتاوى لابن تيميه جـ٨/ ٢٣٩ الطبعة الأولى وكتاب الحسنة والسيئة له أيضا ص ٢١ ، ٢٢ ، ط/ المدني ، القاهرة .

(٦) انظر التفسير الكبير للرازى جـ٤/ ١٦٦ ، ١٦٧ . وانظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ١ / ١٩٧ . وانظر الفصل لابن حزم جـ٣/ ٢٠٨ ، ط/ دار عكاظ للنشر جدة .

أ - ففي النفس :

١ - يكون ذلك بالتعرض لأنواع الأمراض والأوجاع أو الاصابة بما يتسبب في إزهاق الأرواح :

أ - اما في المواطن التي شرع فيها ذلك كالصبر على الجود بالنفس في سبيل عقيدة الاسلام كما وقع لأصحاب الأخدود فيما قصه علينا القرآن الكريم لتثبيت المؤمنين على ما هم عليه من الايمان وتصبيرهم على أذية الكفار وتذكيرهم بما جرى لمن تقدمهم من التعذيب لأهل الايمان وصبرهم على ذلك حتى يأنسوا بهم ويصبروا على ما كانوا يلقون من قومهم ويعلمون أن قومهم الذين يؤذونهم مثل أولئك في كونهم ملعونين مطرودين ، كما قال عز وجل ﴿ قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود إذ هم عليها قعود وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد الذى له ملك السموت والأرض والله على كل شيء شهيد ﴾ (١) . وقد اختلف المفسرون في تعيين أصحاب الأخدود من هم (٢) ، والحقيقة أن تعيينهم أو الوقوف على الحقيقي من صفة خبرهم ليس فيه كبير فائدة أو زيادة معنى يتعلق بما أنا بصدده من ضرب نماذج للصبر على الأذية في سبيل الله

----

(١) سورة البروج آية ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ .

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير فقد استعرض ما يقال في تعيين أصحاب هذه القصة جـ٤ / ٤٩٣ ، نشر دار التراث القاهرة والتفسير الكبير للرازي، م١٦ / جـ٣١ / ص١١٨ .

وهكذا فأصحاب الأخدود(١) هم قوم مؤمنون صدقوا بما جاءهم من عند الله وأبوا الرجوع عما تيقنوا به من ايمان فعمد إليهم أعداؤهم بالقهر والتسلط فحفروا حفرا وأضرموا فيها النيران العظيمة ذات اللهب المرتفع من كثرة ما أفرطوا في جمعه من حطب سعروا به تلك النار فلما لم يجاروهم على ما أرادوا منهم قذفوهم في تلك الحفرة الملتهبة بالنار وليس لهم ذنب ارتكبوه أو جرم اقترفوه الا أنهم قالوا ربنا الله الذى يملك كل شيء ففتنوهم عن دينهم لكنهم لم يستسلموا أو يضعفوا بل اختاروا لفح النار ولهيبها على نعيم الدنيا وزخارفها ففازوا بالنعيم المقيم في جنة الخلد . وخسر أعداؤهم بايعاد الله لهم بالخلود في النار شأن أي باغ أو طاغ حينما يقف بالمرصاد لأولياء الله فيمنعهم من تبليغ نور رب العالمين لعباده فتحق عليه كلمة العذاب مصداقا لقوله تعالى ﴿ إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق ﴾(٢) وحريق جهنم لا كحريق الدنيا بل هو عذاب مؤبد لا تفقد معه الحياة كما قال تعالى ﴿ والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزى كل كفور ﴾(٣) إضافة الى أن ما يعذبون به بلغ الغاية القصوى في الايلام والضر كما يوحى بذلك صيغة المبالغة فعيل ".

---

(١) الأخدود هو الشق العظيم المستطيل في الأرض كالخندق ، والجمع أخاديد ومنه خد الانسان ،يقال تخدد وجه الرجل اذا صارت فيه أخاديد من جراح كما قال طرفة :
ووجه كأن الشمس حلت رداءها عليه نقي اللون لم يتخدد
المصباح المنير ص ١٩٨ نشر دار الكتاب العلمية ببيروت
وانظر أحكام القرآن للقرطبي ج١٩/ ٢٨٧ نشر دار الكتاب القاهرة.

(٢) سورة البروج آية ١٠ . (٣) سورة فاطر آية ٣٦ .

ب - أو يكون ازهاق الروح الانسانية في سبيل عرض من أعراض الدنيا كما وقع في قصة قابيل مع أخيه هابيل حيث قتل أحدهما الآخر حسدا على ما ناله من مال على قول ،أو على ما تبين أنه أحق به منه بخصوص امرأة كل واحد منهما يريد الزواج منها على قول آخر (١). وعلى كل فقد اتفقا على أن يقدم كل منهما قربانا فمن قبل منه فهو أحق بالشيء المتنازع عليه فتقبل من أحدهما دون الآخر ، فلم يرض الذى لم يقبل منه بما خرجت عليه القرعة فقتل أخاه رغم أن المقتول لم يكن حريصا على قتل من أزهق روحه كما جاء في قوله عز وجل والذى بين فيه عاقبة البغي والحسد ﴿ واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين ﴾(٢).

٢ - أو يحصل ذلك بما يصاب به الانسان من مخاوف عندما تحيط به الشدائد فيظهر أصحاب القلوب الثابتة على المبدإ بالصبر وتحمل المشاق وينكشف الذين يصابون بالجزع والريب في معتقدهم عندما تحل بساحاتهم البلايا كما يظهر ذلك جليا في غزوة تبوك حينما لقي المؤمنون

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ٢/ ٤١ ،نشر مكتبة دار التراث - القاهرة .

(٢) سورة المائدة الآية ٢٧ ،٢٨ ،٢٩ ،٣٠ .

ما لقوه من شدة في الأمر في سنة مجدبة وحر شديد وعسر من الزاد والماء حتى لقد كان الرجلان يشقان التمرة بينهما وحتى كاد بعضهم يرتاب للذى نالهم من المشقة والشدة في سفرهم وغزوهم كما أخبر سبحانه وتعالى ﴿ لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والانصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم ﴾.(١)

كما ازداد أمر المنافقين كشفا ووضوحا بتخلفهم في هذه الغزوة وقد ابتلى فيها أيضا ثلاثة (٢) من المسلمين عندما تخلفوا عنها فأصيبوا بالخوف والضيق والرعب عند محنة الاعتذار بعد رجوع النبي صلى الله عليه وسلم ولكنهم لم يلتمسوا عذرا مقبولا ينجون به أنفسهم من العقاب بالعفو المؤقت بل صدقوا رسول الله واعترفوا بالتقصير وبأنه لا عذر لهم وليس لهم الا عفو الله ورحمته وتوبته عليهم ،فتركهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمر الله يحكم فيهم بما شاء ونهى الناس عن كلامهم أو الاختلاط بهم حتى يفصل الله في شأنهم كما روى عن كعب قوله : " إنه لم يتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة غزاها قط غير غزوتين : غزوة العسرة وغزوة بدر قال : فأجمعت صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحى ،وكان قلما يقدم من سفر سافره إلا ضحى ، وكان يبدأ بالمسجد فيركع ركعتين ،ونهى النبي صلى الله عليه وسلم

---

(١) سورة التوبة آية : ١١٧.

(٢) هم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع ،وهلال بن مرة.

عن كلامي وكلام صاحبي ولم ينه عن كلام أحد من المتخلفين غيرنا فاجتنب الناس كلامنا فلبثت كذلك حتى طال على الأمر ومامن شيء أهم الي من أن أموت فلا يصلي علي النبي صلى الله عليه وسلم أو يموت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكون من الناس بتلك المنزلة فلا يكلمني أحد ولا يصلي علي فأنزل الله توبتنا على نبيه صلى الله عليه وسلم حين بقي الثلث الأخير من الليل ورسول الله عند أم سلمة ،وكانت أم سلمة محسنة في شأني ومعينة في أمري فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم تيب على كعب قالت أفلا أرسل اليه فأبشره ؟ قال إذاً يحطمكم الناس فيمنعونكم النوم سائر الليلة . حتى اذا صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الفجر أذن بتوبة الله علينا"[1] امتحن هوءلاء الثلاثة بالثبات على الصدق في القول فأقروا بأنهم لم يكن لهم عذر حينما تخلفوا بل كانوا في يسر وقوة فتاب الله عليهم كما في قوله تعالى ﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بمارحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم ".[2]

٣ - أو يكون ذلك بالازدراء بالانسان كالكذب عليه فيما تتأذى به النفس من مخاوف وشدائد من الفعل أو القول :

١ - كما وقع لموسى مع بني اسرائيل حينما أعابوا عليه التستر فكان لا يغتسل إلا مختفيا عن الأبصار . فقالوا : ما يفعل هذا الا لعيب

---

(١) انظر صحيح البخارى بشرحه فتح البارى كتاب التفسير جـ٨/ ٣٤٢ ، ٣٤٣ .

(٢) سورة التوبة آية ١١٨ .

في جسده من برص أو أدرة كما جاء في صحيح البخارى من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن موسى كان رجلا حييا ستيرا لا يرى من جلده شيء استحياء منه فآذاه من آذاه من بني اسرائيل فقالوا : ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده إما برص وإما أدرة (١) وإما آفة وأن الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى فخلا يوما وحده فوضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل فلما فرغ أقبل الى ثيابه ليأخذها وإن الحجر عدا بثوبه فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول : ثوبي حجر ثوبي حجر حتى انتهى الى ملأ من بني اسرائيل فرأوه عريانا أحسن ما خلق الله عز وجل وأبرأه مما يقولون وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه وطفق بالحجر ضربا بعصاه فوالله إن بالحجر لندبا (٢) من أثر ضربه ثلاثا او أربعا أو خمسا فذلك قوله تعالى ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها ﴾ (٣)

والآية نزلت بسبب ما قيل في حق رسول الله صلى الله عليه وسلم مما قد يتأذى به مما فاه به المنافقون بخصوص ما أحل الله له من تزويج زينب بنت جحش التي طلقها زيد دعى النبي صلى الله عليه وسلم وذلك أن زيدا جاء يشتكي منها حيث كانت تفخر على زيد بشرفها ويسمع منها مايكره فجاء رضي الله تعالى عنه يوما الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال :

---

(١) الادرة بضم الهمزة وسكون الدال نفخة في الخصية . انظر كتاب النهاية لابن الأثير جـ١/ ٣١.

(٢) الندب بفتح النون والدال أثر الجرح فشبه به أثر الضرب في الحجر. كتاب النهاية لابن الأثير جـ٥/ ٣٤.

(٣) سورة الأحزاب آية : ٦٩.

يا رسول الله إن زينب قد اشتد علي لسانها وأنا أريد أن أطلقها ،فقال له النبي صلى الله عليه وسلم " أمسك عليك زوجك " وقد سبق أن أوحي الى النبي صلى الله عليه وسلم بزواجه منها (١) وذلك ما جاء في قوله عز وجل ﴿ وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا (٢) ﴾ والقصة وإن كان الابتلاء فيها واضحا حيث ابتلى فيها النبي صلى الله عليه وسلم بزواجه حليلة متبنيه سابقا كما ابتلى فيها زيد بطلاقه لزينب فالأمر المستفاد أولا : هو نسخ تحريم زوجة المتبني ولذلك أوحى الله الى النبي صلى الله عليه وسلم أن يتزوج زينب اذا طلقها زيد لكن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يبادر لذلك مخافة الطعن من الأعداء فعوتب . غير أنه يبقى هناك تساؤل مفاده كيف أن الرسول يعلم أنه سيتزوج زينب وأن زيدا سيفارقها ومع ذلك يأمر زيدا بامساكها ؟ يقول ابن العربي (٣) في هذا الصدد ما ملخص معناه وقع ذلك لاقامة الحجة ولمعرفة العاقبة بدليل أن الله قد يأمر العبد بالايمان وهو يعلم أنه لا يؤمن فليس في مخالفة متعلق المعلوم العلم ما يمنع من الأمر به عقلا وحكما .

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي جـ٣/ ١٥٣١ الطبعة الأولى الحلبية .

(٢) سورة الأحزاب آية ٣٧ .

(٣) أحكام القرآن جـ٣/ ١٥٣٢ الطبعة الأولى الحلبية .

٢ - وكما وقع لمريم البتول التي أذاها قومها باتهامهم لها بالبغاء حينما جاءت بنبي الله عيسى وكليمه بدون أب وهي التي شهد الله لها بالتحصين في قوله ﴿ ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين ﴾ (١) وهي التي أيضا تقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا فنشأت في بني اسرائيل نشأة عظيمة فكانت عابدة ناسكة منقطعة لعبادة ربها وهي التي تساءلت اذ بشرها الملائكة بعيسى ابنها أنى يكون لها غلام ولم يمسسها بشر ولم تكن بغيا فتعجبت من وقوع هذا وعلى أى صفة يوجد منها غلام ولا زوج لها وليست من اللواتي يتصور منهن الفجور وهي التي تعوذت بالله من ارتكاب الفجور عندما بدا لها جبريل في صورة بشر أثناء خلوتها. كما أخبر عز وجل في قوله ﴿ واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا قالت أني أعوذ بالرحمان منك إن كنت تقيا ،قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا ،قال كذلك قال ربك هو علي هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا ﴾ (٢)

خلق الله عيسى بدون أب وخلق آدم بدون أب ولا أم وخلق حواء من ذكر بدون أم وخلق باقي الأناسي من أم وأب ذلك للدلالة

----

(١) سورة التحريم آية ١٢.

(٢) سورة مريم آية ١٦ ،١٧ ،١٨ ،١٩ ،٢٠ ،٢١.

على قدرة الله المطلقة ومشيئته الحرة وأنه يفعل ما يختار فله السلطان الكامل والقوة العظيمة ،والارادة المهيمنة ،ففي هذه الخارقة :

١ - ابتليت مريم فصدقت وتحملت أذى قومها بما نسبوه لها من الاتيان بولد بدون أب فالتزمت الصمت وتذرعت بالصبر كما أمرها ربها لتجعل القوم أمام قدرة القدير وتضطرهم للاعتراف بأنها طاهرة نقية فبرأها الله على لسان طفلها المولود وهو صبي في المهد لا يتكلم مثله في العادة كما قال عز وجل * فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا قال إني عبدالله ،اتاني الكتاب وجعلني نبيا وجعلني مباركا أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا وبرا بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقيا والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا *.(١)

٢ - وابتلى النصارى الذين ضلوا في حقيقة عيسى ابن مريم فجعلوه ولدا لله،تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا بل ذهبوا الى أبعد من ذلك في الغلو حيث جعلوه هو الله مرة ثم اضطربوا فجعلوه ثالث ثلاثة فلم يلتفتوا أو ينظر الى قدرة الله المتكاملة فلا يعجزه شيء ومن ذلك خلقه عيسى ابن مريم بدون أب كما أخبر سبحانه * ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذى يمترون ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمرا فإنما يقول كن فيكون وأن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم *.(٢)

---

(١) سورة مريم آية ٢٧ ،٢٨ ،٢٩ ،٣٠ ،٣١ ،٣٢ ،٣٣.

(٢) سورة مريم آية ٣٤ ،٣٥ ،٣٦.

وكما وقع لأم المؤمنين في قصة الافك التي افترى فيها المنافقون على عائشة رضي الله عنها وهي الحصان الرزان كما قال حسان بن ثابت :

حصان رزان ما تزن بريبة ... وتصبح غرثى من لحوم الغوافل (١)

حليلة خير الناس دينا ومنصبا ... نبي الهدى ذى المكرمات الفواضل

عقيلة حي من لؤى بن غالب ... كرام المساعى مجدهم غير زائل

مهذبة قد طيب الله خيمها (٢) ... وطهرها من كل سوء وباطل

وملخص ذلك أن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها كانت القرعة من نصيبها في مصاحبة النبي صلى الله عليه وسلم حينما قصد غزوة بني المصطلق إذ جرت العادة أن يقرع بين نسائه لمصاحبة احداهن له أثناء سفره للغزو وحدث أن ذهبت أم المؤمنين وهي في معسكر الغزو للبحث عن عقد سقط منها عند خروجها للخلاء وهي في هذه الحال ارتحل الجيش من مقر اقامته فاصطحب القوم معهم هودج أم المؤمنين ولم يدروا خلو الهودج منها لأنها كانت خفيفة الجسم وحديثة السن ،فلما رجعت من مهمة البحث عن العقد إذا بها تفاجأ برحيل القوم فاستقرت في منزلها الذى كانت فيه . وكان الصحابي الجليل صفوان بن المعطل تأخر من وراء القوم للنظر في محلة الجيش لكيلا يبقون وراءهم متاعا من الأمتعة التي يحملونها معهم ،فلما راقب صفوان رضي الله عنه الأماكن

---

(١) معناه أنها رضي الله عنها ليس من عادتها أكل لحوم أخواتها من النساء الغافلات لأن غرث من كذا معناه جاع . انظر: كتاب النهاية لابن الأثير جـ٣/ ٣٥٣ والأبيات من بحر الطويل .

(٢) من تخييم الريح الطيبة في الثوب اذ عبقت به. انظر القاموس فصل الخاء باب الميم جـ٤/ ٢٨٦ .

التي كان الجيش معسكرا فيها يفاجأ بسواد فاذا هو أم المؤمنين رضي الله عنها وأرضاها عائشة . قد غلبها النوم ،وكان صفوان يعرفها قبل الحجاب فوقف يسترجع حتى استيقظت أم المؤمنين وأشار عليها بامتطاء راحلته وساق الراحلة حتى وصل مكان إقامة الجيش ،ولما رآهما المنافقون أشاعوا ما أشاعوا ، وتقسم أم المؤمنين فتقول " والله ما كلمني كلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه " ، ولما سمعت أم المؤمنين الخبر تذرعت بالصبر وقالت قولتها الخالدة : " والله ما أجد لكم مثلا إلا قول أبي يوسف ﴿ فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ﴾ " وابتلي صلى الله عليه وسلم أيضا فكان موقفه أن ظن بأهله خيرا حيث وقف على الخبر وقال : " يا معشر المسلمين من يعذرني (١) من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي فوالله ما علمت على أهلي إلا خيرا ، ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا وما كان يدخل على أهلي الا معي" (٢)

وهكذا نرى في هذه القصة أن الابتلاء بين أمر المنافقين حيث إنهم في تربص دائم في انتهاز الفرص التي يجدون منها منفذا يؤذون منه رسول الله والمؤمنين معه ولما كشف أمرهم هذا نزل قرآن في شأن أم المؤمنين يبرئ ساحتها مما أرجف به المنافقون ويجعل نظاما خالدا للمحافظة على أعراض المؤمنين فيما يتعلق بقضية القذف وفيما يتعلق بجعل

---

(١) ينصفني منه ويلومه على فعله وينحى عليه باللائمة . انظر كتاب المصباح المنير ص ٤٧٣ .

(٢) القصة بطولها في صحيح البخارى بشرح فتح البارى جـ٨/ ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ٤٥٤ باب ﴿لولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا ﴾ .

حد تثبت به تهمة الانسان الذى هو برىء الذمة في الأصل قال عز وجل ﴿ إن الذين جاءوا بالافك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم لكل امرىء منهم ما اكتسب من الاثم والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم لولا اذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا افك مبين لولا جاءو عليه بأربعة شهداء فاذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم في ما أفضتم فيه عذاب عظيم إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به من علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم ﴾.(١)

وفي هذه القصة أيضا تظهر لنا الفوائد التي يجنيها الانسان فيما يبتلى به كما قال عز وجل ﴿ إن الذين جاءوا بالافك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم ﴾ إضافة الى ما نالته أم المؤمنين من ثواب عظيم بفضل صبرها على ما قيل فيها من افتراء وبهتان ، وزيادة في تكريم الله لها أن انزل في تبرئتها قرآن يتلى دائما وأبدا مما زادها رفعة في درجاتها كما اعترفت هي بذلك الفضل فقالت :" والله ما كنت أظن أن الله منزل في شأني وحيا يتلى ".

---

(١) سورة النور آية ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ .

نستفيد أيضا من ذلك أن الاسلام جعل لعرض الانسان حصنا حصينا ولكرامته شأنا عظيما ،فالمرء من أو المرءة منة بريئان مما يخدش كرامتهما ومنزلتهما ،فمن حاول مس عرض/ مرء من بدون اثبات دليل قاطع يجب أن ينال عقوبة جاءت خالدة في كتاب الله بنص قاطع في قوله عز وجل : ﴿والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون ﴾.(١)

ب - وفي المال بذهابه وزواله بالقحط والجذب اللذين ينتج عنهما الابتلاء بالجوع والنقص في الثمار والزروع أو الابتلاء من حيث كسب المال وانفاقه وقد سبق بيان ذلك في الفصل قبل هذا .

جـ - وفي الأقرباء والأصحاب بفقدهم كما ورد في الحديث عن أبي موسى الأشعرى رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : " اذا مات ولد العبد قال الله تعالى للملائكة أقبضتم ولد عبدى ؟ فيقولون : نعم ،فيقول: أقبضتم ثمرة قلبه ؟ فيقولون : نعم ،فيقول الله تعالى : ماذا قال عبدى؟ فيقولون : حمدك واسترجع ،فيقول الله تعالى : ابنوا لعبدى بيتا في الجنة وسموه بيت الحمد ".(٢)

ويلاحظ من هذا التقسيم أن ما يصاب به الانسان من مكروهات قد يكون وقوعه من قبل الله عز وجل بغير فعل فاعل وذلك

---

(١) سورة النور آية ٤ .

(٢) أخرجه الترمذى في جامعه وحسنه ،انظر كتاب/ تحفة الاحوذى جـ٤/ ١٠١ كتاب الجنائز باب فضل المصيبة . نشر المكتبة السلفية .

كالصواعق المرسلة والجوائح المدمرة التي تصيب الزروع وهلاك الأنعام وموت الأعزاء . وقد تكون بسبب العباد وان كانت واقعة بالأمر الكوني فيما بينهم كالعمل على إتلاف مال الغير مما ينجم عنه الاصابة بالفقر وذلك كالسرقة أو الاحراق أو تسميم انسان لآخر قصد اذايته في جسمه وصحته وعافيته . ومن عظيم الابتلاء أيضا ما يلحق المؤمنين من سماع الأذى الكثير كالشتم والسب من أعداء الدين . نجد هذه المعاني مجموعة في القول الكريم ﴿ ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا اليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴾ .(١)

وفي قوله تعالى ﴿ لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وإن تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الأمور ﴾.(٢)

فالآيات الكريمات تقرر أن كل مضرة تصل الانسان هي مصيبة مبتلى بها سواء في النفس أو الأهل أو المال جلت أو صغرت . إلا أن الناس فيما يصابون به من حيث العاقبة مختلفون ، بناء على اختلافهم في اتباع الحق ،وذلك باختلافهم في التمسك بالهدى أو الضلال .

----

(١) سورة البقرة آية ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ .
(٢) سورة آل عمران آية ١٨٦ .

أ - المؤمن يتحرك في أمور حياته بناء على اعتقاده وتمسكه بقواعد الايمان ولذلك يرى تعرضه للمصائب هو من أجل أمرين :

أولهما : إما لخروجه عن المنهج الايماني الذى ارتضاه لنفسه ، وبناء عليه فما يصيبه ينظر اليه على أنه رحمة من الله به حيث جعله له سببا أو ان شئت فقل جعل له مخرجا مما وقع فيه من مخالفات تستلزم عذابا أشق في دار الجزاء فأبدله الله بما يتعرض له من مصائب في الدنيا وهي بهذا المعنى تكون تكفيرا للذنوب ان هو قبلها برضا . ودليل هذا قوله تعالى * ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك * (١) وما قررته من معنى مستدلا عليه بهذه الآية الكريمة هو الذى نحا إليه البيضاوى في تفسيره للآية الكريمة حيث قال بخصوص قوله تعالى *فمن نفسك* مانصه : "لأنها السبب فيها لاستجلابها بالمعاصي (٢) نؤيد هذا المعنى بما أخرجه ابن ماجه بسنده من حديث ثوبان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يزيد في العمر إلا البر ولا يرد القدر الا الدعاء وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه". (٣)

وبما أخرجه مسلم في شأن قوله تعالى * من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا * (٤) من حديث أبي هريرة حيث قال : " لما نزلت هذه الآية شق ذلك على المسلمين وبلغت منهم ما شاء الله تعالى فشكوا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " سددوا وقاربوا فإن في كل ما أصاب المسلم كفارة حتى الشوكة يشاكها والنكبة ينكبها". (٥)

---

(١) سورة النساء آية ٧٩ .
(٢) انظر تفسيره مع حاشية الشهاب ج٣/١٥٨ نشر دار صادر .
(٣) سنن ابن ماجه كتاب الفتن ج٢/ ٣٨٥ ط/ الاولى بتحقيق الأعظمي وحسنه في مصباح الزجاجة انظر منه ج٤/١٨٧ ط/الاولى بيروت.
(٤) سورة النساء آية ١٢٣ .
(٥) صحيح مسلم بشرحه النووى - باب ثواب المؤمن فيما يصيبه ج١٦/١٣٠ .

وما رواه أيضا أبو موسى الأشعرى حيث قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يصيب عبدا نكبة فما فوقها أو ما دونها الا بذنب وما يعفو الله تعالى عنه أكثر "(١) هذا أولا .

وثانيا : المؤمن من حيث تقدير الشرور ووقوعها ينطلق من معنى قوله عز وجل ﴿ ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم الا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور ﴾(٢)

فالمؤمن حينما ينظر في هذه الآية يجد أن ما يصيب الانسان من بلايا هو مكتوب ومقدر قبل أن يخلق الله الانسان وأيضا ما يصيبه هو أيسر على الله عز وجل في ايجاده وحينئذ المؤمن لا يحزن على ما فاته ولا يفرح بالحاصل له لادراكه أن كل ما على الأرض مقدر ، فلا يحزن لفوات محبوب أو حصول مكروه . وأيضا لا يفرح بما أوتي لكي يوطن نفسه اذا فارقه ، لأن الله الخالق المالك له أن يمتحن عباده بما شاء سواء أكان ذلك من الأشياء التي يكون وقعها عليهم خفيفا أو ثقيلا وله أن يبلو أخبارهم كيف أراد حسب مشيئته المطلقة له أن يظهر أسرارهم بما يبتليهم به من مكاره أو مسار ولله في ذلك الحكمة البالغة فلكل زمان مصلحة تليق به ، ولكل زمان شكل من المحن التي تظهر حقائق أهله وانطلاقا من هذه النظرة فلا يفخر المؤمن بما أعطاه الله من نعم ولا يبطر

---

(١) أخرجه الترمذى في جامعه وقال هذا حديث غريب لا نعرفه الا من هذا الوجه . كتاب التفسير ، تحفة الأحوذى جـ٩/١٢٩ .

(٢) سورة الحديد آية ٢٢، ٢٣ .

ولا يتكبر على غيره من الناس لأن معتقده أن تلك النعم مصدرها من فضل الله عليه وليست من عنده ولا من علمه بل هي من عند الله وبقدرته وحكمته ولذلك يسلك سبيل الشكر عند حصول النعمة ،وسبيل الصبر عند حلول النقمة. إذا كان اعتقاده كذلك وهو أن الكل حاصل بالأمر الكوني ،فلا يمكن أبدا أن يحدث خير أو شر الا بقدرة الله وأمره وإذا تيقن المرء من أن المصائب مكتوبة وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه هان عليه وقع المصائب وخفت عليه محاملها . ومن هنا لا ينبغي للانسان أن يتساءل عما هو غيب عنه ولم يكلف بتبعاته وبالتالي ليس مسئولا عما يقع من هذا الطريق وإنما المسئول عنه هو الأمر الشرعي (١) ومن هنا كان على المرء من أن يلتزم بما أمر به شرعا فلا مخرج عنه.من أجل ذلك ينطلق المرء من بناء على الأمر الذى يتعلق به نجاحه في الاختبار فلا يبطر من شدة فرحه بالنعم ولا يتسخط إذا حلت بساحته النقم؛ لأن الكل واقع بأمر الله المبين في قوله عز وجل ﴿ قل كل من عند الله ﴾ (٢) وفي هذا المعنى يقول العلامة الألوسي ما نصه :" وقوع الاولى - الحسنة - منه تعالى بالذات تفضلا ،ووقوع الثانية بواسطة ذنوب من ابتلى بها عقوبة " (٣) . وقد قال الغزالي في كتابه : ميزان العمل (٤) من حيث بيان موقف الانسان مما يصيبه . ذلكم أن ما يصيب الانسان لا يخلو

---

(١) وفي هذا المعنى أضواء البيان للشنقيطي ج٣ /ص ١٠ ، ط/ الثانية ١٤٠٠هـ .

(٢) سورة النساء آية ٧٨ .

(٣) ركتاب روح المعاني م ٢ /ج ٥/ ٨٨ نشر دار الفكر بيروت.

(٤) ص ٣٩٠ ط/ الأولى المعارف مصر.

إما أن يكون شيئا قد وجب وجوده عموما كالموت فلا ينجو منه أحد كما قال عز وجل ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾ (١) فهذا علاجه غير ممكن قطعا .
وإما أن يكون من الجائزات وهو قسمان : لا يمكن دفعه كالموت قبل الهرم وكلا الأمرين الحزن فيهما وعدم الرضا بهما لا يليق بالانسان العاقل فكيف بالمؤمن . وإن كان الممكن مما يستطاع دفعه كعلاج الأمراض ،فينبغي معالجة ذلك بالتعقل والرضا . والمرء بعد ما يفعله لدفع البلاء بأن يجتهد في ذلك لا يلوم نفسه إذا لم يندفع البلاء بل يسكن خاطره لا سيما المؤمن -حينئذ فموقفه خاص بحيث يتلقى ذلك كله بالصبر والرضا بقضاء الله ويسأله اللطف والعافية ولا يخوض في مسألة القدر المغيب عنه بل يلتزم بالأمر والنهي الشرعيين .
إنتهى بمعناه وكما قال شيخ الاسلام ابن تيميه أيضا في هذا الصدد فمن نظر الى الحقيقة القدرية وأعرض عن الأمر والنهي والوعد والوعيد كان مشابها للمشركين ومن نظر الى الأمر والنهي وكذب بالقضاء والقدر كان مشابها للمجوسيين ،ومن آمن بهذا وبهذا فاذا أحسن حمد الله تعالى واذا أساء استغفر، وعلم أن ذلك بقضاء الله وقدره فهو من المؤمنين . فان آدم -عليه السلام- لما أذنب تاب فاجتباه ربه وهداه ، وابليس أصر واحتج فلعنه الله وأقصاه . فمن تاب كان آدميا ومن أصر واحتج بالقدر كان ابليسيا . (٢) إذن فالذى ينبغي للانسان النظر فيه هو

---

(١) سورة آل عمران آية ١٨٥ والانبياء آية ٣٥ .
(٢) الفتاوى جـ٨ / ٦٤ ط/ الأولى ١٣٨١ مطابع الرياض .

الأسباب المؤدية الى التعرض لتلك المصائب الواقعة بأمر الله . إذا أدركنا هذا المعنى نجد أن ما يتعرض له الانسان من بلاء إما أن يكون جزاء لما اقترفته يده بخروجه عن لوازم الايمان كمخالفة أمر أو ارتكاب نهي فيتحول حال الانسان من السلامة إلى البلاء اذ المساس بواجبات الايمان يجعل الانسان في مكان يستحق فيه العقوبة فلاأمن لمن يرتكب المعاصي ويتعدى الحدود من حلول المصائب به نتيجة فعله المخالف لقواعد الايمان يظهر ذلك جليا في قول القرآن الكريم ﴿ ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون ﴾ (١) ، وقوله سبحانه ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾ (٢) وقوله عز وجل ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ﴾ (٣).

من خلال هذه الايات الكريمات ندرك أن الاخلال بالواجب الايماني يؤدى الى العقوبة سواء الخاصة منها أو العامة كما وقع لكثير من القرى الظالمة مثل ما جاء في قوله عز وجل ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا ، وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح ، وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا ﴾ (٤)

---

(١) سورة الروم آية ٤١.
(٢) سورة الشورى آية ٣٠.
(٣) سورة الأعراف آية ٩٦.
(٤) سورة الاسراء آية ١٦ ، ١٧.

إذن فالمعاصي سبب في إصابة الانسان بالنوائب وذلك للتكفير والاعتبار وبالتالي لاثارة الانتباه لمن يريد أن ينحو نحو أولئك فيسلك طريقهم فيصاب بمثل ما أصيبوا به ،هذا في جانب المصائب العامة. وهناك جانب خاص بالفرد فقد تحل المصيبة بشخص أو أشخاص معدودين وذلك للعقاب أيضا كحلول الأمراض الممكن علاجها،إلا أن أحوال المؤمن جميعها كلها خير فما يحل به من مصائب هو على أية حال خير له وعاقبته غفران الذنوب أو رفع الدرجة والمثوبة الحسنى ،وبناء عليه فالمؤمن بصير سميع فيمشي في نور الله على صراط مستقيم في الدنيا والاخرة حتى يستقر به الحال في دار السعادة الأبدية ،نجد هذا الوعد الصادق في قوله صلى الله عليه وسلم : "عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له ".(١) وفي قوله صلى الله عليه وسلم : " ما يصيب المسلم من نصب (٢) ولا وصب (٣) ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه ".(٤) وفي قوله صلى الله عليه وسلم: "إن الله قال اذا ابتليت عبدى بحبيبتيه فصبر عوضته منهما الجنة".(٥)

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه من حديث صهيب . انظر كتاب شرح النووى له ج ١٨/١٢٥ الزهد .

(٢) هو بفتح النون والصاد التعب . يقال نصب ينصب من باب طرب تعب . كتاب النهاية مادة : نصب. ج٥/٦٢ .

(٣) الوصب دوام الوجع ولزومه . كتاب النهاية . وصب ج٥/١٩٠ .

(٤) أخرجه البخارى في صحيحه من حديث أبي هريرة انظره بشرحه فتح البارى كتاب المرض ج١٠ ص١٠٣ . باب ما جاء في كفارة المرض .

(٥) أخرجه البخارى في صحيحه انظره بشرحه فتح البارى ج١٠/١١٦ كتاب المرض باب فضل من ذهب بصره .

في هذه النصوص الصحيحة دلالة واضحة على أن المصائب بالنسبة للمؤمن كفارة لذنوبه وبالرضى يؤجر على ذلك ومن لم يرض بما أصيب به فقد تتراكم عليه البلايا مصداقا لقوله صلى الله عليه وسلم :" إن أعظم الجزاء مع عظم البلاء وإن الله إذا أحب قوما ابتلاهم فمن رضي فله الرضى ومن سخط فله السخط"(١).

وهذا يعطينا : أولا : أن البلايا والمصائب بالنسبة للمؤمن هي من كرم الله عليه حيث تكفر بها ذنوبه في هذه الدنيا مايلاقيه من تلك الآلام ومايجده من حواجز تمنعه مما قد يسعد به في الدنيا ويحرم بها لذات الحياة التي يتمتع بها غيره ،فالمعاصي إذن سبب من أسباب حلول البلاء بساحة الانسان.

ثانيا : واما أن يبلغ المؤمن بما يصيبه من بلايا درجة عليا فيعطى من الثواب ما يوازى تلك المصائب إن رضي وصبر واسترجع كما جاء في القول الكريم : ﴿ وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا اليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴾.(٢) ذلك أن المؤمن حينما يترقى أو يصل الى درجة عليا من الايمان يشتد عليه البلاء للترقي في المثوبة ، فالذين بلغوا درجة قصوى من الايمان تقسوا المحن عليهم فكلما صعد

---

(١) أخرجه الترمذى في جامعه من حديث أنس وحسنه ،انظر كتاب تحفة الأحوذى جـ٧/ ٧٧ نشر المكتبة السلفية.

(٢) سورة البقرة آية ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧.

الانسان في سلم الايمان وترقى في درجات الكمال الروحي كلما تراكمت عليه الاختبارات ليظهر صدقه في ذلك ومن هنا نرى الصفوة من الخلق أكثر الناس بلاء وفي مقدمتهم الأنبياء كما يأتي توضيح ذلك. هذا فيما يتعلق بما يخص المؤمن فيما يصيبه من بلايا وبيان موقفه من ذلك.

أما الكافر فهو بكفره قد ابتعد عن السعادة إذ لا سعادة بدون إيمان والفطرة شاهدة بذلك والسلوك قد أقر ما شهدت به الفطرة ومن هنا فحال الكافر فيما يصيبه من شرور هي بمنأى عن حال المؤمن لأنه أعمى وأصم، في ظلمات يمشي لا خروج له منها بل هو يتيه في غميه وضلاله في الدنيا والاخرة حتى يفضي به ذلك إلى النار دار الشقاء السرمدى ، ومن هنا لما كان ينتظره عذاب مستقر كان تعرضه للمصائب نادرا بالنسبة لما يصيب الذين ترقوا في درجات الايمان. ويكفي الكافر مصيبة أنه شبيه بالحيوان حينما اختار الكفر كما جاء في قوله عز وجل ﴿ والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم ﴾(١) ،والآية الكريمة تدل على أن الكافر يعطي حظه من نعيم زائل ، نعيم لا مقارنة بينه وبين ما ينتظر المؤمن من النعيم المقيم ومن الثواب العظيم على ما يصيبه من بلاء في هذه الدنيا في نفسه وماله ، وأما الكافر فقليلا ما يصاب بالالام المادية وإن وقع له شيء من ذلك لم يكفر عنه شيئا من سيئاته بل يأتي بها يوم القيامة كاملة ، فكأن المؤمن لم يفقد شيئا في الحقيقة ،والكافر هو الخاسر ، يبين هذه الحقيقة

---

(١) سورة محمد آية ١٢.

قول المصطفى صلى الله عليه وسلم " مثل المؤمن كمثل الخامة [(١)] من الزرع من حيث أتتها الريح كفأتها [(٢)] فاذا اعتدلت تكفأ [(٣)] بالبلاء والفاجر كالأرزة [(٤)] صماء معتدلة حتى يقصمها الله اذا شاء ،وفي رواية أخرى قال صلى الله عليه وسلم : " مثل المؤمن كالخامة من الزرع تفيؤها الريح مرة وتعدلها مرة ،ومثل المنافق كالارزة حتى يكون انجعافها [(٥)] مرة واحدة ". [(٦)]

وهذا معناه أن الكافر قد تيسر له الاسباب التي تجعله يتمتع في الدنيا بما يشاء ولا يصاب بالبلاء إلا نادرا وربما إذا أصيب بشيء منه يكون انتقاما كما إذا تجاوز الحد وأضر بغيره أو بما قد يكون سببا في إلحاق الضرر بأهل الايمان كإرادة طمس الايمان بالكلية في مكان ما فيمنع بما قد يهلكه ،أو يصاب بما تسبب فيه من هلاك لنفسه فيردعه،بينما يتعسر الأمر عليه في دار المعاد بحيث يهلكه الله أشد الهلاك فيقصمه

---

(١) هي الطاقة الغضة اللينة من الزرع. النهاية جـ٢/٨٩ ،خوم.

(٢) أى أمالتها. انظر الفتح لابن حجر جـ١٠/١٠٣ كتاب المرضى.

(٣) مضارع حذفت منه تاء المضارعة كما قال ابن مالك.

وما بتاء ين ابتدى قد يقتصر فيه على تا كتبين العبر

ومعنى تكفأ مال . انظر الفتح نفس المصدر السابق.

(٤) بسكون الراء وفتحها شجر الأرزة وهو شجر معروف . وقيل هو الصنوبر . النهاية لابن الاثير جـ١/٣٨ مادة : أرز.

(٥) معناها انقلاعها . انظر النهاية لابن الاثير جـ١ / ٢٧٦ جعف . وانظر الفتح لابن حجر جـ١٠/ ص١٠٧ كتاب المرضى .

(٦) أخرج الروايتين البخارى في صحيحه من حديث كعب بن مالك ، بشرحه الفتح لابن حجر جـ١٠/١٠٣ كتاب المرضى .

بما لا بقاء له معه فبوء خذ أخذا أليما كما قال عز وجل ﴿ ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾[(١)].

ثم إن الكافر فاقد للاطمئنان مصاب بالاضطراب الفكرى والحركى ويضحى جزوعا عندما يصاب بالآلام ، لأنه أساسا يجهل اتجاهه وسيره في الحياة وبالتالي تراه يحرج بين الفينة والفينة للاجابة على سوءالات تخطر على باله ولا يستطيع الاجابة عنها ولن يستطيع إلا من خلال الاسلام وإلا سيصاب دوما بظلام في قلبه . نجد هذه الحقيقة في القول الكريم ﴿ ما أصاب من مصيبة إلا باذن الله ومن يوءمن بالله يهد[(٢)] قلبه ﴾[(٣)].

وذلك أن الايمان فيه راحة للقلب واستكانة للنفس . والكافر يفقد ذلك لخلو قلبه من الايمان فهو في قلق ينازعه وفي اضطراب يثيره وحينما يقع في مصيبة لا يدرى مصدرها ولا من اخترعها وأنشأها ، لأنه لما فقد عقيدة الايمان الذى يربطه بربه ويجعله قوى الاعتقاد عصامي الموقف مطمئن البال عند النوازل لما فقد تلك العقيدة لم يهدأ قلبه ولن يستريح باله حتى يوءدى به ذلك الى انهيار عصبي مما يسبب له زيادة نزول المصائب به وحلول النكبات عليه والعياذ بالله ولم يستقر مبدوءه

----

(١) سورة الأنفال آية ٥٠ ، ٥١ .

(٢) وقرأ عمرو بن دينار ومالك بن دينار يهدأ بسكون الهمزة ورفع قلبه على الفاعلية بحيث يصير المعنى يطمئن قلبه ويسكن بايمانه ، ولا يكون فيه اضطراب . انظر البحر المحيط لأبي حيان جـ٨/ ٢٧٩ ط/ الثانية .

(٣) سورة التغابن آية ١١ .

مما يفقد معه الاطمئنان عندما يصاب بالضراء بل يهبط إلى درك الجزع والتسخط ،فيزداد غواية كلما أصيب برزية في نفس أو مال أو ولد . وهكذا قد وضح الفرق بين موقف المؤمن وموقف الكافر ،وبعد هذا فالانسان يتعرضه مرة للحسنات ومرة للسيئات وكلاهما من عند الله خلقا وإيجادا ، ألا يرد سؤال ،مفاده : أليس من الأصلح للانسان أن لا يصاب بهذه الآلام وأن تكون رحلته في هذه الدار مليئة دوما بالمسرات والمفرحات؟ لتوضيح الاجابة عن ذلك أقول :

من المتفق عليه لدى جميع النحل الاسلامية أن الله حكيم وعادل وأن له الملكية المطلقة . وأن الانسان متصف بالعبودية لله فهو أولا وأخيرا عبد لله لا يستطيع الخروج عند أمر الله الكوني .

ثم إن الانسان أمام هذه الحقيقة المتفق عليها يكدح وفق نظام اختاره الله المالك ، نظام شاءت إرادته سبحانه أن يكون مسار الانسان فيه مسلسلا بأسباب وقدرة محددة لا تتقدم عن وقتها ولا تتأخر ،أعنى تحرك الانسان في ذلك النظام المقنن المرسوم يكون مربوطا بنتيجة ما يفعله الانسان وهي الأسباب التي تنشأ عنها المسببات ،فما يجده في دنياه من شر يلاحقه هو ناتج عن تحركه في موطن حذره الشارع الحكيم من قربه . وإن كان الشر خلقا وايجادا هو من عند الله ،إلا أن الله حذر الانسان من الوقوع في أسبابه ، صحيح أن الالام خلقا وايجادا هي مثل كل ما خلقه الله من الأشياء الضارة أو النافعة . بدليل قوله

تعالى ﴿ ولله ملك السموت والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير ﴾ (١) ،ولكن استحقاق الانسان للمصائب هو بناء على تحركه وعلى ما ارتكبه وتسبب فيه. وهذا عدل ولطف ،وإلا لما ظهر لأصحاب الفضل والامتثال مقام ،وبالتالي لو قع ما ينافي الحكمة وما هو الا لطف بالانسان (٢) ولذلك لا ينبغي للانسان وهو العبد المملوك لله أن يتجرأ ويقول : يجب على الله فعل الأصلح بالانسان . ويعجب الانسان من أهل الاعتزال حينما يلهجون بلفظ الوجوب على الله بفعل كذا . أليس في هذا خروج عن مقام العبودية . أوليس أن الله قال ﴿ إن ربك فعال لما يريد ﴾ (٣) وقال ﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون ﴾ (٤).

وبعد هذا ،فماذا عسى يجد الباحث عند أولئك الذين أساءوا الأدب بالخروج عن المنهج السليم في معالجة قضية ما يسر به الانسان وما يحزنه من مكروهات حيث أوجبوا على الله رعاية الأصلح بالانسان. حتما سيواجه بباب مغلق إما أن يصل بك الى الجرأة بمجاوزة حدود العبودية فيوجب على منشئه من العدم ما لم يكن واجبا عليه أصلا ،

---

(١) سورة المائدة آية ١٧ .

(٢) انظر فصل الابتلاء بالخير والشر مطلقا فقد ذكر فيه جانبا مما يتعلق بالحكمة من الابتلاء بهما.

(٣) سورة هود آية ١٠٧ .

(٤) سورة القصص آية ٦٨ .

وإما أن يقف بك دون إجابة ويتركك في متاهة لا حدود لها وذلك حينما يصل بك بعض من أوجب على الله رعاية الأصلح الى أن الله لا يقدر أن يفعل للعبد أصلح مما فعل به ألا ترى أن في هذا نسبة العجز المحال على الله الذى له القدرة المطلقة . وحينما تجد من احتج على من أوجب على الله فعل الأصلح بما قد يوهم الظلم للخلق،تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ،بقضية من مات صغيرا وآخر مات كبيرا ،فاحتج الكبير الذى حق عليه العذاب بفعله بأنه لو مات صغيرا لما استحق النار ،والصغير احتج على من ارتفعت درجته بطاعته بأنه لو بقي حتى بلغ لارتفعت درجته ألا ترى أن في هذا مغالطة وتجاوز الانسان صفة العبودية ؟ ولذلك يمكن القول بأن هذا الافتراض مرفوض عقلا من وجهين في نظرى .

أولا : لأنه يؤدى الى افتراضات لا نهاية لها وذلك محال عقلا بحيث يستدعى ذلك افتراضات تتجاوز ما يستطيع الانسان ادراكه لأن الصغير من يدريه أنه سيسلك طريق الكفر لو بقي ؟ ، والكبير لو مات صغيرا لاحتج بما احتج به الصغير من أنه لو بقي لارتفعت درجته ، ولذلك فان الله عز وجل لم يجعل قصر الأجل أو طوله مربوطا بسعادة الانسان أو علو درجاته في تلك السعادة ،أو مربوطا بشقائه أيضا في علم الانسان ،اذن ليس طول الأجل متعلقا بكفر زيد أو ايمان عمرو بدليل أنه ليس كل من كبر مات مؤمنا . أو مات كافرا بل هناك من آمن وهناك من كفر وبدليل أنه ليس لدينا نص قاطع على أن كل من مات صغيرا

يدخل الجنة بدون ميزان الأعمال بل الذى ثبت أن الأطفال هم من الذين سيمتحنون في عرصات القيامة [١] يؤيد ذلك ما رواه البخارى من حديث أبي هريرة رضي الله عنه يقول : سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن ذرارى المشركين ،فقال : الله أعلم بما كانوا عاملين " [٢] . إذن العمل هو الميزان لسعادة الانسان ،وهذا يبطل الاحتجاج بأن الصغير لو بقي حتى يكبر لنال درجات عليا أو احتجاج الكبير الكافر لو مات صغيرا لما استحق النار .

ثانيا : قائل هذا الافتراض غض نظره وغفل عما خلق له أصلا وذلك أن الذى لا جدال فيه ولا يستطيع أن ينكره أحد أن الله له التصرف المطلق في ملكه وشاء أن يخلق الانسان للابتلاء . والابتلاء مبني على عدة جوانب يقتضيها اجراؤه مثلا موت الصبي يبتلى به بحيث يظهر من يصبر من أبويه ويحتسب ويستسلم لربه فيستحق المثوبة بذلك ومن يجزع فيستحق العقاب بتسخطه وعدم رضائه بفعل ربه ، أو يبتلى به من حيث قد يتسبب في كفران أبويه بحبهما له فيسلكون مسلك الكفر بسببه لو بقي حيا كما جاء في قصة الغلام الذى قتله الخضر حيث يقول سبحانه ﴿ وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا ﴾ [٣] نقل عن قتادة قوله [٤] : قد فرح به أبواه

---

(١) انظر الفتح عند سابع الأقوال في المسألة جـ٣/ ٢٤٦ ،وانظر كتاب ايثار الحق على الخلق لابن الوزير ص ٣٤٠.

(٢) انظر صحيحه بشرحه فتح البارى ،الجنائز ،باب ما قيل في أولاد المشركين جـ٣/ ٢٤٥.

(٣) سورة الكهف آية ٨٠ .

(٤) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ٣/ ٩٨ نشر مكتبة التراث القاهرة .

حين ولد وحزنا عليه حين قتل ولو بقي لكان فيه هلاكهما فليرض امرؤ بقضاء الله . وبهذا الذى بينته بطلت تلك الافتراضات .

وجملة القول أن ما يصيب الانسان من آلام له فيها مصالح جمة قد أدركنا منها ما أدركنا وخفي علينا منها ما خفي ، ومما يظهر من تلك المصالح أن ما يصاب به الانسان من آلام قد تكون تكفيرا لما قد ارتكبه من مخالفات للمنهج الذى التزمه فتطهر نفسه ويغسل قلبه مما قد علق به من أدران المعاصي كالحسد والكبر والغمط بظلم العبيد فيرتدع عن ذلك بما قد يصيبه من آلام حسية كالأمراض الجسدية ، أو معنوية كالاصابة بضيق الرزق وضياع المال وما أشبه ذلك . والانسان المؤمن بأن المصائب من تدبير الحكيم العليم وأنه لا مفر له عنها يتضرع الى الله عندما تنزل به أية مصيبة فيظهر بتضرعه ذلك عبوديته لله ربه ذى العزة والجبروت فيصل بذلك الى الترقي في درجات الكمال . وهذا يعطينا حقيقة هي أن المصائب تسهل الوصول الى النعيم الخالد في الملكوت الأعلى وسبيل لنيل الجزاء الأوفى في الجنة وذلك أنه حينما يتصور الانسان مصابه بهذا الشكل من أنه طريق لتنقية ضميره وتهذيب نفسه من الرواسب المادية يكون مصابه سلما للترقي في الخير وذلك يظهر في أن الغالب بما يصاب به الانسان يكون منبها له ومحذرا إياه خلال مساره الذى يتحرك فيه . فلربما كان مذهبه في الحياة معوجا وسلوكه غير سليم من حيث لا يدرى ، أو يدرى لكنه غير مبال وذلك نتيجة لما قد

يطرأ على القلب بعض من الغفلة الطفيفة التي تنقشع بأدنى شيء من الانتباه ،فاذا لم يبلغ درجة الختم والطبع فقد تدفعه المصائب إلى مراجعة تحركه والنظر فيه فيتغير مساره ،وحينئذ ينجو بمصائب الدنيا من خسران الآخرة ، وشتان ما بين طبيعة الدارين في المصاب ويكفي أن مصاب الآخرة ينسي أهل النعيم لذاتهم التي كانوا يتمتعون بها في الدنيا ، كما أن النعيم في الآخرة ينسي كل ما حل به من مصاب كما جاء في الدنيا في الحديث الصحيح الذى مر تخريجه (١) وبدليل ما جاء في القرآن الكريم ﴿ ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴾ (٢) ومثله من النصوص كثيرة إلا أني في هذا البحث لست بصدد تعداد أوصاف ما أعده الله من أنواع العذاب الأليم في عالم الآخرة . وإنما المقصود عندى أنه بالمصائب قد يندم الانسان ،ويدرك مسئوليته فينهض لتدارك الموقف ويبحث عن أسباب الغفلة ومسالك الخطأ ليتجنبها ويعود الى الرشد والصواب .

وهكذا كلما يصاب المرء من بما يؤلمه يندفع لمراجعة تحركاته الشهوانية وصولاته الشريرة فيكبح جماح ذلك بتفكيره العادل ،وذلك أن المصائب حينما تأخذ من الانسان مأخذ الحيطة والاتعاظ تكون نعمة وتنقلب سعادة ،ومن هنا لا ينبغي للانسان العاقل أن يجزع

----

(١) انظر ص ١٦٣ هامش (٢) .

(٢) سورة طه آية ١٢٧ .

من المصائب بل الواجب عليه أخذ التجربة منها وجعلها درسا يصلح به ما مضى من أخطاء في تحركه ، يوءيد هذا أن الانسان الذى تعرض للمرض والمرارة والأسى يختلف تماما عمن لم يذق ساعة مرارة ولا آلام مصاب واحد ، فلولا الشرور لما عرف للخيرات قدرها إذ لا يتبين الانسان العافية ويقدرها قدرها إلا إذا مسه وجع أو ضر أو دهمه فزع كما قال أبو تمام .[١]

والحادثات وإن أصابك بوءسها فهو الذى أنبأك كيف نعيمها

وبدليل أننا نرى ونسمع التشكي من المبتلى بكثرة وقليلا ما نجد الشكر من المعافى ،فالمصائب اذن حينما ننظر في عواقبها وما ينتج عنها من منافع نجدها لطفا من الله بعباده رغم أن الانسان الموءمن ما تصيبه مصيبة ويحتسبها إلا كان له الأجر ،ويضاف لذلك أنه كما سبق ،لولا المصائب لطغى الانسان وتكبر وفسق ،كما قال عز وجل * ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير *[٢] ،وقوله سبحانه * ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا في طغيانهم يعمهون ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون حتى إذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد اذا هم فيه مبلسون *[٣] فلو كان الانسان -باستمرار يتقلب في النعيم لما صلح شأن الانسانية وفوق كل هذا فان المصائب هي المحك الذى يتميز به

---

(١) من بحر الكامل .

(٢) سورة الشورى آية ٢٧ .

(٣) سورة الموءمنون آية ٧٥، ٧٦، ٧٧ .

أهل الايمان من أهل الكفر وأهل الصبر من أهل الجزع ، فهذا التعيين والانفصال لا يتم الا بالابتلاء بالمصائب كما قال عز وجل ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾ (١) وبهذا قد بانت لدينا الحكمة من المصائب وبالتالي ثبت عندنا أن المصائب علاج للأمراض القلبية التي تعلق بالانسان المستخلف في هذه الأرض وذلك حينما يخرج عن قواعد الخلافة المنوطة به يتعرض للمصائب علّه يستقيم ويرجع الى سواء السبيل . وأن ما يناله من مكروهات وشدائد ترفع به درجاته في مثل ما يلقاه الدعاة من أهل الكفر والكبر والطغيان الذين يحاربون الله في دينه وشرعه وينفقون كل ما يملكون ويسخرون جميع ما أوتوا من قوة ليصدوا عن سبيل الله .

---

(١) سورة آل عمران آية ١٤٢ .

الباب الثالث

الابتلاء في طريق الدعوة الى الله

ويشتمل على الفصول التالية :

الفصل الأول : ابتلاء الأنبياء وأتباعهم

الفصل الثاني : ابتلاء الأمم المدعوة قبل الاجابة

الفصل الثالث : ابتلاء الأمم المدعوة بعد الاجابة

توطئة :

قد علمنا في الباب السابق أن الانسان مبتلى بالخير والشر، والخير شامل لجميع النعم التى أساسها في الدنيا الطاعة والانقياد لرب العباد سواء فيما هو معنوى كتوحيد الله أو مادى فيما هو شامل للمال والولد حيث جعلهما الله طريقا للابتلاء بالنعم المادية ،والشر شامل لجميع النقم والمصائب التي أعظمها الكفر بالنعمة فيما هو معنوى والتي لا تخرج فيما هو مادى عن أن تكون ضررا في النفس والمال والأهل ،وعلمنا أن طريق الابتلاء بهما هو ما شرعه الله من تكاليف إذ هي التي تبين نجاح الانسان من حيث امتثاله للأوامر واجتنابه للنواهي . وهي الميدان الذى يظهر فيه العمل الحسن من العمل السيء ،وذلك مقتضى الابتلاء.والتكليف كما سبق ضرورى للانسان ،والاهتداء الى ما هو ضرورى لا بد فيه من سلوك طريق سليم يركن إليه موقنا بالنجاة فيه ،وبالتالي يجد فيه الاجابة عما قد يتساءل عنه انطلاقا من عقله وفكره . لا سيما أن الانسان حمل أمانة الخلافة ،فلا بد من طريق يدرك فيه كيفية معالجة مسئولية الخلافة التي هي العلم والعمل والبناء والتعمير مع ارتباط الانسان بالملكوت الأعلى بحيث لا يصرفه العمل في الحياة الدنيا عن التعلق بالدار الآخرة بل يحسب لها الحساب الكبير فيكون تحركه في دار الخلافة من أجل دار الجزاء . فالانسان إذن - والحالة هذه - هو في حاجة الى من يهديه إلى الطريق السوى وهم الأنبياء عليهم السلام فلنتعرف على دعواتهم ومواقف أممهم منهم وما في ذلك من ألوان الابتلاء الذى نجحوا فيه فكان لهم نصر الله المبين .

الفصـــل الأول

ابتلاء الأنبياء وأتباعهـــــــــم

قلت الانسان في حاجة الى من يهديه إلى الطريق المستقيم وليس ذلك إلا من طريق رسل من البشر حيث تثبت بالتجربة أن الانسان بعقله فقط لا يهتدي الى ما هو صواب وحسي في دار الدنيا كما أنه لا يستطيع التمييز أو الوقوف على معالم دار الجزاء بحيث لا يدرك طبيعة الحياة فيها ولا كيفية الجزاء الواقع فيها ولا صفة الثواب وغير ذلك مما يتعلق بعالمها . ولذلك نرى أنه كلما خلت فترة من الرسل كلما انحرف الانسان وهبط عن التكريم الذى خصه الله به دون كثير ممن خلقه إذ لا يخلو المجتمع الانساني من مقومات الفضائل التي يسعد بها الانسان والركائز التي يقوم اليها استقراره ،وذلك أن الله شاءت إرادته أن تكون راحة الانسان وسعادته في مقومات لا يخلو منها عصر الا تعرض للشقاء وذلك جلي في أنه لا بد من ارتباط حياة الانسان بتلك المقومات كالصدق والعدل والأمانة وما شابه ذلك وكل ما يتم فيه سير الانسان مع أخيه الانسان فبالأمانة تحقق المصلحة لكل فرد في ذاته أو مع غيره . وهذا يجعل الانسان في حاجة لتلقي تلك المقومات ممن هو خبير بأمر الانسان فيما يسعده ويصلح شأنه . ولم يكن هذا الخبير العليم بما يصلح شأن الانسان إلا الله وحده واجب الوجود والانسان لا يستطيع إدراك صفات واجب الوجود أو الأحكام الشرعية بعقله فقط كما قرر ذلك صاحب مراقي السعود حيث قال :

والحكم ما به يجيء الشرع وأصل كل ما يضر المنع

يقول شارحه ما نصه :[١] " يعني أن الحكم التنجيزى هو ماجاء به الشرع أى البعثة فلا حكم تنجيزيا يتعلق بنا قبل البعثة لأحد من الرسل " وأقول : صحيح أن الانسان مضطر إلى الايمان بقوة فوق قوته وإلى أن هناك منشئا للكون يجب أن تكون له جميع صفات الكمال لكنه لا يستطيع إدراك المسائل المفصلة في حق واجب الوجود فيما يخص ذاته وصفاته وأفعاله وغير ذلك مما هو مختص بالألوهية إلا بالوحي. والانسان أمام هذا العجز وحتى فيما يصلح به استقراره ذاته هو في حاجة كما قلت لمن يهديه إلى ما هو حق وصدق وحسن له في معاشه ومآله والى نور يستطيع عن طريقه الثبات والاستقرار في القول والعمل مما يؤدى به في النهاية الى النجاح ،يقول سبحانه ﴿ يأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل و يهديهم إليه صراطا مستقيما ﴾[٢] ويقول أيضا ﴿ فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾[٣] ،ويقول عز من قائل ﴿ رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسول وكان الله عزيزا حكيما ﴾[٤] ويقول سبحانه ﴿ ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى ﴾[٥] فهذه الآيات الكريمات تدل على أن الانسان

---

(١) نشر البنود للشنقيطي جـ١/٢٨ ط/ فضالة : المغرب.
(٢) سورة النساء آية ١٧٤ ، ١٧٥.
(٣) سورة طه آية ١٢٣ ، ١٢٤.
(٤) سورة النساء آية ١٦٥.
(٥) سورة طه آية ١٣٤.

في حاجة الى رسل من البشر يرشدونه الى طريق الهدى ،ولذلك أفحم القرآن الكريم الذين جاءوا الى الرسول وطلبوا منه إنزال الملائكة ليخاطبوهم بدون واسطة بشر ، وهذا شيء غير ممكن بالنسبة لخصائص الانسان وذلك أنه لو كان الرسول ملكا لما استطاع مخاطبة الانسان العادى الذى لم يعد للتلقي من الملك إلا إذا تحول إنسانا ،فوجب كون الرسول بشرا يوءيد هذا قوله تعالى ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضي الأمر ثم لا ينظرون ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون ﴾(١) يضاف لذلك أن الله لو جعل الرسل المبلغين للعامة من البشر ملائكة لحق الهلاك وعجل للمعاندين الذين لم يستجيبوا من اللحظة الأولى وبالتالي لما استمر الوحي يهديهم إلى الحق ويدلهم عليه فترة طويلة في بعض الأمم تقرب من الفسنة ،تلك حقيقة بينها القرآن الكريم للذين استكبروا وعتوا وطلبوا نزول الملائكة حينما قال عز وجل ﴿ وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ﴾(٢) وهذا يعطينا أن ارسال الرسل من نعم الله على البشرية لا سيما الموءمنين منهم كما قال عز وجل ﴿ لقد من الله على الموءمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم ءايته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلل مبين ﴾(٣) .

---

(١) سورة الأنعام آية ٨ ، ٩ .

(٢) سورة الفرقان آية ٢١ ، ٢٢ .

(٣) سورة آل عمران آية ١٦٤ .

إذن ارسال الرسل لاصلاح البشرية ضرورة لهم تقتضيها طبيعتهم وفطرتهم خصوصا لما ثبت عجز عقل الانسان عن إدراك ما يوافق حاجاته الروحية والمادية وذلك خلافا لأهل الاعتزال كما مر معنا (١) بل العقل لم يستطع من أول وهلة أهبط فيها أبو البشر آدم عليه السلام إلى عالم الأرض لم يستطع الاهتداء إلى ما ينتفع به في حياته من الوسائل التي تمكنه من البقاء لولا تعلقه من لدن خالقه ، فقد علمه الله وألهمه معرفة ذوات الأشياء وأسمائها وخواصها ومعارفها كالحرث والحصاد والطحن وحراسة المواشي واتخاذ الأشياء منها كالفرش والادهان وكاستخراج المعادن وصنع الأواني منها الى غير ذلك من جميع أصول العلم وقوانين الصناعات وتفاصيل آلاتها وكيفيات استعمالاتها فما كان للانسان أن يدرك ذلك لولا التعليم كما قال عز وجل ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾ (٢) ، هذا فيما هو مادى ومحسوس وفيما هو ضرورة لبقاء الانسان ، فما بالك بما هو ضرورى في تكريمه وتمييزه عن غيره من الخلق من تشريعات لا يمكن أن تصدر موافقة لمصالح الانسان إلا من لدن العليم الخبير ولا يهتدى الانسان إلى تلك التشريعات إلا عن طريق الإخبار ممن تلقاها عن الله من البشر وهم الرسل الذين لهم صفات خاصة هيئوا بها للتلقي ، وذلك أن الله جعل لأناس قوة وقدرة على التلقي من الملائكة الذين يجب الايمان بهم بل الايمان بهم ركن من

---

(١) [illegible] ص ١٣٠ من فصل الابتلاء بالتكليف .
(٢) سورة البقرة آية ٣١ .

أركان الدين ، وهذا المعنى يعطينا أنه لا بد من إنسان يبلغ للناس مـــا يصلحون به مآلهم ومعادهم ،حتى لا يكون لهم حجة على ربهم كما قال عـز وجـل * رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما * [1] إذن إرسال الرسل للناس لطف من اللـــه ورحمة بالعباد لأنهم في حاجة إلى مبعوث يدلهم على ما لا يمكن التوصل إليه بالعقل مما هم في حاجة إليه ولا سبيل إليه إلا عن طريق إرسال الرسل. وهكذا في هذا الصدد أرسل الله رسلا اختارهم وتولى تهيئتهم لأمر النبوة واختصهم برحمته * الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس إن الله سميع بصير * [2] * الله أعلم حيث يجعل رسالته * [3] فاختيار أناس للقيام بأمر الرسالة إذن هو لله العليم الخبير فهو وحده الذى يجتبي للرسالـــة من علم أنه يصلح لها كما أنه أعلم بالمكان الذى يضعها فيه فاختارهم ومن عليهم بالحكمة والعصمة والأفضلية على من سواهم عن سائر البشر وأيدهـــم بما لا يدع مجالا للريب في صدقهم فيما يبلغونه للناس من ربهم من آيات باهرة ومعجزات ظاهرة لا يكفر بعد مجيئها إلا المستكبرون .

مبحث مأخذ معنى النبوة

. والنبي مأخوذ إما من النبأ وهو الخبر لأنه مخبر عن الله تعالـــى وإما من النبوة وهو الارتفاع ، لأن الأنبياء هم صفوة الخلق وأعلاهـــم شأنا . وهو أيضا إما فعيل بمعنى فاعل بدليل قوله تعالـــــــــى

---

(١) سورة النساء آية ١٦٥.

(٢) سورة الحج آية ٧٥.

(٣) سورة الأنعام آية ١٢٤.

﴿ نبيء عبادى أني أنا الغفور الرحيم ﴾ [١] وإما بمعنى مفعول بدليل قوله تعالى ﴿ نبأني العليم الخبير ﴾ [٢] والمعنيان صح اطلاقهما على النبي لأنه مخبر بكسر الباء عن الله و مخبر بفتح الباء من عند الله . وهو أيضا مهموز إن كان من النبأ وبدون همز إن كان من النبوة . وفي هذا الصدد يقول صاحب المفردات [٣] ما مفاده أن النبي يقال بالهمز وبغيره وهو أبلغ بدليل أنه ليس كل منبيء رفيع القدر والمحل . إذن النبي انسان اختاره الله بحكمة من بين البشر للتلقي والاعلام بما قد لا تدركه العقول ولا يخلو إما أن يؤمر بتبليغ ما تلقاه عن الله أو لم يؤمر ، فان أمر فهو نبي مرسل مع مراعاة ما يأتي من تحقيق في ذلك . والرسول مأخوذ من الانبعاث والامتداد لأن الرسول مبعوث من قبل الله عز وجل للتوجيه والارشاد كما جاء في مقاييس اللغة [٤] وفي القاموس " والارسال أيضا التوجيه وبه فسر إرسال الله عز وجل أنبياءه عليهم السلام كأنه وجه إليهم أن أنذروا عبادى" [٥]

وفي المفردات أيضا : "أصل الرسل الانبعاث على التؤدة فيقال ناقة مرسلة سهلة السير ، وإبل مراسيل منبعثة انبعاثا سهلا ومنه الرسول المبعث ، [٦]

وهذا يعطينا أن الرسول هو الانسان الذى يحمل بيانا بعد التلقي وانبائه به ليؤديه لغيره للارشاد وللاصلاح كما أنه يعطينا الفرق بين مدلول كلمة

---

(١) سورة الحجر آية ٤٩ .

(٢) سورة التحريم آية ٣ وانظر هذا المعنى في كتاب النهاية مادة نبأ جـ ٥ / ٣ ، ٤ .

(٣) ص ٤٨٢ ط / الحلبية .

(٤) معجم مقاييس اللغة لابن فارس جـ٢ / ٣٩٢ مادة رسل ، ط/ الثانية ١٣٩٠هـ .

(٥) القاموس للفيروزابادى فصل الراء من باب اللام جـ٧ / ٣٤٤ نشر مكتبة الحياة بيروت .

(٦) كتاب المفردات للأصفهاني ص ١٩٥ مادة رسل ط/ الحلبية .

النبي والرسول . فمادة النبوة ليس فيها أكثر من الاخبار والاعلام بخلاف مادة الرسالة تدل على أن هناك تلقيا وتبليغا لأن المرسل يلزم أن يكون معه شيء مرسل به ،وهو ما أخبر به وتلقاه . وهذا يعطينا أيضا أن كل رسول نبي حيث إنه أخبر وأمر بتبليغ ما أخبر به وهو الارسال ،وليس كل نبي رسولا نظرا لأن النبي قد لا يؤمر بالتبليغ ،وهذا المعنى هو الذى درج عليه أكثر العلماء في الفرق بين النبي والرسول وفي أن الرسول أخص من النبي .

يقول ابن أبي العز في شرحه للطحاويه [١] ، وقد ذكروا فروقا بين النبي والرسول ،وأحسنها أن من نبأه الله بخبر السماء إن أمره أن يبلغ غيره فهو نبي رسول وإن لم يأمره أن يبلغ غيره فهو نبي وليس برسول . فالرسول أخص من النبي فكل رسول نبي وليس كل نبي رسولا وهذا المعنى يخالفه ما حققه العلامة الآلوسي في تفسيره لقوله تعالى ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آيته والله عليم حكيم ﴾ [٢] فالآية ظاهرة في أن النبي أيضا مرسل وهذا ما لاحظه الآلوسي إذ قال ما نصه :" فلا بد لتحقيق المقابلة أن يراد بالرسول من بعث بشرع جديد وبالنبي من بعث لتقرير شرع من قبله - الى أن قال - أو يراد نحو ذلك مما تحصل به المقابلة مع تعلق الارسال بهما ". [٣] هذا ويمضى

---

(١) ص ١١٠ ط/الأولى .
(٢) سورة الحج آية ٥٢.
(٣) كتاب روح المعاني م ٦/ جـ ١٧ / ص ١٧٣.

الطحاوى قائلا : ولكن الرسالة أعم من جهة نفسها ، فالنبوة جزء من الرسالة إذ الرسالة تتناول النبوة وغيرها بخلاف الرسل فانهم لا يتناولون الأنبياء وغيرهم بل الأمر بالعكس . فالرسالة أعم من جهة نفسها وأخص من جهة أهلها .

ويقول شيخ الاسلام ابن تيميه في كتابه النبوات (١) ،فالنبي هو الذى ينبئه الله وهو ينبيء بما أنبأه الله به ،فان أرسل مع ذلك إلى من خالف أمر الله ليبلغه رسالة من الله إليه فهو رسول . وأيا ما كان الأمر في التفرقة بينهما فلا إشكال ،إنما الذى يهمنا في هذا البحث أن النبوة الزام وتكليف للقيام بالرسالة التي هي طائفة من التشريعات والقواعد والقوانين يؤديها الحامل لها والقائم بها الى غيره وكلاهما ـ النبي والرسول ـ قد أعلمه الله بما لا يستطيع العقل درايته من حيث معرفة الله أسماء وصفاتا أو من حيث أوامر الله الى الخلائق بما فيه مصالحهم وفوزهم وفلاحهم .

ولما كان لأمر الرسالة والنبوة شأن عظيم بحيث إن القيام بها يتطلب تحمل وقع الآلام الشديدة والصبر الدائم على أذى الخلائق المدعوة وهذه الصفات تكتسب بالتربية والمراس والتكوين اللائق بحمل العبء الذى سيواجهه النبي ممن يدعوهم ،وبالتالي فالرسل يعدون لمواجهة الشدائد التي تقابلهم من قبل الناس . وقد تكون بداية الصراع من الأهل والولد والأقارب والعشيرة والقبيلة . لمّا كانوا كذلك فهم في حاجة الى مايوطن

---

(١) ص ٢٨١ الطبعة الأولى وانظر تفسير البيضاوى بحاشية الشهاب جـ٦/ ٣٠٥ نشر دار صادر بيروت .

أقدامهم ويطمئن نفوسهم والاختبار بالشدائد موطن تصقل فيه القلوب فتضيء وتصفو به النفوس فتسمو وترق به الطباع فتعلو. إذ كلما اشتد البلاء على المؤمن كلما بلغ شأوا بعيدا في تلك الأخلاق الرفيعة وتأهل للاتصال بالملكوت الأعلى اتصالا مباشرا . ومن هنا كان للأنبياء والرسل النصيب الأوفر في الاختبار بالشدائد وهم القدوة الحسنة في ذلك لغيرهم من الخلق ولئلا يعتقد فيهم أحد الخروج عن الصفة البشرية أونطاق العبودية . ولما كان الأمر كذلك اقتضت حكمة الله أن يكون الأنبياء أكمل البشر في الخلق فأحاطهم برعايته وتولى تأديبهم وتربيتهم فكانوا مثلا في المعاني يقتدى بهم ومصابيح تستضيء الانسانية بنورهم ،نؤيد ما قلناه بالحديث الشريف الذى رواه الترمذى من طريق مصعب بن سعد عن أبيه قال قلت : يا رسول الله ، أى الناس أشد بلاء ؟ قال : الأنبياء ،ثم الأمثل ،فالأمثل يبتلى الرجل على حسب دينه فان كان في دينه صلبا اشتد بلاؤه ،وإن كان في دينه رقة ابتلى على قدر دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة (١) وبما رواه ابن ماجه (٢) من حديث أبي سعيد الخدرى رضي الله عنه ،قال : دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يوعك (٣) فوضعت يدى عليه ،فوجدت حره بين يدى فوق اللحاف

---

(١) أخرجه الترمذى وقال حسن صحيح ،جامع الترمذى شرح المباركفورى كتاب الزهد باب الصبر على البلاء جـ٧/ ٧٨.

(٢) سنن ابن ماجه بتحقيق الأعظمي أبواب الفتن باب الصبر على البلاء جـ٢/ص ٣٨٦ وقال البوصيرى هذا اسناد صحيح رجاله ثقات . كتاب مصباح الزجاجة ص ١٨٨.

(٣) أى مصاب بالحمى انظر كتاب النهاية لابن الأثير جـ٥/ ٢٠٧٠ مادة وعك.

فقلت : يا رسول الله ما أشدها عليك ؟ قال : إنا كذلك يضعف لنا البلاء ويضعف لنا الأجر " . قلت : يا رسول الله ،أى الناس أشد بلاء ؟ قال : الأنبياء . قلت : يا رسول الله ثم من ؟ قال : ثم الصالحون إن كان أحدهم ليبتلى بالفقر حتى ما يجد أحدهم إلا العباءة وإن كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدكم بالرخاء ". وأنا في بحثي هذا سأتعرض لبيان طريقة إعداد الأنبياء لخوض تلك الصراعات بما ابتلوا به ،وسواء كان الذى ابتلوا به من باب التكاليف أو من باب المصائب الحسية أو المعنوية ،وسواء كانت في الجسد أو في النفس حيث قص القرآن الكريم علينا صور بعض ما حدث للأنبياء والرسل والتي فيها بيان اعدادهم بالمشاق التي استمرت تصيبهم ووصف ضروب من البلايا قد جرت على الكثير منهم ولازمتهم حتى انتقلوا الى جوار ربهم

مبحث دعوات الأنبياء واحدة

وقبل البدء في استعراض مواطن الابتلاء الذى تعرض له اولئك الصفوة من بين الناس ، يجدر بنا القول بأن الأنبياء في طريقهم الذى سلكوه ، وهدفهم الذى اشتركوا فيه موحدون غرضهم واحد ودعوتهم واحدة وملتهم واحدة كما قرر ذلك القرآن الكريم في غير ما آية فهم جميعا بصدد تبليغ شرع الله الذى قصرت عقول البشر عن إدراكه ابتداء من دعوتهم إلى توحيد الله عندما انحرف العباد عن ذلك الأصل . وانتهاء بتبصيرهم بما يصلح حياتهم مما سنه الله من شرائع تختلف حسب حاجة الناس في الظروف الزمانية والمكانية إلى أن اكتمل البناء الاسلامي

كما أخبر صلى الله عليه وسلم بذلك فيما يرويه البخارى من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ان مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله الا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ؟ قال : فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين ".(١) فاكتمل البناء بارسال أفضل الخلق للناس كافة فكانت رسالته عامة لجميع البشر صالحة لكل زمان ومكان الى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، تتسم بالمرونة في أصولها والشمول في فروعها ، نستدل لذلك بكل اطمئنان من القرآن الكريم في قوله عز من قائل ﴿ واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا ، ليسئل الصادقين عن صدقهم وأعد للكافرين عذابا أليما ﴾(٢) .
وقوله تعالى ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه ، الله يجتبي إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب ﴾(٣) ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾.(٤)

---

(١) صحيح البخارى بشرح فتح البارى ج٦/ ٥٥٨ ، المناقب باب خاتم النبيين .

(٢) سورة الأحزاب آية ٧ ، ٨ .

(٣) سورة الشورى آية ١٣ .

(٤) سورة الأنبياء آية ٢٥ .

وقول الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم : "الأنبياء اخوة لعلات[١] أمهاتهم شتى ودينهم واحد".[٢]

فهذه الآيات والحديث الشريف، كلها بينت وحدة منهج الأنبياء، وأن رسالتهم ذات هدف موحد حيث أخذ الله عليهم العهود والمواثيق في إقامة شرع الله وتبليغ رسالته فكان نهجهم في إقامة البنيان الاسلامي مسلسلا متصلا ينبع من مشكاة واحدة، فكلما قضى رسول فترته اللازمة حسب المكان والزمان كلما خلفه آخر يكمل ما بقي الى الخاتمة العامة فهم مشتركون في الدعوة إلى الاسلام، فاللاحق منهم مصدق للسابق ومناصره، وشاهد لمن صدق به، وعلى من كذب به كما قال عز وجل

﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيناكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال ﴿ أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ﴾.[٣]

فالآية الكريمة تقرر بجلاء على أن الرسل في ارتباط دائم فيما يبلغون من رسالات لتوحيد الله متعاقدون جميعا على الوفاء فيما أخذ عليهم فهم في دعوتهم متفقون إلا أنهم فيما يلاقونه من امتحان خاص قد تنوعت أشكاله وتعددت مضاربه كانوا متفاوتين . وعلى قدر ضخامة المشقة يعظم الثواب والجزاء . صحيح أنهم اشتركوا جميعا في أنهم

---

(١) أولاد العلات الأخوة أبوهم واحد وأمهاتهم مختلفات . والمراد من الحديث الشريف أن الأنبياء إيمانهم واحد وشرائعهم مختلفة . انظر النهاية لابن الاثير جـ٣ / ٢٩١ . وانظر فتح الباري جـ٦ / ٤٨٩ .

(٢) جزء من حديث أخرجه البخاري من رواية أبي هريرة رضي الله عنه في كتاب الأنبياء . فتح الباري جـ٦ / ٤٧٨ .

(٣) سورة آل عمران آية ٨١ .

لحقهم الأذى من أقوامهم وأنهم في غالب الأمر يقابلونهم بالنكران والجحود وصحيح أن الابتلاء سمة بارزة في حياة كل منهم غير أنهم اختلفوا في لون ما يلقونه من صنوف ذلك الابتلاء ، فآدم أبو البشر وأول نبي كما جاء في الخبر من حديث أبي أمامة رضي الله عنه : " أن رجلا قال : يا رسول الله أنبي كان آدم ؟ قال : نعم معلم مكلم ، قال : كم بينه وبين نوح ؟ قال : عشرة قرون . قال : كم بين نوح وابراهيم ؟ قال : عشرة قرون ، قالوا : يا رسول الله ، كم كانت الرسل ؟ قال : ثلاثمائة وخمس عشرة جما غفيرا ".(١)

ابتلاء الله بالأوامر التكليفية ، وهذا في نظرى يدل على أن صنوف الامتحان الذى يتعرض له الانسان متأصلة من الابتلاء بالتكليف ، يؤيد هذا ما جاء من التحذير الالهي والذى جاء فيه الخطاب لبني آدم عموما حيث قال العليم الخبير ﴿ يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ﴾(٢) ، فالتكليف كما هو معلوم إما منظم لشهوات النفس البشرية ، وإما لمحض الابتلاء كما مر بيانه .

مبحث ابتلاء آدم : وآدم عليه الصلاة والسلام كلف لمحض الابتلاء حيث أكرمه الله بالدخول إلى جنة فيها نعيم مقيم بدون تعب .

فأمره عز وجل بأن لا يأكل هو وزوجه من شجرة لا ندرى من أي الأشجار هي وليس في تعيينها كبير فائدة كما قال ذلك بعض المفسرين .

---

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه وقال صحيح على شرط مسلم وأقره الذهبي كتاب التفسير جـ٢ / ٢٦٢ .

(٢) سورة الأعراف آية ٢٧ .

وإنما الفائدة في الآيات الكريمات الآتي ذكرها الله عز وجل أنه حذر آدم من الأكل منها وجعله ظلما وغواية بل حذره من الاقتراب منها دع عنك الأكل منها وذلك مبالغة في الزجر عن الأكل منها ،فيأتي دور إبليس عليه لعائن الله ،وتحصل الكارثة المرة فينسى آدم عليه السلام ويوسوس له الشيطان مقسما على أنه من الناصحين له وأنه يريد له ولزوجه الخلد فأزلهما بإلحاحه وتماديه في الغرور بهما بأن الخلد في الأكل من الشجرة ،وآدم إنسان مجبول على حب الخلد ،الأمر الذى اتخذه إبليس طريقا لاضلال آدم وابعاده عن طريق السعادة بدون المرور من مرحلة الشقاء فجاءه من باب الشهوة ، وغلبه وزوجه ،فأقدما على مخالفة الأمر الالهي نسيانا دون رويةٍ ، ونظر في عاقبة الأمر فوقع ما كان سببا في الهبوط إلى دار الشقاء وعالم الفساد حيث سلب آدم ما تفضل الله به عليه من نعمة الراحة والاستقرار بانزاله الى دار الابتلاء وذلك بعد أن تاب آدم وحواء واعترفا بما ارتكباه من ظلم بمخالفة الأمر الالهي كما قال عز وجل ﴿ وقلنا يآدم أسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ، فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع الى حين ،فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم ﴾ (١). والمراد بالكلمات في قوله تعالى ﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات ﴾ هي قول آدم كما حكى القرآن الكريم ﴿ قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾ وهو المنقول عن ابن عباس (٢).

---

(١) سورة البقرة آية ٣٥، ٣٦، ٣٧.

(٢) روح المعاني للالوسي م١/ج١/ص٢٣٧.

وكما قال عز وجل ﴿ ويآادم أسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما ورى عنهما من سوءتهما ،وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين. وقاسمهما إني لكما من الناصحين ،فدلاهما بغرور ،فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ،قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ (١) وقال عز وجل ﴿ ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما. وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى ، فقلنا يآادم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ،إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى ،وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى ،فوسوس إليه الشيطان ، قال يآادم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ،وعصى آدم ربه فغوى ، ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى ﴾. (٢)

وعلى أثر هذه الواقعة المرة بين الله لآدم ولذريته من بعده أن عداوة إبليس وذريته متأصلة ومستمرة لبني آدم حتى يوم القيامة

---

(١) سورة الأعراف آية ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤.

(٢) سورة طه آية ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢.

فحذرهم من تكرير التجربة الأولى وهي إغواء الشيطان لأبي البشر آدم حيث اتبعه فخسر ما كان فيه من نعيم مقيم وجنة خلد لا يظمأ فيها ولا يضحى ولا يجوع فيها ولا يعرى فبين الله للانسان أن أمامه في هذه الحياة طريقين : طريق الهدى التي تؤدى إلى الأمان من الخسران لمن التزمه واتبعه ، وطريق الضلال الذى يسلك بصاحبه إلى بؤرة الهلاك والخسران وسوء العقبى في الآخرة فيظل بذلك يتخبط في درك الشقاء ، فالهدى والضلال إذن محوران في مسيرة الانسان يبتلى من خلالهما. تلك قضية أرشد الله إليها الانسان اثر خسرانه في التجربة الأولى وذلك حتى لا يتكرر منه الظلم لنفسه فيخسر النعيم الذى في تلك الجنة مرة أخرى ،ومن وسوسة العدو الأول الشيطان أيضا ، ذلك ما نتلوه في القول الكريم ﴿ قلنا اهبطوا منها جميعا فاما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ،والذين كفروا وكذبوا بآيتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾.(١) وقوله سبحانه ﴿ يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءتهما إنه يريكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ﴾(٢) وفي قوله عز وجل ﴿ قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو ، فاما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيمة أعمى . قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت

---

(١) سورة البقرة آية ٣٨، ٣٩.
(٢) سورة الأعراف آية ٢٧.

بصيرا قال كذلك أتتك آيـٰتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ، وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى * (١)

فمن خلال هذه الآيات الكريمة نرى أن الهدى والضلال هما المعيار لمنزلة الانسان في هذه الحياة ، فأى أمة نضجت في الفكر والتعقل يجب أن يكون تحركها ووجهتها منطلقين من نظرتها الى القضيتين اللتين أعلن الله عنهما حينما أنزل آدم لخوض معركة الحياة فوق هذه البسيطة وهما الضلال والهدى ، لأن أتباع الشيطان الذى حذر الله الانسان من إغوائه وأخبره بأن العداوة بينهما مستمرة ضلال . فالاعراض عن هذا التحذير سيؤدى بالانسان لا محالة الى الخسران الذى هو ثمرة الضلال ، ذلك الخسران الذى ينتهي بالانسان الى الخلود في النار بعد ما يميز بين أهل الهدى وأهل الضلال ، ثم يأتي بعد ذلك التبكيت والتقريع من الله عز وجل للذين أعرضوا عما حذرهم من الوقوع فيه وهو اتباع الشيطان الذى أدى بهم الى الخلود في الهاوية وذلك ما نجده صريحا في قوله جل من قائل * ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون ، هذه جهنم التي كنتم توعدون اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون *. (٢)

---

(١) سورة طه آية ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧.

(٢) سورة يس آية ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤.

كما أن اتباع الهدى الذى هو شرع الله عقيدة وعملا ثمرته السعادة وذلك للذين لم تؤثر فيهم نزغات الشيطان بل هم في اتصال مستمر بربهم كما قال عز وجل ﴿ إن الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون ﴾ (١) فهم دائما يعيشون طوال حياتهم الدنيوية على يقظة وحذر من عدوهم ابليس اللعين لائذين بربهم ملتجئين اليه .

وهكذا يتضح لنا أن الابتلاء في قصة آدم يعطينا :

أ - أن الشيطان عدو للانسان وأن متابعته سبب في الخسران وأن مخالفته تجلب الفوز والنجاة للانسان.

ب - أن الهدى والضلال أمران يجب النظر إليهما في الفكر الانساني بأنهما أصلان في مسيرة حياة كل امرىء ،بمعنى أن الرحلة الانسانية في الحياة الدنيا لا يمكن أن يحالفها النجاح من حيث انتصارها على العدو الشيطان إلا إذا انطلقت في ذلك التحرك وهي على بصيرة وعلم منهما وايمان بمقتضياتهما وأن حياته الأخروية رهينة بوجهته وسلوكه في سبيل أحدهما .

جـ - أن الانسان اذا أخفق في الابتلاء أحيانا فمن كرم الله عليه أنه أعطاه فرصا وهيأ له مسالك النجاة حتى يخرج من ورطته ويسترد رشده . وحينما يقع في خطر الضلال ينظر فيما وقع فيه فان رجع إلى محور الهدى غفر له ما وقع فيه من خطأ وفتحت له الأبواب

---

(١) سورة الأعراف آية ٢٠١ .

ليستدرك ما فاته من مخالفة في منهج الهدى وإن لم يرجع فمصيره مصير الخاسرين كما سبق بيانه آنفا والانسان في أول نشأته على هذه الأرض ظل فترة غير قصيرة من الزمن محافظا على العهد والميثاق فكان الناس على الفطرة السليمة والوجهة القويمة في مخالفة الشيطان عدوهم وهم على هذا إلى عهد نوح فاختلف الناس في الحق والهدى وضلوا عن سواء السبيل وانحرفوا عن الفطرة فاختار الله الرسل الى العباد ليبينوا للناس جميع ما اختلفوا فيه من الحق والهدى واستهلت بداية قافلة الرسل بإرسال نوح عليه السلام الذى اصطفاه الله للرجوع بالناس إلى طريق الهدى كما قال عز وجل ﴿ إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العلمين ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم ﴾(١) فنوح كان تاليا لآدم في الاختيار ،فأرسله الله الى قومه ومكث يدعوهم تسعمائة وخمسين سنة وهي فترة لم نخبر بأطول منها في حياة أى نبي مما قص الله علينا ،ودعوة استغرقت ألف سنة الا خمسين جديرة بأن تكون فترة لابتلاء نوح عليه الصلاة والسلام وذلك مايظهر في أنه امتثل أمر الله وثابر مدة طويلة مع قومه فلم ييئس ولم يتضجر رغم مجادلتهم له دهرا طويلا بحيث سلك معهم سبل الاقناع بالحجج الواضحة وانذرهم الوقوع في العقاب ورغبهم في الأجر والثواب فلم تضعف قناته أو يلين الحق في جانبه . فأعرضوا وقابلوا ذلك كله بالاستكبار والعناد والتهديد بالرجم والقتل كل ذلك ولم يثن عزمه

---

(١) سورة آل عمران آية : ٣٣ ، ٣٤ .

بل ناضلهم وصابرهم متجلدا في الليل والنهار والسر والعلانية يقارعهم الحجة بالحجة حتى أخبره العليم الحكيم بعدم إيمان قومه ،وأمره بصنع سفينة النجاة من العذاب المنتظر كما قال عز وجل ﴿ وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون ﴾. (١)

مبحث ابتلاء نوح بولده : وبعد تلك الفترة الطويلة التي قاسى فيها نوح مرارة المكابرة ونكران الحق الواضح ،نجد أن نوحا عليه الصلاة والسلام يمر مرة أخرى بامتحان وبلاء عظيم يأخذ بصميم الفؤاد - فقلما يثبت فيه الانسان.

امتحان من جهة الولد ، امتحان في حشاشة قلبه،ولب عاطفته فما كاد يسلم من بلايا قومه حتى ابتلي في ابنه كما ابتلي من قبل في امرأته فكان مصيرها الغرق.وذلك أنه يرى الغرق قد أحاط بفلذة كبده فغلبته العاطفة الأبوية واتجه الى الله مستغيثا طالبا النجاة لابنه ظانا أنه من أهله بناء على الرابطة النسبية ،وما كان يدرى أو ذهل عن الحقيقة التي بنيت عليها الروابط في سنة الله الحقة ، رابطة العقيدة التي هي العماد في كل رابطة ، فلا قيمة لأى علاقة إلا على ركيزة العقيدة . وهكذا نرى أن نوحا عليه الصلاة والسلام كادت العاطفة الأبوية توقعه في الخطأ حيث نادى ربه لينجي ابنه الذى حاد عن الصواب وسلك سبيل الكفر وتنكب عن طريق التوحيد فحقت عليه كلمة

---

(١) سورة هود آية ٣٦ ، ٣٧.

العذاب مع من قد حقت عليهم ولذلك حذر الله نوحا أن يقع في الخطأ فوعظه بأن ابنه ليس من أهله الذين وعده بانجائهم معه في السفينة لأنه كفر وجحد نعمة الله وعاند ، فقد عصا أباه حين ناداه ليركب معه في سفينة الايمان فامتنع وأبى وفر إلى الجبل ظانا أنه سينجيه من الهلاك ويعصمه من الماء فكان من المغرقين. كما قال عز وجل

﴿ ونادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين ، قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسئلني ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين قال رب إني أعوذ بك أن أسئلك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين ﴾.(١)

فالآية الكريمة تخبرنا بأن نوحاً نادى ربه طمعا في نجاة ابنه لا سيما أن الله وعده بانجاء أهله في قوله: ﴿ قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك الا من سبق عليه القول ومن آمن وما ءامن معه الا قليل ﴾.(٢) فنوح أمام العاطفة الأبوية ذهل عن الاستثناء ولذلك نبهه الكريم الى أنه ليس من أهله. وليس المقصود بنفي الأهلية نفي البنوة النسبية ، لأن السياق يناقض هذا الزعم وذلك أن نوحا في تضرعه إلى الله رجاء أن يعلم حال ابنه ﴿ فقال رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق ﴾ فيلاحظ أن نوحا ذكر البنوة ثم الأهلية فكان النفي في الرد الكريم منصبا على الأهلية فقط. ولو كان المقصود نفي النسب بينهما

---

(١) سورة هود آية ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧.

(٢) سورة هود آية ٤٠.

لكان النفي الالهي منصبا على البنوة أيضا وقبل ذلك أثبت السياق الكريم البنوة التي نادى نوح ابنه بها حيث يقول العليم الخبير : * ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين *(١) فقوله عز وجل : * ونادى نوح ابنه * فيه اثبات البنوة للمنادى من قبل الله العليم. وهذا يؤكد أن الأهلية المنفية في السياق الكريم أهلية العقيدة والحزب . فابن نوح سلك حزب الكفر فكان من أهله الذين سبق عليهم القول ، ولذلك ما يعزى للحسن البصرى وغيره من نفي البنوة باطل وغير لائق بمقام النبوة والقول بأنه ابن زنى أخذا من قوله تعالى * انه عمل غير صالح * أخذ رده علماء التفسير(٢) بما لا مجال للشك في بطلانه وفساده فالضمير يرجع الى ابن نوح بناء على معنى أن سلوكه طريق الكفر عمل فاسد . يؤيد هذا المعنى قراءة ابن عباس وعلي وعائشة رضي الله عنهم(٣) عمل بصيغة الماضي ونصب غير.

فالقول في معنى * إنه عمل غير صالح * إنه كان ابن زنى بعيد جدا اذ معناه على حذف مضاف أى ذو عمل كقول الخنساء :

ترتع ما رتعت حتى اذا ادكرت   فانما هي اقبال وادبار(٤)

أى ذات إقبال وادبار . فالذى يجب المصير إليه أنه كان ابن نوح لكن عمله غير صالح وعقيدته فاسدة ، فنوح عليه السلام - اذن - ابتلي من جهتين .

---

(١) سورة هود آية ٤٢ .

(٢) جامع القرطبي جـ٩/ ٤٦ وانظر ابن كثير جـ٢/ ٤٤٨ .

(٣) البحر المحيط لابي حيان جـ٥/ ٢٢٩ الطبعة الثانية .

(٤) ديوان الخنساء ص ٤٨ نشر دار بيروت للطباعة والنشر.

١ - ابتلي بطول المدة التى قاسى فيها مع قومه مرارة العناد والاستكبار إلى درجة أن قومه ملوا من دعوته إياهم كما جاء في قول الله عز وجل ﴿ قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴾.(١) مكث يتحمل صلفهم واعراضهم ألف سنة الا خمسين عاما كما جاء في قوله عز وجل ﴿ ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما فأخذهم الطوفان وهم ظالمون فأنجيناه وأصحاب السفينة. وجعلناها آية للعالمين ﴾.(٢)

٢ - وابتلي بفقد ولده حتى كاد أن يقع في الخطأ بدافع الشفقة الأبوية لولا أن الله أدركه برحمته فبين له العلاقة التي ينبغي النظر إليها والتي هي الميزان في التعامل والصلة والقرابة هي علاقة الاعتقاد لا علاقة النسب فلا عبرة بها اذا اختلفت الاتجاهات العقدية حتى ولو بين الوالد والولد.

وبعد التعرف على مواقف نوح عليه الصلاة والسلام فيما ابتلي به نتبعه ببيان مواطن الابتلاء في حياة أبي الأنبياء ابراهيم عليه الصلاة والسلام وذلك لأن الله لما ذكر اصطفاء نوح أتبعه بذكر اصطفاء الله ابراهيم كما في قوله عز وجل ﴿ إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين ﴾(٣)

---

(١) سورة هود آية ٣٢.

(٢) سورة العنكبوت آية ١٤، ١٥.

(٣) سورة آل عمران آية ٣٣.

وابراهيم عليه الصلاة والسلام قد جزم القرآن الكريم بوفائه وتوفيته فيما ابتلي به من تكاليف حيث يقول عز وجل ﴿ وابراهيم الذى وفى ﴾ (١) ويقول جل من قائل ﴿ واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن ﴾ (٢) وفي هاتين الايتين وقع الاعلان صراحة بالشهادة لابراهيم على قيامه بالتكاليف التي ابتلى بها مما جعله في مقام الامامة للناس . فالمراد بالكلمات في الآية الكريمة التكاليف باتفاق المفسرين الا أنهم اختلفوا في تحديدها غير أن المتأمل حينما ينظر في تلك الأقوال يجدها لا تخرج عد كونها أوامر ونواه كرواية سعيد بن جبير عن ابن عباس قال الاسلام ثلاثون سهماً وما ابتلى بهذا الدين أحد فقام به كله غير ابراهيم ابتلي بالاسلام فأتمه فكتب الله له البراءة فقال ﴿ وابراهيم الذى وفى ﴾ (٣) وكالقول بأنها مناسك الحج وغير ذلك مما استعرضه الامام ابن جرير وهي كلها كما قلت : لا تخرج عن كونها أوامر ونواه ولا دليل يستند عليه في تخصيص بعض الأوامر دون بعض. (٤) والذى يعنينا أن ابراهيم عليه السلام ابتلي كما أخبر الله عز وجل ونجح في ذلك بحيث أتم ما أمر به بل وفاه. ويكفي ابراهيم عليه السلام في علو المقام وشرف الخصال والتمييز فيما بينه وبين الأقران ما تعرض له من تضحيات جسام في النفس والولد والوالد والأهل بحيث انتهى المطاف بقومه الى الاستكبار والغرور

---

(١) سورة النجم آية ٣٧.

(٢) سورة البقرة آية ١٢٤.

(٣) أخرجه الحاكم في مستدركه وقال صحيح الاسناد وأقره الذهبي ج٢/٥٥٢ كتاب التاريخ.

(٤) انظر تفسير ابن جرير بتحقيق محمود محمد شاكر ج٣/٨ ط/دار المعارف مصر.

بعد أن أخرسهم بالحجة والبرهان وسفه أحلامهم وحطم أصنامهم لاظهار بطلان دعاويهم أن يلتجئوا الى القوة المبنية على الظلم والكبر والبطش واتباع الهوى . فأجمعوا على احراق ابراهيم عليه الصلاة والسلام . وهنا يشتدالبلاء على أبي الأنبياء فنجده أصلب عودا وأخلص طلبا وأرحب صدرا .
فحينما قض ابراهيم مضاجعهم وزلزل مراكزهم سارعوا بجموعهم الى الاتيان بالحطب فأضرموا نارا عظيمة عظم حقدهم المتأجج في صدورهم ظنا منهم أن القضاء على ابراهيم سيتم في احراقه ، وهكذا رموه في نار استعر لهيبها فلم يستطيعوا الاقتراب منها ليرموه بأيديهم فاضطروا لرميه فيها بالمنجنيق (١) وهو يردد قوله " حسبنا الله و نعم الوكيل " كما جاء في حديث ابن عباس قال : " كان آخر قول ابراهيم حين القي في النار "حسبي الله و نعم الوكيل " (٢) . ويأتيه المدد من عند الله فيأمر النار أن تكون بردا وسلاما عليه مما جعل أعداءه يخسرون حيث إن نارهم قد خبت وصار أوارها رمادا وحرها عليه بردا وسلاما ونجى الله رسوله وخليله ابراهيم الى الأرض المباركة وانتهى الأمر بهزيمتهم فرد الله كيدهم بعد أن غلبهم وأفحمهم بالحجج القاطعة كما قص الله علينا في قوله عز وجل ﴿ قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على ابراهيم وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين ، ونجيناه ولوطا إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين ﴾ (٣)

---

(١) هو آلة ترمى بها الأشياء والقائم عليها يسمى جانق وهو الذى يرمى بها . انظر كتاب النهاية جـ١/٣٠٧ .
(٢) أخرجه البخارى في صحيحه انظره بشرحه فتح البارى جـ٨/٢٢٩ كتاب التفسير .
(٣) سورة الأنبياء آية ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ .

وفي قوله عز وجل ﴿ قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه في الجحيم . فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين ﴾ (١) ، وفي قوله عز وجل ﴿ فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أوحرقوه فأنجاه الله من النار إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾. (٢)

وينجو ابراهيم من كيد أعدائه الذين نصبوا له العداوة من أجل أنه بين لهم الحق ودعاهم الى الاستمساك به. وفي ثبات ابراهيم وصبره قدوة للمؤمنين الذين يلاقون من أعدائهم صنوف الأذى وأنواع المكر ،فلم يجزع وهو مأخوذ لالقائه في النار بل كان في أعلى درجة من التوكل على الله وفي أجل وأصدق صورة من الثقة بالله الذى من التجأ اليه مخلصا نصره لا محالة .

ويخرج عليه الصلاة والسلام من محنته هذه منتصرا ضاربا أروع مثل في الجود بالنفس في سبيل العقيدة الحقة ، غير أن العظماء ما يفتأون يتنقلون بين المحن فما يخرج خيرهم من محنة حتى يلاقي أخرى وذلك ليظهروا في أعلى صور الايمان وليزدادوا كمالا وترقيا في الطاعة والانقياد لرب العالمين وها هو ابراهيم عليه السلام يدخل مرة أخرى في تضحية تأخذ من أعماق قلبه وحشاشة كبده فما طوى صفحة التضحية بالنفس في سبيل اقامة الحق حتى بدأ صفحة جديدة يبتلى من خلالها بالتضحية بفلذة كبده فيؤمر مناما بذبح ولده اسماعيل الوحيد وذلك بعد أن ابتلى بتركه وأمه في بلد قفر لانبات به ولا شجر ولا ماء

---

(١) سورة الصافات آية ٩٧ ، ٩٨ .
(٢) سورة العنكبوت آية ٢٤ .

ولا أنيس مستسلما لقضاء الله ومتوكلا على الله في حفظهما ومن توكل على الله لن يضيعه أبدا وحفظ الله لابراهيم زوجته وولده فكان يزورهما بين الفينة والغينة حتى أمر بذبح وحيده ، ومتى أمر بذلك حينما كبر و هرم وأصبح في أمس الحاجة الى فريده ، فمن ذا الذى يتحمل هذا الأمر العظيم ﴿ إن هذا لهو البلاء المبين ﴾ حقيقة المحنة عظيمة ،وهي تأتي الانسان على قدر منزلته فيمتحن المرء على قدر ايمانه في العمق والاخلاص . فالأمر بذبح الولد الوحيد أمر يزلزل الأطواد الراسية ويبلغ بالقلوب الحناجر . وابراهيم عليه الصلاة والسلام نراه وهو في هذا الموقف يبوح بما لا تتحمله الجبال لابنه الوحيد ﴿ يا بني إني آرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين ﴾ (١) نعم استسلم ابراهيم الأب وسلم اسماعيل الابن نفسه ، كل ذلك في ثبات واطمئنان و يتناول ابراهيم عليه الصلاة والسلام الذبح بنفسه فيمر بالسكين على قفا ابنه . انه الابتلاء العظيم الذى كشف عن علو منزلة ابراهيم الذى شهد له القرآن بأنه أمة ﴿ إن ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين ﴾ (٢) . وفي حينها تأتي رحمة الله فتدرك الأب والابن فيفدى الابن ويجزى الأب على امتثاله ببقاء ابنه الوحيد وتمضى سنة الاضحية للعبرة في الامتثال والأخذ بطريق الايمان ،ويخرج أبو الأنبياء عليه الصلاة والسلام من محنة تلو محنة في ثبات وعزم يذران الجبال تلين وتنهد . وذلك ما نتلوه

---

(١) سورة الصافات آية ١٠٢ .

(٢) سورة النحل آية ١٢٠ .

في القول الكريم ﴿ وقال إني ذاهب الى ربي سيهدين ،رب هب لي من الصالحين ، فبشرناه بغلام حليم ،فلما بلغ معه السعى قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين ،فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن يا إبراهيم ،قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين ، إن هذا لهو البلاء المبين ،وفديناه بذبح عظيم ،وتركنا عليه في الاخرين ،سلام على إبراهيم ،كذلك نجزى المحسنين ،إنه من عبادنا المؤمنين ﴾ (١) .

يمر إبراهيم - كما صورت لنا الايات الكريمات - من أصعب الاختيارات في حياة الانسان فأخلص مؤديا ما كلف به في غير تلكؤ أو تردد بل استسلم لأمر الله وانقاد لطاعته فتجاوز فترة المحنة بنجاح وهذا يوضح لنا معنى من معان الابتلاء من حيث الحكمة فحينها فاز ابراهيم ونجح وظهرت قمة ثباته وعمق صبره في انقياده واستسلامه المطلق ينقلب البلاء رحمة والشدة رخاء وهذا يثبت لكل مؤمن يصدق في ايمانه ويستسلم لأوامر ربه ،فهو وعد من الله لجميع عباده المؤمنين ﴿ كذلك نجزى المحسنين ﴾ .

مبحث ابتلاء يعقوب وبعد نجاح ابراهيم أبي الأنبياء ،نرى الامتحانات تتوالى في سلسلة آل ابراهيم ،اسماعيل الذبيح الذى وصفه القرآن الكريم بالحلم حيث قال عز وجل ﴿ فبشرناه بغلام حليم ﴾ (٢) ويعقوب حفيده الذى ابتلى بفقد ولديه وهما أعز أولاده عليه يتذرع بالصبر الجميل غير

---

(١) سورة الصافات آية ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩ ، ١١٠، ١١١ .

(٢) سورة الصافات آية ١٠١ .

متشكك ولا جزوع بل لم ييئس من رجوعهما اليه حيث كان يظن أن أبناءه كذبوا عليه كما يظهر في قوله عز وجل ﴿ وجاءوا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ﴾(١) قال ذلك عند فقده ليوسف وعند فقده لأخيه فلم يقتنع بما قالوه له من أمر العزيز وظن أنهم صنعوا به مثل صنيعهم بيوسف فيقول كما جاء في قول الله عز وجل ﴿ قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعا إنه هو العليم الحكيم ﴾(٢) ورغم ذلك فقد بكى سنين طويلة حزنا على فقد ابنه يوسف حتى ابيضت عيناه من الحزن وهو كظيم لكنه لم ييئس من رحمة الله بما حل به من شدة وحزن بل يأمر ابناءه بالبحث والتحسس من أخويهما كما قال عز وجل ﴿ يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله ، إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾(٣) . ويمن الله على يعقوب بعودة أبنائه اليه كما كان يرجو . يعودون اليه وقد امتحن حقبة من الزمن بما جعله من الأنبياء الطاهرين . والأبرار المحسنين فجمع الله شمله مع أبنائه بعدما ضرب المثل الأعلى في الصبر على البلاء وفي الايمان بالقضاء والقدر ومن كان كذلك هانت عليه الشدائد ولانت في طريقه الصعاب وبالتالي تبوأ المكانة العليا في زمرة المحسنين يقول الله عز وجل ﴿ فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين ﴾(٤) . ويمضي الابتلاء متواليا في آل ابراهيم فبعد استعراض صبر يعقوب على ما لاقاه من حزن وكمد في فقد

---

(١) سورة يوسف آية ١٨ .
(٢) سورة يوسف آية ٨٣ .
(٣) سورة يوسف آية ٨٧ .
(٤) سورة يوسف آية ٩٩ .

ابنه يوسف وأخيه ننظر فيما تلقاه يوسف في ذاته وما امتحن به في مخالفة شهوات نفسه مما أصابه من مكر زوجة العزيز، تحمل يوسف عليه الصلاة والسلام القسط الأكبر من الشدائد والاختبارات من بين هذه السلسلة كيف لا وقد وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : " الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم "(١) فهذا التكريم لم يجمع لغير يوسف فهو نبي بن نبي بن نبي بن نبي ،وكلما تأصل الانسان في الفضائل كلما كانت الاختبارات أشد وأبلغ ،فيوسف عليه الصلاة والسلام من الله عليه بالثبات في مواقف تدل على شموخه في الفضيلة وعلى صفاء عنصره في الكمال. فها هو عليه الصلاة والسلام في بداية طفولته يمتحن بقساوة اخوته من باب الحقد والاحن ،فأقرب الناس اليه يجمعون على القائه في غياهب الجب فيلتقط و يباع قنا كما جاء في قوله عز وجل ﴿ إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب الى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفي ضلال مبين ،اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين ،قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابات الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين ﴾(٢) . وفي قوله تعالى ﴿ وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يبشرى هذا غلام وأسروه بضاعة والله عليم بما يعملون ،وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين ﴾ .(٣)

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه بشرحه فتح الباري من حديث عبدالله ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم ،فتح الباري جـ٨/ ٣٦١ كتاب التفسير باب ويتم نعمته عليك .

(٢) سورة يوسف آية ٨ ، ٩ ، ١٠ .

(٣) سورة يوسف آية ١٩ ، ٢٠ .

ويقيض الله ليوسف من يكرمه ويحسن إليه فاشتراه عزيز القوم وجعله في مكانة الاحترام ووصى أهله بأن لا يزجر ولا يضام فأكرمه الله من حيث أريد به الشر وبوأه مكانا عاليا حيث أريد به الاهانة والذل وهذا يعطينا أن الله حينما يريد أن يجعل للانسان مكانة خاصة لا يستطيع العبد أن يمنعها أو يحجزها عن صاحبها لأن الله القاهر فوق عباده اذا أراد شيئا فلا يرد ولا يمانع ولا يخالف فهو الغالب على كل شيء وذلك ما حصل لنبي الله يوسف كما أخبر سبحانه في قوله : ﴿ وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث ،والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما ،وكذلك نجزى المحسنين ﴾.(١)

ولم يكد نبي الله يوسف ينجو من محنة الجب حتى دخل في محنة الاختبار من باب الشهوة فيدعى مراودا من قبل سيدته التي لها عليه الأمر والنهي . امرأة ذات منصب وطاعة من جهة صاحب السلطة في المجتمع فسلطت عليه جميع ما تملك من وسائل القهر ليـنصاع لمطالبها بل ألبت عليه نسوة أشراف القوم كما قال عز وجل ﴿ فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكئا وءاتت كل واحدة منهن سكينا وقالت أخرج عليهن ،فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم قالت فذلكن الذى لمتنني فيه ، ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ،ولئن لم يفعل ما ءامره ليسجنن وليكونا من الصاغرين ﴾(٢)

---

(١) سورة يوسف آية ٢١ ، ٢٢ .

(٢) سورة يوسف آية ٣١ ، ٣٢ .

وهوء لاء النساء هن الأخريات يبتلى بهن يوسف عليه السلام ويدعونه لتلبية طلب سيدته وقد سبق أن جعلته في موقف جميع دواعي ارتكاب المعصية ميسرة فيه غلقت الأبواب وأسدلت الأستار وخلت الأماكن إلا منهما كما قال عز وجل ﴿ وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواى إنه لا يفلح الظالمون ﴾(١) . وهنا يتجلى موقف يوسف عليه الصلاة والسلام ،موقف كان صلبا تجاه تلك المكيدة حقيقة لا يمكن لأحد أن ينكر أن يوسف بشر قد تميل نفسه بناء على طبيعته البشرية . يقول ابن قتيبة :(٢) " وهم نبي الله صلى الله عليه وسلم هما عارضا بعد طول المراودة ،وعند حدوث الشهوة التي أتى أكثر الأنبياء في هفوا تهم منها " اذن لا مانع من أنه قد يفكر في الميل إليها وهو المملوك المحاط بكل ما يجعله في موقف الضعف . نعم قد تميل نفس النبي ميلا طبيعيا كأى انسان الا أن الأنبياء قد أحاطهم الله بالعصمة فلا يقعون في معصية عن عمد وهذه الحقيقة يشير إليها قوله عز وجل ﴿ ولقد همت به وهم بها لولا أن رء' برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ﴾(٣) . فيوسف عليه السلام لما تيقن قبح الفاحشة وعاقبة التمرد والعصيان لأوامر الله ازداد صلابة أمام الاغراء ،رغم ما كان فيه من ضعف مادى كما أنه قوى على مخالفة الشيطان أمام اصرار المرأة على الايقاع به في شرك كيدها : يوء يد هذا أنه عندما فرمنها مزقت

---

(١) سورة يوسف آية ٢٣.

(٢) تأويل مشكل القرآن لعبدالله بن مسلم بن قتيبة ص ٤٠٤ ، نشر دار التراث القاهرة .

(٣) سورة يوسف آية ٢٤.

ثوبه كما جاء في قوله عز وجل ﴿ واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدا الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم ﴾ (١). وهذا الموقف يدل على بطلان ما يقال: إنه جلس بين شعبها الأربع وغير ذلك من الأقوال التي لا صحة لها والتي تخالف النص القرآني الصريح في بيان مواقف يوسف من محنته فامرأة العزيز نفسها وصفته بقولها "فاستعصم" يقول الزمخشري في كشافه (٢): الاستعصام بناء مبالغة يدل على الامتناع البليغ والتحفظ كأنه في عصمة وهو يجتهد في الاستزادة منها، كما أن الله شهد ليوسف بأنه من عباده المخلصين. وأيضا امرأة العزيز تعترف بأنه من الصادقين وأنها هي التي راودته كما شهدت صويحباتها اللواتي قطعن أيديهن لما رأينه ببراءته من السوء وذلك ما أخبر الله عز وجل به حيث قال ﴿ قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين ﴾ (٣) وهذا كله يدل صراحة على براءة يوسف وعصمته من أن يقع في شيء من ذلك. صحيح قد يميل انطلاقا من طبيعته البشرية ميلا قلبيا ويؤيد هذا قوله في دعائه ﴿ وإلا تصرف عني كيدهن أصب اليهن وأكن من الجاهلين ﴾ (٤)

---

(١) سورة يوسف آية ٢٥.

(٢) جـ٢ / ٢٥٤ نشر دار المعرفة الرياض.

(٣) سورة يوسف آية ٥١.

(٤) سورة يوسف آية ٣٣.

فالانسان إذن في طبيعته البشرية ضعيف أمام المغريات اذا لم يتذرع بالخوف من الله ممتثلا شرع الله ، ويوسف عليه الصلاة والسلام بشر قد يميل ميلا قلبيا وهذا ما نرتضيه في تفسير قوله عز وجل ﴿ ولقد همت به وهم بها لولا أن رءا برهان ربه ﴾ فهمه بها من حيث ميله لها انما هو بمقتضى الطبيعة البشرية وهنا تمكن صعوبة الامتحان وتظهر المنزلة العليا لمن لم يقع في المخالفة رغم دواعي ذلك نفسيا وماديا . وهذا لا ينافي العصمة ، بل العمدة في اجراء الابتلاء كون الانسان في داخله دوافع اللذات كغريزة ميل الرجل الى المرأة ومن ثم تظهر مواقف الصادقين الذين يكبحون غرائزهم الثائرة فيعصمون ميولهم الجارفة كما أنه في مقابل ذلك ينكشف هبوط النفوس الضعيفة بالخضوع لأهوائهم المردية ،ويوسف الصديق عليه الصلاة والسلام يخرج من محنته هذه منتصرا مؤيدا من قبل شهادة صبي في المهد كما روى عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال تكلم أربعة وهم صغار هذا - اشارة الى ولد ماشطة ابنة فرعون وشاهد يوسف وصاحب جريج ،وعيسى بن مريم عليه السلام ". (١) يخرج منتصرا بعد أن اتهمته امرأة العزيز بارادة السوء ببيت العزيز كما قال عز وجل .

﴿ قال هي راودتني عن نفسي وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين فلما رءا قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم ﴾. (٢)

---

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه وصححه وأقره الذهبي . كتاب التفسير جـ٢/ ٤٩٦.

(٢) سورة يوسف آية ٢٦ ،٢٧ ، ٢٨.

وبعد بيان الحق وافتضاح الكذب في دعاوى امرأة العزيز أبت إلا أن تستمر في كيدها ليوسف موءكدة أنه إن لم يلب رغبتها فسيهان ويذل ويسجن ،وأمام تهديدها بالسجن له يعلن يوسف طالبا العصمة من الله بأن السجن أحب إليه مما دعته إليه ، اختار -عليه الصلاة والسلام- السجن بكل ما فيه من أصناف المحن والعذاب والضيق والاهانة والقهر يختاره مقرا على قصر منيف وعيش رغيد ، ذلك ما نقروءه في قوله عز وجل:

* قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم ، ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين * (١). وحينما عرفوا براءته وتأكدوا منها بالأدلة وظهر لديهم صدقه في عفته ونزاهته سجنوه إيهاما للناس بأنه راودها وحفاظا على سمعة العزيز. وهكذا في داخل السجن تتوالى نعم الله على يوسف بأن أكرمه بنزول الوحي وتأويل الروءيا كما أخبر سبحانه في قوله :

* قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علمني ربي إني تركت ملة قوم لا يوءمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون واتبعت ملة آباءى ابراهيم واسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون *(٢)

فلبث في السجن بضع سنين وهو يبلغ دعوة الله ،وحينما أراد الله اخراجه من السجن جاءت روءيا الملك المنامية فلم يجد لها تأويلا إلا عند يوسف ، ولذلك لما علم الملك بمنزلته في العلم والحكمة اللتين منّ الله عليه بهما استخلصه لنفسه وبوأه مكانة قوية

---

(١) سورة يوسف آية ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥.

(٢) سورة يوسف آية ٣٧ ، ٣٨.

وجعله أمينا على شئون دولته وعلى خزائن الأرض كي يسوس اقتصاد قوت القوم لنزاهته واستمساكه بتعاليم دينه وبمحافظته على عرض من أسدى اليه المعروف نال عليه الصلاة والسلام كذلك بصبره وقت الشدة وقساوة الاختبار. وتلك عاقبة الصابرين، نصر في الدنيا بعلو المكانة والتمكين في الأرض واكرام بالنعيم المقيم في الآخرة وذلك ماتتلوه في قوله عز وجل ﴿ وقال الملك ائتوني به استخلصه لنفسي، فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين ، قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم ،وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾.(١)

وهكذا يتبوأ يوسف مكانا عاليا جعل اخوته الذين آذوه حسدا وبغضا يلتجئون اليه وهم فقراء يائسون طالبين نواله معترفين بخطيئاتهم. والكريم يوسف عليه الصلاة والسلام قابل مكرهم بالحلم والصفح بل قابلهم بالاكرام والعفو الجميل كما قص علينا في القول الكريم ﴿ فلما دخلوا عليه قالوا يأيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف الكيل وتصدق علينا ،ان الله يجزى المتصدقين ،قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه اذ أنتم جاهلون قالوا أءنك لأنت يوسف ،قال أنا يوسف . وهذا أخي قد من الله علينا إنه من يتق ويصبر ،فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ،قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين ،قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ﴾.(٢)

---

(١) سورة يوسف آية ٥٤، ٥٥، ٥٦، ٥٧.
(٢) سورة يوسف آية ٨٨، ٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٢.

لقد كان يوسف في خلقه كريما حيث قد بلغ أسمى درجة من الايمان بالقضاء ،والصبر على اللأواء ، فترك حظه من التشفي حين قدر عليه . وصفح عن زلات اخوانه بكرمه وحلمه . وتجاوز الابتلاء في أقسى صوره فبعد ما ابتلي بالشدائد والمكاره يبتلى بالعفو عند المقدرة وهذا يكشف عن نفس كريمة هيئت لتحمل المسئولية ،مسئولية الاصلاح والرعاية وذلك أنه انتصر على الشهوات التي هي منطلق الخسران في الدنيا والآخرة

مبحث ابتلاء نبي الله موسى

يأتي بعد يوسف من سلالة يعقوب ،موسى عليهم الصلاة والسلام ، حيث ذكره الله تاليا ليوسف في قوله ﴿ ويوسف وموسى ﴾(١) فيدخل هو الآخر غمار المحن منذ أن كان صغيرا ،فمنذ أول نشأته يجعل في صندوق ويرمى في البحر ليتم تقويض بيت الجبروت والطغيان من داخله ومن حيث كان يحذر فرعون وملأوه فيأتي الأمر الكريم الى أم موسى بالقائه في البحر وتبتلى هي الأخرى بالصبر على فقد ولدها وعلى يديها ولكن الثقة بالله العليم والايمان به ربا والها يجعل المحن هينة لينة على المؤمنين حيث وعدها الله عز وجل برد ابنها اليها وجعله رسولا ، وهكذا يلقى موسى في اليم ليأخذه عدو الله الطاغية - فرعون - ليتربى في بيته اذ ألقى الله محبته في قلب زوجة فرعون وينجو موسى برعاية الله ويرجع الى أمه فترضعه ويترعرع في حجر أمه بعد أن رفض المراضع اللاتي تقدمت لرضاعته ،وتنجح هي بصبرها وايمانها القوى وثقتها الخالصة في وعد الله وذلك ما أخبر به سبحانه في قوله : ﴿ وأوحينا

---

(١) سورة الأنعام آية ٨٤ .

إلى أم موسى أن أرضعيه فاذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني ،إنا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين ،وقال امرأت فرعون قرت عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لا يشعرون وأصبح فوءاد أم موسى فارغا إن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من الموءمنين وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾. (١)

وفي رد موسى الى أمه بعد أن ألقته في البحر أكبر تأس للموءمن فإذا أخلص في ايمانه وتوكل على خالقه ومولاه الذى قد أخذ بناصية كل شيء كفاه ، ومن هنا أيضا نتأكد أن جماعة الموءمنين حينما يعتمدون على الله في قوتهم ويحسنون العمل في ايمانهم لن تستطيع أى قوة أن تغلبهم مهما بلغت من تسلط وعتو . وهكذا رد الله موسى إلى أمه واشتد عوده ومنَّ الله عليه بالحكمة . لكنه يتعرض للامتحان من جديد وذلك تهيئة للنبوة واعدادا لحمل الرسالة . وفي مطلع ذلك يبتلى من باب الدفاع عن الحق ومقاومة الظلم وهي مهمة لا يقوم بها الا عصامي لا تأخذه في الحق لومة لائم. وذلك أن بني اسرائيل كانوا يعيشون تحت طغيان فرعون في الذل والهوان حتى أكرمهم الله بموسى فيستغيث

---

(١) سورة القصص آية ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ .

به أحدهم ليعينه على رفع الظلم عنه من قبل فرد من حاشية فرعون الذى يعيش موسى في بيته ،ويتمتع بنواله فلا يثبط موسى عليه السلام كون المستغاث عليه من حاشية فرعون مربيه ومسدى المعروف اليه بل يشرع لانقاذ المظلوم فيقع ما لم يكن في الحسبان وما لم يدر في خلده بحيث مات المعتدى بضربة واحدة قضت عليه ، وساعتها يدرك موسى الخطأ الذى وقع من غير قصد فيجعله ظلما ويلتجيء الى الله متضرعا مستجيرا طالبا المغفرة فيغفر الله له ويستجيب دعوته ،وتتكرر الحادثة أمام موسى مرة أخرى فيندفع موسى ليرد العدوان وليدحر الظلم الذى كان سائدا في المجتمع ،وبعدها يتكشف أمر موسى للطاغية فيتطلبه بعد أن فرهاربا يترقب خبر القوم وذلك ما قصه الله في كتابه العزيز حيث قال :

﴿ ولما بلغ أشده واستوى أتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين ، ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه ،فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين ،قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم ﴾ (١)

فخرج موسى فارا بنفسه من بطش فرعون وملائه لكنه ما لبث أن ولج في اختبار جديد ومحن متتالية حيث صار مطاردا وحيدا في البرارى والقفار متطلعا الى ربه طالبا منه الحماية من القوم الظالمين ، والرعاية مما يخافه في رحلته بعيدا عن مجتمع الظلم والتعدى راجيا أن يجد الطريق الذى

---

(١) سورة القصص آية ١٤ ، ١٥ ، ١٦ .

يسلكه لينجو من موءامرة في عون وملائه فواصل طاويا الليالي والأيام يسد رمقه بما تيسر من البقل وورق الشجر كما نقل عن ابن عباس قولـــه * سار موسى من مصر الى مدين ليس له طعام الا البقل وورق الشجر. (١)

وذلك ما أخبر به سبحانه في قوله * فخرج منها خائفا يترقب قال رب نجني من القوم الظالمين ،ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربي أن يهدني سواء السبيل *. (٢)

ويواصل موسى طريقه وهوعلى تلك الحال صابرا معتمدا على الله في محنته حتى صادف جماعة من الناس يسقون مواشيهم الا امرأتين تحبسان غنمهما لضعفهما ولئلا تختلطان مع الرجال،وهنا يقف موسى مرة أخرى الى جانب الضعفاء ليعينهم على أخذ حقوقهم فتقدم وسقى للمرأتين غنمهمـا دون مقابل ،وانما هوالنبل وكرم النفس والدفاع عن الحق. فها هـــو موسى رغم ما يعاني من وعثاء السفر وخلوة البطن لا يبخل على الضعفاء بمعروف وبالتالي لا يترك لمستبد بمصالح غيره مجالا لهضم الحقـــوق مهما كلفه ذلك من تضحيات ، يتقدم موسى لاقرار الحق وهو مجهـــد مطارد من قبل طاغية مصر كما أنه غريب عن قوم المرأتين ، كل ذلك لا يثنيه عن نصرة الحق كما جاء في القصص الكريم من قوله عز وجل * ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ،ووجد من دونهما امرأتيـن تذودان قال ما خطبكما قالتالا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إني لما أنزلت الي من خير فقير* (٣)

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ٣ / ٣٨٣ نشردارالتراث القاهرة.
(٢) سورة القصص آية ٢١ ، ٢٢.
(٣) سورة القصص آية ٢٣ ، ٢٤.

وبعد ما أعان المرأتين لضعفهما وأدى لهما حقهما يلتجيء الى الله رب العالمين طالبا منه تفريج الكرب عنه وتغيير حال الشدة التي يعاني منها الى حال الاستقرار والايواء ، فيظهر موسى فقره لا لمخلوق من الذين صادفهم عند السقي وهو في شدة بالغة وانما الى الركن الركين والذى من التجأ اليه وجده ونصره فهو نعم المولى ونعم النصير. فيستجيب الله لعبده موسى ويهيىء له مكان العمل والاستقرار لينطلق من هناك الى النعمة الكبرى والمنزلة العليا . منزلة النبوة والرسالة وينجو من طغيان فرعون ومن ابتلاء الشدائد التي لاقاها أثناء رحلته وهو في ذلك كله صابر محتسب يلهج الى ربه طالبا منه المدد مظهرا ضعفه وحاجته الى الله خالقه ورازقه فيهديه الى الشيخ الصالح أبي المرأتين بحيث دعاه ليكافئه على صنيعه مع ابنتيه العفيفتين الطاهرتين ويطمئنه بالنجاة من فرعون وملائه كما أخبر سبحانه ﴿ فجاءته إحداهما تمشي على استحياء قالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين ﴾.(١)

وهكذا ينجو موسى من أعدائه . وينجح في ابتلائه الذى تهيأ به للقيام بالمهمة العظمى ،مهمة الرسالة بالدعوة الى عبادة الله الواحد الأحد فيعود إلى مصر رسولا إلى فرعون وملائه بكلمة الحق كما سنبين ذلك في الفصل بعد هذا.

وبعد ،فقد رأينا فيما مضى معنا من استعراض لمراحل ابتلاء بعض الأنبياء أن الجانب الأكبر في تلك الامتحانات كانت شدائد ومكروهات.

---

(١) سورة القصص آية ٢٥.

وسنعرض الآن لونا آخر وهو الابتلاء بالنعم ،وذلك ما سنلاحظه في سيرة نبي الله داود وابنه نبي الله سليمان ،حيث من الله عليهما بنعم وافرة ومزايا عظيمة من متع الحياة الدنيا ولذائذها فأعطاهما نعمة السلطـــة والملك والحكمة والعلم.

فداود عليه السلام بالاضافة الى النبوة والملك أعطي تسخير الجمادات والحيوانات فكانت الجبال تردد معه التسبيح بما خلق الله فيها من قدرة على التعبير بذلك. والطير بلغتها ترجع معه حينما ينطلق داود بصوته مسبحا وممجدا لله خالقه . وهذه ميزة خاصة تجعـل الكون يردد صوته بما فيه من جبال وطيور بما ميزالله به داود من صوت أصبح محط التشبيه لمن له صوت حسن في ترديد خاتمة الكتب المنزلة " الفرقان " كما ثبت في حديث النبي صلى الله عليه وسلم لما سمع صوت أبي موسى الأشعرى وهو يقرأ فقال : " لقد أوتي أبو موسى من مزامير آل داود ".(١)

مبحث ابتلاء نبي الله داود

ومن النعم التي من الله بها على داود وذكرها في سياق الامتنان عليه تليين الحديد له فكان يصنع منه الدروع . وهذه أيضا ميزة أخـــرى لم تعط لغيره ، فهذه نعم أعطيت لداود عليه السلام فكان مــــن الشاكرين قولا وعملا بشهادة الحق جل وعلا بذلك له في كتابه الحكيم حيث قال سبحانه ﴿ واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والاشراق والطير محشورة كل له أواب ، وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب ﴾.(٢)

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده من رواية عائشة ١٦٧/٦ وقال ابن كثير في قصصه على شرط الشيخين ولم يخرجاه من هذا الوجه. قصص القرآن لابن كثير ص ٤٨٦.

(٢) سورة ص آية ١٧، ١٨، ١٩، ٢٠.

وما جاء في الصحيح من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم " أحب الصيام إلى الله صيام داود كان يصوم يوما ويفطر يوما وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه و ينام سدسه ".(١)

فداود إذن كان شاكرا بما ابتلى به من نعم بينها القرآن الكريم في قوله عز من قائل ﴿وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين ،وعلمناه صنعة لبوس لكم ليحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون ﴾.(٢)

وفي قوله تعالى ﴿ ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوبي معه والطير . وألنا له الحديد أن اعمل سابغات وقدر في السرد واعملوا صالحا اني بما تعملون بصير ﴾.(٣)

في هذه الآيات يأتي الاخبار بأن الله قد أحاط داود بتلك المزايا الخيرة وكما سبق البيان ،أن داود عليه الصلاة والسلام كان شاكرا لكن الانسان مهما بلغ من العصمة والمحافظة على ابتغاء الحق هو معرض للنسيان وتلك طبيعة أى بشر ومن هنا يبتلى داود عليه السلام ليبقى معترفا بالنقص البشرى وليستمر في استمداد العون من الله فيما من به عليه من الحكمة و فصل الخطاب ،فجاءه الاختبار مرة ثانية في الحكم بين الرجلين الذين تسوروا عليه المحراب فحكم بينهما غير أنه استعجل في

---

(١) أخرجه البخارى في صحيحه ،كتاب الأنبياء باب أحب الصلاة الى الله . انظر فتح البارى ج٦/ ٤٥٥.

(٢) سورة الأنبياء آية ٧٩ ،٨٠.

(٣) سورة سبأ آية ١٠ ،١١.

الحكم بمجرد سماع دعوى أحد الخصمين قبل استماعه للآخر وهـــذا احتمال في تفسير القصة ينبغى المسار اليه والاعراض عن تلك المقولات التي لا سند لها عـن المعصوم صلى الله عليه وسلم بالاضافة الى أنهـا لا تليق بمقام النبوات ، والقول بالتوقف أيضا بعدم تفسير القصة كما ذهب الى أولويتـه الحافظ ابن كثير (١) مما لا نرتضيه ولا يتبغي التعويل عليه اذ القرآن عـربي مفهوم ، والقصص سيق فيه لأخذ العبرة فحينما نسلك سبيل التوقف يضيع منا أخذ الموعظة والاقتداء بالأنبياء ، اذن صرف الآية عن ظاهرها ومفهومها شطط وطعن في عصمة الأنبياء مما قد لا يرتكبه من هو أقل منهم درجة في الصلاح . والقول بالاقتصار علـى تلاوتها دون التفكير في معناها خروج عن المقصود بقصص القـــرآن اذ ما من قصة الا وقد سيقت لمغزى العظة والعبرة فبأى موجب يقتصر على تلاوتها فقط . وذهب صاحب الظلال الى القول بما سبق أن ارتضيته حيث يقول : والقصة كما عرضها أحد الخصمين تحمل ظلما صارخـا مثيرا لا يحتمل التأويل ومن ثم اندفع داود يقضي على أثر سماعه لهذه المظلمة الصارخة ولم يوجه الى الخصم الاخر حديثا ، ولم يطلب اليـــه بيانا ولم يسمع له حجة "(٢) وذلك ما خاطب الله به نبيه محمد صلى الله عليه وسلم في قوله ﴿ وهل أتاك نبوءا الخصم إذ تسوروا المحراب إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا علـى بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط ، واهدنا الى سواء الصراط . إن

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ٤/ ٣١ نشر دار التراث القاهرة .
(٢) كتاب ظلال القرآن للسيد قطب جـ٧/ ٩٦ الطبعة السادسة .

هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب ﴾(١)

فالقول بأن المراد بالنعجة في الاية الكريمة هي المرأة ، لا دليل عليه ثم ما الداعي لأن يعدل القرآن عن لفظ المرأة ويكنى عنها بالنعجة وإن ورد لفظة النعجة في الشعر كناية عن المرأة فالمقصود من ذلك التشبيه لا مجرد التسمية هذا أولا .

وثانيا لو كان المقصود في الاية الكريمة العتاب عما يقال بأنه عشق امرأة وأرسل زوجها للجهاد ليقتل وليتزوجها وغير ذلك مما هو فظيع في حق غير الأنبياء لما كان اجراء الابتلاء بعرض جلسة محاكمة ليأخذ نبي الله داود منها العبرة لا سيما حينما نجد أن يونس بن متى ترك قومه لما لم يستجيبوا له وذهب مغاضبا يبتلى بادخاله في الظلمات فيبتلعه حوت في قاع البحر لمجرد أنه ذهب بدون إذن من ربه ، فكيف بما ينسب لداود .

ثالثا نجد أن أفضل الخلق محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم يأتي العتاب في جانبه من قبل الله عز وجل صريحا كما وقع في أسارى بدر حيث استقر النبي صلى الله عليه وسلم على رأى من قال بأخذ الفداء وذلك بعد أن استشار أصحابه ،فيقول عز وجل ﴿ ما كان

---

(١) سورة ص آية ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ .

لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض ،تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم * (١) وفي قضية ابن أم مكتوم حينما أعرض عنه الرسول صلى الله عليه وسلم مقبلا على كبراء قريش طمعا في أن يؤمنوا فتنزل الايات المعاتبة التي تحمل وصف مقابلة النبي صلى الله عليه وسلم لابن أم مكتوم * عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى أما من استغنى فأنت له تصدى ، وما عليك ألا يزكى وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى * (٢) وفي قضية أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها نزل قوله تعالى * وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه *. (٣)

فكان العتاب صريحا وهذه الايات الكريمة على مسائل لا تصل من قريب ولا من بعيد الى وصف ما ينسب لنبي الله داود .

فالذى تطمئن النفس اليه أن داود عليه الصلاة والسلام ابتلى فيما هو ذو مقدرة عليه حيث من الله عليه بفصل الخطاب ومع ذلك هو بشر معرض للنقص فيخطيء في ذلك كما وقع في فصله بين المتخاصمين فأسرع باصدار الحكم قبل الاستماع الى المدعى عليه (٤) يؤيد هذا

---

(١) سورة الأنفال آية ٦٧ ، ٦٨ .

(٢) سورة عبس آية ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ .

(٣) سورة الأحزاب آية ٣٧ .

(٤) ... في هذا المعنى تفسير البيضاوى بحاشية الشهاب ج٧/٣٠٧ نشر دار صادر بيروت ،وانظر أحكام القرآن للقرطبي فقد حسن هذا المعنى ج١٥/ ١٧٥ ، ١٧٨ نشر دار الكتاب القاهرة .

أيضا ما جاء في السياق الكريم بعد القصة ﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب ﴾.(١)

فالآية الكريمة وثيقة الصلة بما قبلها اذ فيها خطاب لداود بالنداء اثر الفراغ مما وقع بينه وبين الذين تحاكموا في مجلسه. وفيها أمر بالحكم بالحق مما يدل على أن الذى صدر منه أو لا من قبيل ما وقع له في الحكم بين الناس، وهناك احتمال آخر ذهب اليه بعض المفسرين هو أن فتنة داود في هذه القضية تكمن في احتجابه عن الناس وتبتله وانقطاعه لعبادة ربه في المحراب وترك الفصل والحكم بين الناس من أجل هذا كان العتاب من الله له . وهكذا يبتلى داود عليه الصلاة والسلام من باب التنبيه والايقاظ من الغفلة والنسيان اللذين هما ملازمان للطبيعة البشرية ،فيدرك الخطأ ويستغفر ربه فيغفر له .

ومن النعم التي وهبها الله لداود عليه السلام أن رزقه سليمان ابنا ورثه في الحكم والعلم بل فاق أباه فيما رزقه الله من الفهم في القضاء ﴿ وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم ،وكنا لحكمهم شاهدين ففهمناها سليمان ،وكلا ءاتينا حكما وعلما ﴾(٢)

فالآية الكريمة تبين ما من الله به على سليمان من فكر ثاقب ونظر صائب وعقل واسع وذلك أنه لما ادعى صاحب الحرث أن الغنم أكلت الزرع حكم له داود بأخذ الغنم مقابل ما أكلت من زرعه ،وساعتها تدخل سليمان

---

(١) سورة ص آية ٢٦.
(٢)

وحكم بما هو أليق للجانبين بدون إجحاف فحكم باعطاء الغنم لصاحب الحرث ينتفع بنتاجها مدة تنتهي بصلاح الحرث بأن يعود إلى ماكان عليه قبل [(١)] وذلك برعاية صاحب الغنم الذى أكلت ماشيته المزروع . فصادف بحكمته وما فهمه الله ،الأسهل والأحسن للمتخاصمين ،وهكذا قالوا والله أعلم بصحة ذلك. وكذلك أعطى سليمان فيما أعطى من النعم الملك الشامل للجن والانس والحيوان ،وتسخير الريح وتعليم منطق الطير كما أخبر الله عز وجل فقال ﴿ ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها وكنا بكل شيء عالمين ،ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك وكنا لهم حافظين ﴾ [(٢)] وقال تعالى ﴿ ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ،ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير ﴾ [(٣)] وقوله ﴿ فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب والشياطين كل بناء وغواص وآخرين مقرنين في الأصفاد هذا عطاؤنا فامنن أو امسك بغير حساب ﴾ [(٤)] فسليمان اذن ورث داود في العلم والحكمة وفيما سخر الله له من نعم كما قال سبحانه ﴿ وورث سليمان داود وقال يأيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء ان هذا لهو الفضل المبين ،وحشر لسليمان جنود من الجن والانس والطير فهم يوزعون ﴾ [(٥)] فحكم الجن والانس ، وما قصة ملكة سبأ إلا دليل شاهد

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ٣ / ١٨٦ نشر مكتبة دار التراث القاهرة.

(٢) سورة الانبياء آية ٨١ ،٨٢.

(٣) سورة سبأ آية ١٢.

(٤) سورة ص آية ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩.

(٥) سورة النمل آية ١٦ ،١٧.

على عظمة ملك سليمان وسيطرته على غيره من الأملاك والملوك إذ استطاع أحد جنوده من الجن احضار عرش ملكة سبأ العظيم في طرفة عين كما قال عز وجل ﴿ قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك ﴾ (١) فاستسلمت وأسلمت رغم أنها أوتيت من كل شيء كما قال عز وجل ﴿ قالت رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾ (٢) والحالة هذه مما فيه سليمان من النعم التي لا تحصى نجده عليه الصلاة والسلام يقر بقضية هي سنة الله فيما يعطي وفيما يمنع . قضية الشكر والجحود بحيث نراه أثناء تقلبه في النعم يطلب من الله الالهام والارشاد ليكون من الشاكرين فيقول كما حكى عنه القرآن ﴿ وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه ، وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين ﴾ (٣) كما نجده أيضا يقر بحقيقة لا يغفل عنها إلا هالك خاسر ،تلك هي حقيقة الاختبار بالنعمة أو النقمة فهي قضية لا تستقر حياة الانسان إلا بها ، ولا يحالفه النجاح الا باستحضارها في تقلباته الدنيوية وبالتالي لا يمكن للانسان أن تطمئن نفسه إلا إذا استقرت حقيقة الامتحان في الأخذ والعطاء والمن والحرمان في نظام حياته ،فسليمان عليه الصلاة والسلام لما رأى عرشا عظيما قد من الله عليه بحضوره أمام عينيه لم يغفل عن هذه الحقيقة وهو نبي الله الذى أثنى عليه في كتابه الكريم بقوله ﴿ نعم العبد انه أواب ﴾ (٤) وقوله ﴿ وان له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾ (٥)

---

(١) سورة النمل آية ٤٠.
(٢) سورة النمل آية ٤٤.
(٣) سورة النمل آية ١٩.
(٤) سورة ص آية ٣٠.
(٥) سورة ص آية ٤٠.

لم يغفل عن أن العطاء اختبار وامتحان يقول عز وجل في ذلك ﴿ فلما رءاه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني ءأشكر أو أكفر ،ومن شكر فانما يشكر لنفسه ،ومن كفر فان ربي غني كريم ﴾[(١)] تعطينا هذه الآية الكريمة حقيقة أن الله الغني الكريم اقتضت حكمته ،وجرت سنته أن يعطي وهو الغني للابتلاء ويمنع وهو الكريم للابتلاء ، نجد هذه الحقيقة أيضا ماثلة في الحديث القدسي :" يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئا يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئا ،يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل انسان مسألته ما نقص ذلك مما عندى شيئا الا كما ينقص المخيط اذا دخل البحر ،يا عبادى انما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم اياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن الا نفسه "[(٢)] والمقصود من الحديث بيان الغنى المطلق لله عز وجل عما سواه فاذا أعطى أحدا فلا ينقص من خزائنه شيئا وان منع أحدا فهو العزيز القوى ،ومعنى هذا اذن ، أن العطاء والحرمان للابتلاء وتلك حقيقة يجب أن لا يخلو منها ذهن الانسان اذ هي الركن الركين في النجاة حينما يبتلى المرء بالعطاء أو الحرمان ولذلك ابتلى سليمان عليه الصلاة والسلام بالنعم

---

(١) سورة النمل آية ٤٠ .

(٢) جزء من حديث أخرجه مسلم من حديث أبي ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما روى عن الله تبارك وتعالى . كتاب البر باب تحريم الظلم . مسلم بشرح النووى جـ١٦/ ٢٣١، ١٣٢ . وانظر الجامع الصحيح لمسلم مصورة عن ط/ استانبول ،القاهرة جـ٨/ ١٧ .

وأدرك مغزى ذلك العطاء وطلب التوفيق من الله والاعانة على شكر تلك المنن ،يبتلى أيضا من باب الحرمان كما هو الظاهر من مفهوم قوله تعالى ﴿ ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب قال رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب ﴾(١).

خاض أغلب المفسرين في معنى هذه الآية بما لا تطمئن النفس إليه لا سيما أن أغلب ما قاله المفسرون منقول عن أهل الكتاب. وهي أقوال لا يعتمد عليها حيث إنها تفقد الوثوق في مصادرها ، والآية في معناها اخبارية تعلمنا أن سليمان قد فتن بما ألقي على كرسيه من جسد فرجع طالبا المغفرة فلا مجال للرأى والتخمين في استخراج معنى الآية وأقرب ما تفسر به الآية ما ثبت في الصحيح وإن كان آحادا ما أخرجه البخارى بسنده من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " قال سليمان بن داود لأطوفن الليلة على سبعين امرأة تحمل كل امرأة فارسا يجاهد في سبيل الله فقال له صاحبه إن شاء الله فلم يقل ولم تحمل شيئا إلا واحدا ساقطا أحد شقيه فقال النبي صلى الله عليه وسلم لو قالها لجاهدوا في سبيل الله ".(٢)

وما اخترته في تفسير هذه الآية الكريمة هو الذى جزم به القاضي عياض في شفائه(٣) حيث قال ما نصه : " وابتلاؤه ما حكى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لأطوفن الليلة .. الحديث المخرج في هامش(٢)

---

(١) سورة ص آية ٣٤ ، ٣٥.

(٢) صحيح البخارى بشرح فتح البارى جـ٦/ ٤٥٨ كتاب الأنبياء .

(٣) الشفاء بشرح نور الدين القارى جـ٤/ ٣٥٢ مطبعة المدني القاهرة.

وهو الذى استظهره الآلوسي في تفسيره [١] ،لأن ما يقال من أن شيطانا أخذ خاتم سليمان وجلس فوق كرسيه وتصرف في ملكه ثم سقط الخاتم في البحر فابتلعته سمكة فصادف سليمان أكلها فوجد الخاتم في بطنها وغير ذلك من أقوال مزعومة تنسب لابن عباس شيء لا يعول عليه ولا ينبغي النظر فيه لأنها أقوال واهية وأكاذيب أهل الكتاب عليها بادية وما قرره علماء الحديث من نكارة وجودها في معانيها لائحة فليس لدينا ما يثبت بأن سليمان كان يملك ما يملكه ،أو كانت سلطته على الجن والانس مرتبطة بخاتم ، يضاف لذلك القول كيف يمكن لشيطان أن يستولى على ما خول الله لسليمان من ملك بل كيف يدخل لبيته ويأخذ خاتمه وهو النبي ابـن النبي . فالشيطان ليس له من سلطان على الانس أكثر من الوسوسة فكيف له أن يتسلط على أفضل الأناسي وهم الأنبياء ولو قدر على ذلك لم يدع صالحا الا وقد نكبه وأهلكه . فسليمان عليه الصلاة والسلام اذن ابتلى من باب النسيان أو الغفلة التي لا تليق بمقام النبوة فلم يستثن أو يعلق الأمر على مشيئة الله ، واذا كان الأمر كذلك فما المانع من أن يبتلى بعدم حصول مبتغاه ليتنبه الى خطورة عدم الاستثناء فيما يريد حصوله.

ويؤيد هذا أيضا ما يروى عن ابن عباس [٢] أن قريشا سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن الروح وأصحاب الكهف وذى القرنين فقـال

---

(١) م ٨ / ج ٢٣/ص ١٩٨ وما ذهب اليه الشيخ النجار في كتابه تاريخ الأنبياء من أن المقصود بالجسد هو سليمان . وأن معنى أناب رجع الى الصحة والعافيه . فهم غير سديد وبعده ظاهر عن المنطق السليم ،انظر كتابه ص ٢٤٤ ط/ الثانية بمكتبة المعارف بالرياض ،نشر دار الفكر بيروت.

(٢) انظر تفسير القرطبي العظيم لابن كثير ج٣/ص ٧١ نشر مكتبة دارالتراث القاهرة .

عليه الصلاة والسلام : غدا أخبركم ولم يستثن فأبطأ عليه الوحي خمسة عشر يوما فنزل قوله تعالى ﴿ ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله ﴾ (١) فامتحان سليمان كان من هذا القبيل ولذلك استغفر ربه وأناب حيث لم يتأدب مع الله فيما عزم عليه وذهل عن أن الخلق بيد الله وحده فان شاء أعطى وان شاء منع .

مبحث ابتلاء نبي الله أيوب: ومن الأنبياء الذين ابتلوا بالنعم فشكروا وبالنقم فصبروا نبي الله أيوب عليه الصلاة والسلام وهو من ذرية ابراهيم أيضا كما قص الله علينا في الاية الكريمة ﴿ ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ﴾ (٢) ابتلي عليه السلام بما أفاض الله عليه من مال وولد لا نستطيع تحديدهما بالعدد أو نعتهما بالوصف . وما تنقله بعض الروايات هو في حاجة الى ما يثبت صحتها ولذلك يكفينا القول بأن أيوب عليه الصلاة والسلام كان في نعم وافرة وصحة ضافية ،ولا شك أنه كان شاكرا في تلك الحال غير بطر مما جعل الشيطان يحنق عليه فيوسوس ليمسه بفقد ما يتمتع به من صحة ومتاع ،وتقتضي حكمة الله أن يختبر أيوب بفقد ذلك فيصاب بفقد الولد وفي النفس بالمرض . وليس أي مرض كما يوحي النص الكريم في دعاء أيوب ﴿ وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر ﴾ (٣)

فلولا أن نبي الله أيوب كابد وصابر الآلام الضارة الى درجة تجعله يجأر الى الله- وهو النبي -بالنداء مصرحا بمساس الضر ،

---

(١) سورة الكهف آية ٢٣ .
(٢) سورة الأنعام آية ٨٤ .
(٣) سورة الأنبياء آية ٨٣ ، ٨٤ .

لولا ذلك لقلنا إنه مرض كأى الأمراض ولكن حاله تلك تدل على أن مرض أيوب بلغ منه مبلغا أليما جعله يحس بالمس وهو الذى مدحه الله فسجل له القرآن درجة عالية من الصبر ،حيث يقول عز وجل ﴿ إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب ﴾(١) ولا نستطيع أن نقول أكثر من هذا في شأن مرض أيوب ويجب الاعراض عما ينقله بعض المفسرين من روايات تصف مرض أيوب بما لا يليق بنبي كريم ودون اثبات ذلك من طريق صحيح . فالخلاصة في ذلك أن أيوب عليه السلام ابتلي بالنعم ثم ابتلي بفقد تلك النعم وابدالها بالبلايا . فكان عبدا صابرا محتسبا فجزاه الله أحسن الجزاء بحيث استجاب دعاءه وكشف ضره بل أعطاه أكثر مما فقده أثناء المحنة جزاء صبره فكان مثالا يحتذى به في الصبر والتحمل وفي ذلك ورد قوله عز وجل ﴿ واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أني مسني الشيطان بنصب وعذاب ،اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ،ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولى الألباب ﴾.(٢)

وقوله صلى الله عليه وسلم : " إن أيوب نبي الله لبث به بلاءه ثماني عشرة سنة فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه كانا من أخص إخوانه به وكانا يغدوان إليه ويروحان فقال أحدهما لصاحبه : تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنبا ما أذنبه أحد من العالمين قال له صاحبه : وما ذاك ؟ قال من ثماني عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف ما به ، فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له فقال له أيوب : لا أدرى

---

(١) سورة ص آية ٤٤ .
(٢) سورة ص آة ٤١ ،٤٢ ،٤٣ .

ما تقول غير أن الله يعلم أني كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكران الله فأرجع الى بيتي فأكفر عنهما كراهية أن يذكر الله إلا في حق ،قال وكان يخرج إلى حاجته فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ ،فلما كان ذات يوم أبطأ عليها وأوحى إلى أيوب في مكانه أن ﴿اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب﴾. فاستبطأته فتلقته تنظر فأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء وهو على أحسن ما كان ، فلما رأته قالت : أى بارك الله فيك ، هل رأيت نبي الله هذا المبتلى فوالله القدير على ذلك مارأيت أحدا أشبه به منك إذ كان صحيحا.قال : فاني أنا هو قال وكان له اندران[(١)] أندر للقمح ،وأندر للشعير فبعث الله سحابتين ،فلما كانت احداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض ،وأفرغت الأخرى في أندر الشعير الورق[(٢)] حتى فاض ".[(٣)]

فأبدل الله ما كان من أيوب من بلايا نعما بعدما كشف الابتلاء عن قوة صبر أيوب وعمق ايمانه وذلك أن الله الكريم قد يبتلى الأولياء من عباده بأنواع من البلايا سواء في النفس أو الولد أو المال لا عن اهانة لهم أو تحقير ولكن امتحانا من الكريم ليصلوا باحتسابهم الى الدرجات العليا والكرامات الشاهدة لهم بالقربى ،مثلما روى البخاري بخصوص أيوب عليه الصلاة والسلام من حديث أبي هريرة رضي الله عنه

---

(١) الأندر الموضع الذى يداس فيه حبوب الطعام . انظر النهاية في غريب الحديث لابن الأثير جـ١/ ٧٤ مادة (أندر).

(٢) بكسر الراء والاسكان تخفيفا النقرة مضروبة أو غير مضروبة . كتاب المصباح المنير للرافعي ص ٨١٦ مادة (ورق).

(٣) أخرجه الحاكم من حديث أنس برفعه وقال على شرط الشيخين وأقره الذهبي . كتاب المستدرك جـ ٢ / ٥٨١ التاريخ .

عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " بينما أيوب يغتسل عريانا خر عليه رجل[١] جراد من ذهب فجعل يحثي[٢] في ثوبه فناداه ربه : يا أيوب . ألم أكن أغنيتك عما ترى ؟ قال : بلى يا رب ولكن لا غنى لي عن بركتك ".[٣]

وبهذا ينجو نبي الله أيوب عليه الصلاة والسلام من تلك المحنة بالرضا والاحتساب والاذعان مستسلما لما تعرض له حسبما جرى به القضاء الالهي ،وليكون ما يلقاه الأنبياء هم صفوة الخلق -من امتحانات وشدائد قابلوها بالصبر والتحمل اسوة للصالحين الذين يبتلون وذلك ليصبروا كما صبر أولئك ويجئرون إلى ربهم مقرين بضعفهم أمام خالقهم وبالتالي لينالوا ما نال أولئك من درجات عليا ومثوبة حسنى وهذا لون من ألوان الامتحان ،كما أنه يكون للتربية والاعداد لتحمل التكاليف الخاصة مثل ابتلاء نبي الله يونس عليه السلام، حينما كلف بدعوة قومه فلم يستجيبوا أول الأمر فتضجر منهم وضاق ذرعا فغادرهم دونما اذن من الله الذى أرسله فلم يتريث ليتلقى كيفية المواجهة والعمل مع من لم يستجب له فلم يطق صبرا لطول المدة في دعوتهم وينتظر حتى يأتيه أمر الله فخرج من بينهم يائسا من ايمانهم فامتحن لذلك بأن قيض الله له حوتا فابتلعه وحينئذ يدرك قدرة الله عز وجل المطلقة واحاطته بكل شيء وقضاءه النافذ

---

(١) الرجل بكسر الراء الجراد الكثير . كتاب النهاية في الغريب لابن الأثير جـ٢/٢٠٣ . رجل

(٢) معناه يأخذ بيديه جميعا . انظر الفتح جـ٦/٤٢٠ .

(٣) صحيح البخارى بشرحه فتح البارى ،كتاب الأنبياء ،باب قول الله تعالى * وأيوب اذ نادى ربه * ٦/٤٢٠ .

الذى لا مرد له ،اذن فلا مفر من أمره ولا قدرة على الخروج فيما أمر به ، وسواء قلنا في تفسير قوله تعالى ﴿ فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا اله الا أنت سبحانك اني كنت من الظالمين ﴾(١) إنه من التقدير بمعنى التضييق أو من القدر بمعنى القضاء الالهي كما قال الشاعر :(٢)

ولا عائذ ذاك الزمان الذى مضى

تباركت ما تقدر يقع و لك الشكر

ويؤيد هذا من قرأ نُقدر بتشديد الدال مكسورة ،فعلى الحالين يونس أخطأ في مفارقة قومه ظنا منه أنه سينجو من التكليف بأعباء الرسالة التي اختاره الله لها . ففر الى البحر وحينما ركب فلكا اضطرب الفلك بالقوم فساهموا من أجل تخفيف المركب على إلقاء أحدهم في البحر فكانت القرعة من نصيب يونس وذلك ليتم اختباره فيدرك خطأه بعدم صبره . وحينئذ التجأ إلى الله يجأر بالتسبيح مقرا بخطئه في أعماق المياه المتكاثفة وهو في بطن الحوت يسمع الله دعاءه من فوق سبع سماوات ففرج ما به من كرب و كشف عنه ما حل به من غم ،وتلك منة من الله تشمل المؤمنين الذين يخطئون ويتوبون فيلتجئون إلى الله معترفين بالخطأ ،وهذا من يونس عليه الصلاة والسلام لا يقدح في نبوته من حيث العصمة بل ذلك من الأمور الطبعية في أى بشر لكن الأنبياء لعصمتهم وعلو منزلتهم وخطر مهمتهم قد يأتيهم العتاب

---

(١) سورة الأنبياء آية ٨٧.

(٢) تفسير القرطبي جـ١١/ ٣٣٢.

بالابتلاء ليصلوا الى أعلى مقامات التربية إذ هم القدوة لغيرهم فلا بد من محن بقدر ما لهم من مناصب عالية في حياة البشر، فيونس عليه السلام لما تاب وهو في غمار أمواج الامتحان وفي أغوار المياه في بطن الحوت أدركته رحمة الله فيلفظه الحوت بعد هزال أخذ منه فيسخر الله له نباتا يظلله ليرجع إلى حاله الأولى وليتحمل الرسالة من جديد كما أخبر سبحانه في قوله ﴿ وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين ﴾.(١)

وقوله عز من قائل ﴿ وإن يونس لمن المرسلين إذ أبق الى الفلك المشحون فساهم فكان من المدحضين (٢) فالتقمه الحوت وهو مليم (٣) فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون فنبذناه بالعراء وهو سقيم وأنبتنا عليه شجرة من يقطين وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون فئامنوا فمتعناهم الى حين ﴾.(٤)

---

(١) سورة الأنبياء آية ٨٧، ٨٨.

(٢) الدحض الزلق انظر المصباح المنير للرافعي مادة (دحض) والنهاية لابن الأثير جـ٢/١٠٤ ومعناه أن يونس صار من المغلوبين بالقرعة حيث سقط من مقام الظفر والسقوط ناتج عن الزلق . انظر الآلوسي م ٨/جـ٢٣/١٤٣.

(٣) معنـــاه الدخول في الملامة لمن أتى مما يلام عليه سواء من نفسه أو من غيره انظر مشكل القرآن لابن قتيبة ص ٤٠٥ نشر دار التراث القاهرة .

(٤) صورة الصافات آية ١٣٩، ١٤٠، ١٤١، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨.

فبعد ما مر يونس عليه السلام من اختبار جعله يدرك ما وقع فيه من خطأ ،أرسله الله إلى قومه من جديد ليؤدى المهمة التي فرسها في السابق ،ولا حاجة بنا الى القول بأن هذا من يونس قبل إرساله لا سيما أن النص الكريم يقول ﴿ وإن يونس لمن المرسلين إذ أبق الى الفلك المشحون ﴾ فالآية الكريمة تعطينا بما لا مجال للريب فيه أن امتحان يونس وقع أثناء تأديته مهمة الرسالة في بداية أمره بدعوة قومه فكان ما كان بينه وبينهم ثم ابتلى بقضية الحوت فصبر واستغفر وأرسل ثانيا إلى قومه فئامنوا ولا مانع من ذلك اذ فرار يونس لا يقدح في نبوته كما سبق توضيح ذلك قريبا ،فيونس لعلو مقامه كان جديرا بذلك الابتلاء لا سيما أننا نجد أمثاله في المهمة كابدوا أقوامهم وتحملوا محنة اصرارهم ،وشدة شكيمتهم في العصيان والعناد فلم يضجروا أو يهربوا من ثقل الرسالة كنوح وابراهيم عليهما الصلاة والسلام ولذلك نجد القرآن الكريم يحذر خاتم النبيين وينهاه عن الوقوع فيما وقع فيه يونس على نبينا وعليه أفضل الصلاة والتسليم وذلك في قوله عز وجل ﴿ فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم فاجتباه ربه فجعله من الصالحين ﴾ (١) ، هذه الآية دليل صريح على أن يونس ابتلى بعدما أرسل والا لفقد التشبيه مرماه في الآية الكريمة وفيها أيضا أن خاتم الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام قد لاقى من

---

(١) سورة القلم آية ٤٨ ،٤٩ ،٥٠ .

قومه قريش ما يجعله يضيق بهم ذرعا بل لاقى منهم ما لم يلقه غيره من الأنبياء فلم تترك قريش طريقا لاذايته صلى الله عليه وسلم إلا سلكته فقد أوذى بالتضييق عليه وعلى عشيرته في شعب بني هاشم حتى هلك الضرع والقرن والصبيان والكهول والشيوخ وذلك بالحصار الذى ضربته قريش مجتمعة حتى بلغ بهم الجهد وسمعت أصوات صبيانهم واشتد بهم البلاء طوال سنتين حتى ذاق صلى الله عليه وسلم آلام الجوع والخوف (١) وبعدها خرج صلى الله عليه وسلم تاركا الأهل والولد والمال طالبا موطنا آخر لانجاح ما كلف به من تبليغ الدعوة فيتجه الى قبائل ثقيف وتبلغ المحنة ذروتها مرة أخرى فيلقى من ثقيف أشد مما لقى من قريش فما أن سمعوا قوله ودعوته حتى سلطوا عليه سفاءهم وصبيانهم وعبيدهم يرشقونه ويرمونه بالحجارة حتى أدموا قدميه الشريفتين (٢) ، وظهر علو مقامه في الصبر المتميز عن أمثاله من الأنبياء بحيث مضى صلى الله عليه وسلم في عرض الدعوة بدون كلل أو ملل حتى ولو اقتضى الأمر مغادرة الأهل والوطن والهجرة الى أرض تنطلق منها الدعوة ويكتمل منها البناء الاسلامي الوارد في قوله صلى الله عليه وسلم :

" إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون هلا

---

(١) انظر سيرة ابن هشام القسم الأول جـ٢ / ٣٥١ الطبعة الحلبية
وانظر زاد المعاد لابن قيم الجوزية جـ٢ / ٤٦ الطبعة الثانية الحلبية.

(٢) سيرة ابن هشام القسم الأول جـ ٢ / ٤٢٠ الطبعة الثانية الحلبية .

وضعت هذه اللبنة ؟ قال : فأنا اللبنة ،وأنا خاتم النبيين ".(١)

وبهذا الاستعراض نكون قد أدركنا صورة أعطتنا نبذة ضافية عن نموذج هو في قمة الصلاح الانساني بأسمى مكانة وأعلى درجة وفي نفس الوقت هو نموذج من الرسل امتحن بأعلى صور الابتلاء وأشدها وطئا في النفس الانسانية وأبلغها أذى في عمق القلوب فكانوا قدوة لمن دونهم في العزيمة ومنارا لمن اقتدى بهم في اشتداد الشكيمة عندما ينزل الامتحان بساحتهم وتحل البلايا بأجسامهم وأنفسهم ،فكانوا دائمي الالتجاء الى الله فهو ملاذهم ،والتوبة اليه عندما يخطئون كبشر هي محط رحالهم وتلك غريزة مسنونة في حياة الانسان لا مناص من الاحتماء بظلالها وإلا زاغ الانسان عن طريق الحق والهدى ،وساعتها يكون خاسرا فيما يمر به من اختبار متحتم على كل انسان فردا كان أو أمة .

---

(١) أخرجه البخارى بسنده من حديث أبي هريرة ،كتاب المناقب باب خاتم النبيين كتاب فتح البارى جـ٦/٥٥٨ .

الفصل الثاني

ابتلاء الأمم المدعوة قبل الاجابـــــة

كانت الأمم في التدين ذات اتجاه واحد وهو توحيد الله عز وجل وما لبثت فترة من الزمن على هذا الأصل حتى طرأ عليها الانحراف عما فطرها الله عليه من استقامة في المنهج وإخلاص في التوجه بسبب اختلاف الناس في الحق والهدى فشطوا بذلك عن سبيل الهداية . ومن كرم الله على الانسام أن أرسل الرسل لرد الناس الى طريق الحق بالبيان والحجة القاطعة مع حرية الاختيار في الاجابة فكانت الأمم المدعوة قسمين ، قسم استجاب مهما بلغت تكاليف الدعوة ومشاقها ، وقسم أعرض فسلك سبيل الشيطان مما جعل عاقبته الخسران ، ، هذه قسمة لم تخرج البشرية عنها منذ أن انحرفت في الاعتقاد والسلوك ، ولما أصبح الأمر كذلك بعث الله رسلا لتبصير الناس وارجاعهم الى طريق الهدى وأنزل كتبا على أولئك الرسل فيها توضيح الطريق لمن ضله باقامة الحجة عليهم حيث خرجوا عن الحق وانحرفوا عن سواء السبيل وبغى بعضهم على بعض فكان البغي هو السبب في خروجهم عن الفطرة تؤيد هذه الحقيقة بقوله عز وجل * كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم * (١) . فالآية تبين أن الله أقام الحجة على الخلق بعد ما اختلفوا في الحق وضلوا وظلموا

---

(١) سورة البقرة آية ٢١٣ .

بارسال رسل مبينين للناس الحكم فيما اختلفوا فيه من الملل والأديان لكي يكونوا في عبادتهم على نهج واحد كما أراده الله على دين واحد وكما هو أصلهم الذى انحرفوا عنه بسبب الحسد وحب الشهوات ،فمن الغي الكبر والحسد وجاهد الهوى جانبا واستجاب للحق كان من الناجين يوم الجزاء ومن أصر على البغي والعناد وكفر بما جاءت به الرسل كان من الخاسرين ومن هذا المنطلق نرى قوم نوح وهو أول الرسل كما ثبت في الصحيح من قوله صلى الله عليه وسلم في حديث الشفاعة " فيأتون نوحا فيقولون يا نوح أنت أول الرسل الى أهل الأرض "(١) نراهم في أن أكثرهم لم يستجب لنوح عليه السلام رغم طول المدة التي ظل نوح يدعوهم فيها ،وذلك أنهم كانوا يعبدون الأصنام بل بالغوا في الاتجاه اليها لدفع الضر وجلب الخير ولذلك كانت السمة البارزة في دعوة نوح مع قومه وهو الأمر الغالب أيضا في دعوة الرسل طلبه منهم ترك عبادة غير الله فدعاهم من باب الترغيب بحيث إن اتقوا الله وتركوا عبادة الأصنام: ود ،وسواع ،ويغوث ،ويعوق ،ونسر ، وهي في الأصل ،كما جاء في صحيح البخارى أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون. أنصابا وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتى اذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبدت "(٢) (٣) فنجههم نوح الى أنهم ان تركوا عبادتها وتوجهوا

---

(١) أخرجه البخارى من رواية أبي هريرة في صحيحه انظره بشرح فتح البارى ج ٦/ ٣٧١ ،كتاب الأنبياء باب قول الله عز وجل "انا أرسلنا نوحا ".

(٢) تغير العلم بالمقصود من اقامة تلك النصب بحيث لم تقم للعبادة في أول الأمر.

(٣) انظر صحيح البخارى بشرحه فتح البارى ج٨/ ٦٦٧ كتاب التفسير باب " ودا ولا سواعا ".

بالطاعة الى الله الواحد الأحد غفر لهم ما سلف منهم من الذنوب ولا يؤاخذهم بعذاب الاستئصال في الدنيا ، وذكرهم بما يلفت نظرهم إلى من يستحق التوجه إليه بالعبادة وذلك أنهم إن رجعوا عما هم عليه من ضلال وكفران واستغفروا ربهم سيعطيهم ما هم في حاجة إليه . وبالتالي ما هم مولعون بحبه ، فان هم استجابوا منَّ الله عليهم بالأمطار النافعة وبالمال والبنين وما يتبع ذلك من مباهج الحياة من البساتين التي تجرى خلالها الأنهار وما تتم به الحياة فوق هذه الأرض من شمس ساطعة وقمر جعله الله نورا ، كما حذرهم من عاقبة الجحود وعدم الاعتراف للخالق بالعظمة والقدرة الظاهرة في كل شيء حتى في أصل أنفسهم حيث إن الله هو الذى خلقهم متنقلين في أحوال شتى كما جاء في قوله تعالى * ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين * (١) فمن كانت حاله كذلك ألا يليق به الاعتراف بالعبودية لمن خلقه أطوارا وأحسن إليه بقدرته الظاهرة فيه ألا يليق به ألا يشرك به شيئا في عبادته ، وهكذا ظل نوح عليه الصلاة والسلام يدعو قومه ردحا من الزمن وصل الى تسعمائة وخمسين سنة كما أخبرنا عز وجل في قوله * ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما فأخذهم الطوفان وهم ظالمون * (٢) دعاهم نوح في هذه المدة بالجهر مرة

---

(١) سورة المؤمنون آية ١٢ ، ١٣ ، ١٤ .
(٢) سورة العنكبوت آية ١٤ .

وبالسر أخرى مبينا لهم موجبات العذاب ،ووجه الخلاص منه : كل ذلك وقومه يقابلونه بالعناد والاستكبار كما جاء في قوله تعالى ﴿ قال نوح رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا فلم يزدهم دعائي إلا فرارا واني وكلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في ءاذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا ، ثم إني دعوتهم جهارا ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ،ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا مالكم لا ترجون لله وقارا وقد خلقكم أطوارا ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا ،وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا ،والله أنبتكم من الأرض نباتا ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا ،والله جعل لكم الأرض بساطا لتسلكوا منها سبلا فجاجا ﴾.(١)

فلم يلتفت قوم نوح لكل هذه الدلائل المنبثة في أرجاء الكون والتي يعايشونها في كل لحظات حياتهم بل دأبوا على الاستكبار وقلب الموازين التي قد تحددت بها منازل البشر حيث جعلوا المال هو الدائرة التي يلتف حولها جمهرة الناس وجعلوا أهله هم القدوة في المجتمع الانساني ولذلك تعللوا لعدم إيمانهم بدعوة نوح أن أناسا في نظرهم أرذلون قد اتبعوه وءامنوا بما جاء به فجعلوا المال ميزانا في اتباع الفضائل فما دام أن الذين اتبعوا نوحا فقراء فهم لا يؤمنون به؛ لأن مرتبتهم أعلى بالمال من مرتبة أولئك المساكين الذين اتبعوا نوحا وسلكوا معه سبيل الهدى . وهذا يدل على أن قوم نوح كانوا في فكرهم

---

(١) سورة نوح آية ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ .

سطحيين حيث خصوا المنزلة العالية بمن يملك حطام الدنيا وبمن هو أوفر حظا في متاعها. والمنزلة السفلى عندهم لمن حرم متاع الحياة الدنيا وكان فقيرا لا مال له ولا متاع ، هذه نظرتهم الخاطئة ومعيارهم للأشياء، وبنظرتهم تلك خسروا أنفسهم وضلوا سبيل النجاة إذ لم يدركوا أن الدنيا بحذافيرها لا تعدل عند الله جناح بعوضة . ولم يدركوا أن النعيم والمتاع هو الحياة الاخرة ﴿ وإن الدار الاخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون ﴾ (١) وحيث لم يدركوا أن المنازل العالية تنال بالدخول إلى الجنة وأن الذل والهوان هو لصيق بالذين ضلوا طريق الايمان حق عليهم العذاب في الدنيا بالغرق ، وفي الآخرة بالدخول في النار بقول الله عز وجل ﴿ فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نريك إلا بشرا مثلنا ، وما نريك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى (٢) وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين ،قال يقوم أرءيتم إن كنت على بينة من ربي وءاتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ويا قوم لا أسألكم مالا إن أجرى إلا على الله وما أنا بطارد الذين ءامنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكني أراكم قوما تجهلون ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم ،أفلا تذكرون ولا أقول عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما في أنفسهم إني اذا لمن الظالمين ﴾ (٣)

---

(١) سورة العنكبوت آية ٦٤.

(٢) يقصدون أن الذين اتبعوه هم في نظرهم وتفكيرهم سطحيون فلا ينظرون الى الأمور بتعمق . انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ٢/ ٤٤٢ نشر دار التراث القاهرة وانظر معاني القرآن للفراء جـ٢/ ١١.

(٣) سورة هود آية ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١.

فالآيات تبين أنهم تكبروا عن الحق وأبوا اتباعه ما دام أن الذين
آمنوا به هم فقراء فيأنفون الايمان بما جاءهم به رسولهم بدعوى أن قوما
لا قيمة لهم في نظرهم قد آمنوا بنوح وليسوا هم في درجتهم المادية
حيث احتقروهم بما عاينوا عليهم من رثاثة الحال وقلة المنال دون عمق
في النظر وتدبر في كمالات المعاني التي تؤهل الانسان للتوفيق الى
الدرجات العالية ذلك هو الميزان لأحوال الانسان الظاهرة ، وهذه
صورة يراها الانسان تتكرر في كل زمان وعند كل من لم يعلم الغاية من
خلقه ومع كل الذين طغوا كقوم نوح حيث عمدوا إلى تكذيبه مع أنه
لم يدع شيئا يستلزم تكذيبه كادعاء علم الغيب أو ادعاء السيطرة
على خزائن الله أو أرزاق عباده أو ادعاء الملائكية ، وانما الذى ذكره
نوح من دعوة قومه وتحذيرهم العذاب بوحي من الله فهو صادق في
دعوته مؤيد في ذلك بالحجة القاطعة ولا يضره إن لم يتفكروا ويتدبروا
بعقولهم التي هي ملاك الخير ، وبها يمتاز الناس عن غيرهم من الخلائق
بل عن بعضهم بعض وحيث لم ينتفعوا بذلك فلا يلزمهم نوح الايمان
فهم مختارون في الايمان وعدمه ، ومؤاخذون على اختيارهم . ويستمر
قوم نوح في اختلاق الافتراءات واختراع العلل والأعذار فها هم يتعللون
لعدم ايمانهم أيضا بأنه بشر مثلهم لا ينبغي أن يتفضل عليهم إذ لا
مزية له في نظرهم عليهم تجعله يختص بالنبوة وتجب له الطاعة فلو
شاء الله أن يرسل إليهم رسولا لأنزل ملائكة حيث قال سبحانه ﴿ ولقد
أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره أفلا تتقون ،

فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين * (١)

وهي فرية كثيرا ما تعلل بها المتكبرون من الأمم المدعوة لتوحيد الله ، وهي في الحقيقة يراد بها التعجيز للدعاة من الأنبياء والا لم يسبق أن أرسل الله ملكا لقوم وبالتالي هم لم يؤمنوا بالله الواحد الأحد رب الملائكة الذين لم يدرك الانسان عنهم شيئا لولا الاخبار من الله عز وجل (٢)

وظل قوم نوح سادرين في تكبرهم فكلما أفحمهم نوح وأبطل فرية من دعاويهم كلما اخترعوا أخرى بحيث مرة اتهموه بأنه في ضلال مبين ، بذهابه عن طريق الحق في نظرهم ومرة رموه بالجنون كما قال عز وجل في الأولى * قال الملأ من قومه إنا لنراك في ضلل مبين قال يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون * (٣) . وقال عز وجل في الثانية * إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين * (٤) وفي نهاية الأمر لما أعياهم أن يجدوا ما يفحمون به نوحا التجأوا إلى القوة والتهديد بالرجم والقتل كما قال عز وجل * قالوا لئن لم تنته ينوح لتكونن من المرجومين * (٥) واستمروا في عتوهم واستكبارهم حتى أخذهم الطوفان وهم كافرون . فكانوا بذلك من الخاسرين في الدنيا والآخرة.

---

(١) سورة المؤمنون آية ٢٣ ، ٢٤ .

(٢) وقد مر معنا ضرورة بشرية الرسل . انظر ص ١٨٧ .

(٣) سورة الأعراف آية ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ .

(٤) سورة المؤمنون آية ٢٥ .

(٥) سورة الشعراء آية ١١٦ .

ففي الدنيا كانت خاتمتهم بالغرق وذلك أنه لما آيس نوح من إيمانهم بأن أخبره الله أنه لن يؤمن الا من قد آمن من قومه ،ودعا ربه لينصره عليهم سلط الله عليهم المياه من فوقهم ومن تحتهم فتحت أبواب السماء بالمياه الجارفة وتفجرت الأرض بالأنهار المدمرة وذلك ما أخبرنا به الله في الآيات الكريمات * وأوحي الى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون *(١) ، وقوله تعالى * قال رب انصرني بما كذبون فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا ، فاذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون *(٢) وقوله عز وجل * فدعا ربه أني مغلوب فانتصر ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر *(٣).

وفي الآخرة بالخلود في العذاب المقيم ،بينما كانت النجاة لنوح ومن آمن معه كما قال عز وجل * قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم *(٤).

فنجى الله نوحا ومن معه من المؤمنين وتلك سنة الله التي لا تتغير في المكذبين والمؤمنين فللمكذبين الخسران والخذلان وللمؤمنين النجاة والنصر والاكرام.

---

(١) سورة هود آية ٣٦.
(٢) سورة المؤمنون آية ٢٦، ٢٧.
(٣) سورة القمر آية ١٠، ١١، ١٢.
(٤) سورة هود آية ٤٨.

موطن الابتلاء في قصة نوح :

لا ريب أن القصص القرآني ساقه الله لأخذ العبرة منه بالنظر في مواقف الأمم من انبيائهم كما قال عزوجل * ولقد تركناها اية فهل من مدكر *(١) وكما قال سبحانه * إن في ذلك لآيات وإن كنا لمبتلين *(٢) . فقوم نوح قابلوا دعوة نبيهم بالآتي :

١ - قسوة قلوبهم وسوء أدبهم مع نبيهم حيث يناديهم عليه السلام بما فيه التودد بما يستثير مشاعرهم من الروابط التي بينه وبينهم لعلهم يدركون عمق شفقة نوح عليهم وحبه الخير لهم وحرصه على النصيحة لهم ولذلك تراه يرد عليهم بالوداعة والحلم في كل اتهام وجهوه اليه كما نرى ذلك واضحا في قوله تعالى * قال يا قوم إني لكم نذير مبين • أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون يغفر لكم من ذنوبكم ويوءخركم إلى أجل مسمى إن أجل الله إذا جاء لا يوء خر لو كنتم تعلمون *(٣) وفي قوله تعالى * قال يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم واعلم من الله ما لا تعلمون *(٤) بينما القوم يقابلون سماحة نوح وتودده لهم ولطفه معهم بالسماجة والاعراض واتهامهم له بالجنون والضلال وغير ذلك كما أنهم خاطبوه بكلام فظ غليظ كله سخرية واستهزاء فكأنه غريب عنهم كما يستشف من قوله تعالى * ما نراك إلا بشرا مثلنا *(٥) وقوله تعالى * إنا لنراك في ضلل مبين *(٦)

---

(١) سورة القمر آية ١٥ .
(٢) سورة الموءمنون آية ٣٠ .
(٣) سورة نوح آية ٢ ، ٣ ، ٤ .
(٤) سورة الأعراف آية ٦١ ، ٦٢ .
(٥) سورة هود آية ٢٧ .
(٦) سورة الأعراف آية ٦٠ .

وفي قولهم : ﴿ إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين ﴾(١) وفي قولهم ﴿ قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين ﴾.(٢)

٢ - جهلهم بمواطن القيم وبما ترتفع به المنازل حيث جعلوا المال هو القيمة التي تبنى عليها الفضائل فمن فقده وكان فقيرا يعد من الأراذل ،وما دام الأمر كذلك في نظرهم فهم ممتنعون من اتباع دعوة نوح حيث آمن به الفقراء ﴿ قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون ﴾(٣) ﴿ وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين ﴾.(٤)

فالذين رأيهم سديد وقولهم مصيب هم أصحاب المال والسلطان والجاه والقوة .

٣ - نكرانهم لنبوة البشر حيث رأوا بفكرهم الخاطيء أن الرسول ينبغي أن يكون ملكا ولذلك فان ادعاء نوح النبوة ما يريد به إلا الاستعلاء عليهم وتفضيل نفسه من بينهم وإن لم يكن إلا هذا ولا ذاك فهو مجنون ﴿ ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين ﴾(٥) وهذا منهم يدل على أقصى غاية الكبر الذى وصلوا اليه والحسد الذى دأبوا عليه ،فلم يرضوا أن يكون نوح رسولا لهم يأتيهم الخير والهدى على يده فيفضلهم بذلك ويشرف عليهم .

---

(١) سورة المؤمنون آية ٢٥.
(٢) سورة الشعراء آية ١١٦.
(٣) سورة الشعراء آية ١١١.
(٤) سورة هود آية ٢٧.
(٥) سورة المؤمنون آية ٢٤ ، ٢٥.

٤ - اصرارهم على العناد واقفال قلوبهم عن التذكر والتدبر فيما هو حق ، وذلك ما يلجأ إليه المتكبرون في كل عصر وعند كل دعوة تقض مضاجع المتكبرين وتهد منازل الأثرياء المتسلطين . فقوم نوح لما لم يستطيعوا أن يقارعوا الحجة بالحجة طلبوا من نوح أن يأتيهم بالعذاب الذى طالما أوعدهم بحلوله بهم . فحينما يعجز الطغاة عند دحض الحق ويعمدون الى نصرة الباطل وتحق عليهم الخاتمة السيئة يطلبون نزول العذاب بهم استهانة واستهزاء ومبالغة في عدم اكتراثهم بدعوة الايمان وبالتالي ليسوا بمصدقي أنبياء الله فيما يقولونه كقوم نوح حيث قالوا * يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين *(١) ولذلك سخروا منه حينما شرع في صنع السفينة وهذا يدل على أنهم كانوا قوما متبلدى الفكر والنظر وإلا لما كان نوح يتكلف صنع سفينة ضخمة تحمل كثيرا من الناس والحيوان والطير من كل زوجين اثنين * ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه ، قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم *.(٢)

فكانت الخاتمة لقوم نوح الغرق بالطوفان فلم تبق لمن كفر بنوح باقية وطوتهم السنون والأيام . وهبط نوح ومن معه بالبركات والسلام كما قال عز وجل * قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم *(٣)

---

(١) سورة المؤمنون آية ٣٢ .
(٢) سورة هود آية ٣٨ ، ٣٩ .
(٣) سورة هود آية ٤٨ .

أخرج ابن جرير بسنده عن محمد القرظي قال : " دخل في ذلك السلام والبركات كل مؤمن الى يوم القيامة ،ودخل في ذلك المتاع والعذاب الأليم كل كافر وكافرة الى يوم القيامة ".(١)

مبحث ابتلاء قوم عاد؛ وقد ظهر ذلك في الأمم التي تلت قوم نوح كعاد التي ذكرها الله تالية لأمة نوح حيث قال عز من قائل ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ﴾ فظهر قوم عاد أيضا بانحراف في العبادة حيث اتخذوا أصناما سموها بأسماء واتجهوا إليها وهي لا تنفعهم بشيء ولا تضرهم بشيء وتركوا عبادة من حباهم بنعم جمة حيث منّ عليهم بالعيون الجارية والبساتين الوارفة وذلك بعد أن خلقهم على هيئة في الكمال الانساني وصفة عالية في القدرة وبسطة في الجسم فبدل أن يتوجهوا إلى المنعم بالشكر والاعتراف بما أسدى إليهم من خيرات متتالية ويلتجئون إليه عند الملمات ليكشفها عنهم بفضله ورحمته ، بدل ذلك اتجهوا بحسهم المبلد الى أصنام لا يرون منها نفعا ولا ضرا . ومجتمع يكون على هذه الصفة من الضلال لا مناص من أن يسود فيه الظلم والطغيان والفتك بالقيم والبطش بالضعاف فعتوا عتوا كبيرا وافتروا افتراء واضحا بينا فأصبحت الحياة في دنياهم في حاجة إلى إصلاح العقيدة والمنهج ،

---

(١) قال ثنا ابن وكيع قال ثنا أبي عن موسى بن عبيدة عن محمد . وفيه موسى ضعفه في التقريب جـ٢/ ٢٨٦ ط/ الثانية ١٣٩٥ وباقي رواته ذكروا في الثقات إلا سفيان بن وكيع كان صدوقا لولا ما دخل عليه من جهة وراقه . انظر التقريب جـ١/ ٣١٢ والأثر من حيث معناه صالح للأخذ به.
جامع البيان جـ١٢ ص ٣٤ الطبعة الأولى - الأميرية .

فأرسل الله إليهم أخاهم هودا فدعاهم أول ما دعاهم الى توحيد الله بالرجوع إليه بالعبادة وحده لا شريك له والتزلف إليه بالطاعة والاستغفار مما ارتكبوه من جحود لآلائه وحذرهم عاقبة من سبقهم من قوم نوح الذين عاندوا واستكبروا فلم يهتدوا إلى سبيل النجاة كما أخبر عز وجل بذلك حيث قال * وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره أفلا تتقون *(١) * وإلى عاد أخاهم هودا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره ان أنتم الا مفترون *(٢) * كذبت عاد المرسلين إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون اني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون . واذا بطشتم بطشتم جبارين ،فاتقوا الله وأطيعون واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين *(٣) لكن قوم عاد كانوا في غاية من الاستهتار والاستهزاء والغلظة فسلكوا بذلك مسلك أسلافهم من قوم نوح عكس ما قابلهم به هود نبي الله من نداء فيه اظهار القربى لهم بالأخوة النسبية وفيه بيان الأمانة والحفاظ على مصالحهم والنصيحة لهم مع تذكيرهم ولفت نظرهم إلى ما هم فيه من نعيم . قابلوا كل ذلك بوصف هود مرة بالسفه ، ومرة يعجبون

---

(١) سورة هود آية ٥٠.

(٢) سورة الأعراف آية ٦٥.

(٣) سورة الشعراء آيات ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ .

من كونه رسولا وبالتالي حينما ذكرهم مما هم فيه من نعم وبين لهم أنه لا يريد بدعوته سلطانا ولا مالا وانما ينتظر الأجر من الله الذى أرسله إليهم كما رغبهم بأن يستغفروا الله ربهم ورازقهم ليزيدهم نعما على ما هم فيه من كثرتها لما بين لهم ذلك اتهموه بأنه أصيب من طرف بعض آلهتهم في عقله حيث أمرهم بترك التوجه إليها بما ليس لها فيه حق وبما هو خاص لله ورموه بما هم أحق به ،وسلوكهم ينطبق عليه فكانوا كما قال القائل :

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد

وينكر الفم طعم الماء من سقم

وهكذا مضى قوم عاد في غيهم وركوبهم عصا الشطط والعناد فأنكروا أن يكون الرسول بشرا مثلهم في الآدمية بتناول الطعام والشراب وأخيرا أبعدوا منكرين أن يكون هناك حياة أخرى غير هذه الحياة وانما هي حياة واحدة في الدنيا يأتي جيل وينقرض ثم لا يعود وهكذا فلا بعث ولا نشور ومن ثم فلا يسئلون عما يفعلون ويقولون ولاعن انفلاتهم في الحياة يفجرون ويفسقون ويعبثون في الأرض فسادا ولذلك فهم ليسوا على استعداد لسماع هود ، فليعظهم أولا يعظهم . وختاما : لطمس بصيرتهم طلبوا من نبيهم الاتيان بما حذرهم منه من عذاب عظيم.وحينئذ تركهم هود عليه الصلاة والسلام بعد أن أبلغهم رسالة ربه وأبو إلا التكذيب والعدوان على الرسول مخبرا إياهم بأن العذاب سيحل بهم فكانت خاتمتهم مخزية حيث سلط عليهم ريحا دخلت عليهم حتى قعور

بيوتهم فأخرجتهم ثم تركتهم أجسادا نخرة ذلك ما أخبر به الله في قوله

الكريم * قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك

من الكاذبين قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين

أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين *(١) وفي قوله عز وجل * ياقوم

لا أسألكم أجرا إن أجرى إلا على الذى فطرني أفلا تعقلون وياقوم استغفروا

ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم

ولا تتولوا مجرمين ، قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا

عن قولك وما نحن لك بمؤمنين إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء

قال إني أشد الله واشهدوا أني برئ مما تشركون من دونه فكيدوني

جميعا ثم لا تنظرون إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو

آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم *(٢) وفي قوله عز وجل

* وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم في

الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما

تشربون ، ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون أيعدكم أنكم إذا

متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون هيهات هيهات لما توعدون إن هي

إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين *(٣) وفي قوله تعالى

---

(١) سورة الأعراف آية ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ .

(٢) سورة هود آية ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ .

(٣) سورة المؤمنون آية ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ .

* فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أولم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بئاياتنا يجحدون فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون *. (١)

موطن الابتلاء في قصة عاد :

١ - يظهر ذلك في مقابلتهم الحسنى بالسوأى كما ظهر سابقا في قوم نوح فكلما لان هود عليه الصلاة والسلام في القول لهم كلما ازدادت قلوبهم قسوة وسلكوا سبيل الظن والسوء والاستهزاء والاصرار على الباطل والشتم وذلك كقولهم * سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين إن هذا إلا خلق الأولين وما نحن بمعذبين * (٢) وكقولهم * إن نقول الااعتراك بعض ءالهتنا بسوء *. (٣)

٢ - عدم اكتراثهم بتحذير هود لهم من عذاب محقق إن هم لم يتركوا عبادة الأصنام فتحدوه بعدم تركها بل بطلبهم منه الاتيان بما وعدهم به من عذاب كما قال تعالى * قالوا أجئتنا لتأفكنا عن ءالهتنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين * (٤) واستمروا عاكفين على عبادة الاصنام حتى جاءهم العذاب من حيث حسبوه خيرا * قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم كذلك نجزى القوم المجرمين * (٥)

---

(١) سورة فصلت آية ١٥، ١٦.
(٢) سورة الشعراء آية ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨.
(٣) سورة هود آية ٥٤.
(٤) سورة الاحقاف آية ٢٢.
(٥) سورة الاحقاف آية ٢٤.

٣ - غرورهم بما من الله به عليهم من القوة ودواعي البطش من أجسام عظيمة وأموال أترفتهم فلم يشكروا ربهم على ما أعطاهم بالاستجابة لدعوة أخيهم هود الذى دعاهم الى الايمان وحذرهم مما هو واقع بهم لا محالة - من عذاب فأغلظوا له القول واغتروا بما هم فيه من ترف حتى أنكروا أن يكون النبي بشرا * ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم اذا لخاسرون * .(١)

٤ - مبالغتهم في استبعاد واستحالة وجود حياة أخرى بعد هذه الحياة وادعاؤهم أن الأمر أنف وما هي الا أجيال تأتي ، وأجيال تضمحل كلما هلك جيل جاء بعده جيل وانقضى الأمر لاتبعة ولا مسئولية كما قيل : ماهي الا أرحام تدفع وأرض تبلع وهذا القول منهم يريدون به اراحة ضمائرهم التي تؤنبهم وفطرتهم التي تضيق بفسقهم وخروجهم عن المنهج الالهي * أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون ،هيهات هيهات لما توعدون إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين * .(٢)

٥ - صرفهم الأموال التي منّ الله عليهم بها والقوة التي أمدهم بها فيما لا مصلحة ترجى منه ولا فائدة ترتقب فيه بل ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ويعيشون بها في الملذات والشهوات ويشيدون البنايات العالية والمنازل الفاخرة فخرجوا بالمال عن صرفه فيما ينفع المجتمع من سد خلة الفقير وجبر كسر الضعيف بل راحوا يبطشون

---

(١) سورة المؤمنون آية ٣٤ .

(٢) سورة المؤمنون آية ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ .

بالضعفاء ويتجبرون على من دعاهم إلى الهدى أو الاصلاح ﴿ أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون وإذا بطشتم بطشتم جبارين فاتقوا الله وأطيعون واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون ﴾.(١)

٦ - نظرهم فيما دعاهم نوح إليه كان سطحيا يدل على تبلد حسهم وعمههم في الطغيان وذلك أن هودا عليه السلام صدر منه ما ينبه قلوبهم لو تدبروا ،ويوقظهم من سباتهم لو تفكروا ، حيث تحداهم وهم كثر وهو انسان فرد بأن يكيدوه وبأسرع ما يستطيعون فلم يبال بهم ،لأنه مرسل من رب قوى آخذ بناصية كل شيء في هذا العالم وفي جميع العوالم والأكوان وذلك بعد أن تبرأ مما يعبدون من الأصنام ، فما كان يضرهم لو اتبعوه بعد أن تحداهم على كثرتهم وهو وحيد بينهم لولا أن هناك قوة تؤيده فيما قال ،يضاف لهذا أيضا أنهم حينما استعجلوا العذاب وطلبوا الاتيان به تبرأ هود من أن يعلم الغيب ورد العلم لله بحلول وقت العذاب عليهم فالله الذى أرسله إليهم هو العليم بذلك ﴿ قال إنما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به ولكني أراكم قوما تجهلون ﴾(٢) لو توقفوا هنا بتأمل وألقوا الطغيان جانبا لأدركوا أن نوحا مرسل من عند الله حيث لم يستطع أن يزيد على اخبارهم بحلول عذاب بهم لا يدرى وقته ولا كيفيته بل العلم به عند من أرسله

---

(١) سورة الشعراء آية ١٢٨ ،١٢٩ ،١٣٠ ،١٣١ ،١٣٢.
(٢) سورة الأحقاف آية ٢٣.

وهو الله . ويمضى زمان قوم عاد بعد أن أجريت عليهم سنة الله في المكذبين فأهلكهم الله بريح صرصر عاتية وأنجا الذين فتحوا عيونهم وقلوبهم للمرسلين ،ثم يأتي زمان قوم ثمود بعدهم كما قال عز وجل * واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد *(١) ويعبدون ما سبق أن سلكه قوم نوح وقوم هود عبدوا غير الله وتقربوا للأصنام فبعث الله لهم أخاهم صالحا على نبينا وعليه أفضل الصلاة والتسليم ليعيدهم إلى رشدهم وينبههم إلى الانحراف الذى وقعوا فيه والذى طرأ على سلوكهم فيخاطبهم خطابا كله مودة وشفقة عليهم مبديا لهم النصح مذكرا إياهم نعم الله التي يتمتعون بها اناء الليل وأطراف النهار فبعد أن لم يكونوا من الله عليهم بايجادهم من العدم فخلفوا الأقوام التي بادت قبلهم وسخر لهم الأرض وما فيها من متع يستغلونها ومن قصور يشيدونها ومن بيوت في الجبال ينحتونها ومن مقام بين الجنان والزروع والثمار الوافرة والتي جعلها الله لهم سهلة لينة كما أخبر سبحانه وتعالى * وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب *(٢) وفي قوله تعالى * واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون من الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين *(٣)

---

(١) سورة الأعراف آية ٧٤ .
(٢) سورة هود آية ٦١ .
(٣) سورة الأعراف آية ٧٤ .

وفي قوله تعالى ﴿ كذبت ثمود المرسلين إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين أ تتركون فيما ها هنا آمنين في جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم وتنحتون من الجبال بيوتا فرهين فاتقوا الله وأطيعون ولا تطيعوا أمر المفسدين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون ﴾.(١) وهكذا بعد أن اجتهد صالح عليه الصلاة والسلام في رد قومه إلى طريق الهدى بالقولة المنبهة والنصيحة البالغة والموعظة الحسنة والقول اللين ، ساموه بما هم أهله وحالتهم ناطقة به . رموه بالسحر مرة وأخرى ينسبون إليه ما أصابهم من مصائب يختبرون بها ،وثالثة أنكروا كسابقيهم رسالته إليهم بدعوى أنه بشر مثلهم فكيف يختار من بينهم . وهي دعاوى - كما سبق القول - لا تقوم لها قائمة ولا تجد لها أذنا صاغية . وجوه الافتراء عليها بادية كما جاء في قول الله عز وجل ﴿ قالوا انما أنت من المسحرين ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين ﴾(٢) وفي قوله تعالى ﴿ كذبت ثمود النذر فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذا لفي ضلل وسعر أءلقي الذكر من بيننا بل هو كذاب أشر سيعلمون غدا من الكذاب الأشر ﴾(٣) وفي قوله عز وجل ﴿ قالوا اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون ﴾(٤) . وفي مقابلتهم هذه

---

(١) سورة الشعراء آية ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٢.

(٢) سورة الشعراء آية ١٥٣ ، ١٥٤.

(٣) سورة القمر آية ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦.

(٤) سورة النمل اية ٤٧.

وغلظتهم وعتوهم في الجواب يستمر صالح عليه الصلاة والسلام في نصحهم وتحذيرهم مما قد يحل بهم إن هم دأبوا على ضلالهم ولم يرجعوا إلى رشدهم وأتاهم بالبينة التي طلبوها منه وحذرهم بأنهم اذا لم يوءمنوا به ويتبعوه بعد ما يحصل لهم مما أرادوه من معجزة توءيد صدقه في الرسالة فسيحل بهم عذاب أليم . فأرسل الله إليهم ناقة اختبارا لهم بحيث إن هم استقاموا وصدقوا أخاهم صالحا فقد فازوا وإن هم كذبوه حلت بهم العقوبة العاجلة فجاءتهم البينة ظاهرة في الناقة وقد أمرهم الله بأن لا يمسوها بسوء فيجب عليهم أن يذروها تسرح وتمرح حيث تشاء وان الماء مقسوم بينهم وبينها يوم لهم ويوم لها . وحينما أحس أشراف ثمود المتكبرون بانكشاف بهتانهم وافترائهم ضد دعوة أخيهم صالح بحصول البينة التي طلبوها ليصدقوه - وها هم لم يوءمنوا - ووجدوا أنفسهم في ضيق من استمرار هذه البينة الدالة على صدق صالح والتي ءامن بسببها الضعفاء من القوم فرأوا أنه لا بد من القضاء على هذه البينة وذلك بقتل ناقة الله التي سبق أن حذرهم صالح من مسها بسوء .

ذلك ما نجده في الايات الكريمات ﴿ قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن ءامن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به موءمنون ،قال الذين استكبروا إنا بالذى ءامنتم به كافرون ، فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ، فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين ﴾ (١)

---

(١) سورة الأعراف آية ٧٥ ،٧٦ ،٧٧ ،٧٨ ،٧٩ .

وفي قوله عز من قائل ﴿ قال يا قوم أرءيتم إن كنت على بينة من ربي وءاتاني منه رحمة فمن ينصرني من الله إن عصيته ،فما تزيدونني غير تخسير ، ويا قوم هذه ناقة الله لكم ءاية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب ﴾(١) وفي قوله تعالى ﴿ قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم ﴾(٢) وفي قوله تعالى ﴿ إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر ﴾(٣) . ورغم وجود هذه البينة الواضحة الدلالة قطعا على صدق صالح عليه الصلاة والسلام في رسالته أصر قوم ثمود على الانحراف والتكذيب والتحدى فيما أوعدهم به صالح من عذاب أليم إن هم عقروا الناقة فلم يبالوا بذلك وبعثوا من يعقر الناقة من المفسدين ،وبالتالي يتنادون للتشاور في المكر والايقاع بصالح عليه الصلاة والسلام بعد أن أعلمهم بحلول العذاب بهم بعد ثلاثة أيام فبيتوا أمرهم مقسمين على مباغتته بالعدوان عليه وعلى أهله بالقتل ،ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ،وفعلا يحل بهم ما أوعدهم به صالح من عذاب ظهر في صيحة واحدة تركت القوم الكافرين جثثا هامدة لا حراك فيها كما يهمد الزرع اليابس المتهشم الذى وطئته الأقدام والحوافر ونجى الله نبيه صالحا ومن ءامن معه . وكان النصر للمؤمنين والخزى والهلاك للمكذبين الضالين ،ذلك ما أخبرنا

---

(١) سورة هود آية ٦٣/٦٤ .

(٢) سورة الشعراء آية ١٥٥ ،١٥٦ .

(٣) سورة القمر آية ٢٧ ،٢٨ .

به الله في قوله ﴿ فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ، فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين ﴾.(١) وفي قوله تعالى ﴿ فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين ءامنوا برحمة منا ومن خزي يومئذ إن ربك هو القوي العزيز وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾(٢) وفي قوله تعالى ﴿ وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون ، قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وانا لصادقون ، ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون ، فانظر كيف كان عاقبة مكرهم إنا دمرناهم وقومهم أجمعين ﴾.(٣)

<u>موطن الابتلاء في قصة ثمود :</u>

١ - إضافة إلى ما ابتلى به قوم نوح وقوم هود من مقابلتهم للحسنة بالسيئة ومن فظاظة في القول وغلظة في الجواب ومن نكران لبشرية المرسلين ومن كفران للنعم المحيطة بهم في كل مكان ومن تحد بطلب حلول ما يعدهم به الرسل من عذاب يصيبهم بسبب إعراضهم فان قوم صالح أيضا ابتلوا بمثل ذلك .

---

(١) سورة الأعراف آية ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ .
(٢) سورة هود آية ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ .
(٣) سورة النمل آية ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ .

٢ - وبما نسبوه لصالح من شوءم حل بهم حيث تطيروا بما أصابهم به من أشياء هي امتحان في الحقيقة حيث اختبرهم الله بها علهم يرعوون ويرجعون الى الايمان بالله الذى يقلب الأحوال والقلوب فهم أنفسهم مرة يصابون بالسراء ومرة بالضراء وذلك ما جاء في قوله تعالى (١)
﴿ قالوا اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون ﴾.

٣ - وبما طلبوه من بينة تدل على صدق صالح عليه الصلاة والسلام فيما يدعوهم إليه فأرسل إليهم ناقة لها خصائص تدل على صدقه وتجيب عليهم أن يستجيبوا بدون تكلف لكن القوم ظلوا مصرين على تكذيبهم وتكبرهم عن الخضوع للحق والهدى واصرارهم على عدم إلقاء الباطل والضلال واتباع الهوى .

ويمضى الزمن طاويا أخبار صالح وقومه ولا نعلم شيئا بعد هذه الفترة عن أمم بعد ثمود قبل دعوة ابراهيم عليه الصلاة والسلام فهو أبو الأنبياء الذين جاءوا من بعده حيث أتاه الله الرشد ، فتصدى لقومه الذين كانوا سادرين في عبادة الأصنام تارة وعبادة الكواكب تارة أخرى وعبادة البشر كالنمروذ الذى حكم الناس واستعبدهم من دون الله ،تصدى لهم فنهاهم عن عبادة الأصنام وسلك معهم طريق الاستدراج في دعوته اياهم على كل الحالات ، فليقلعوا عن عبادة الكواكب ويعودوا الى عبادة الواحد الأحد . من أجل ذلك أرسل الله ابراهيم لينير لهم الحجة لكنهم عاندوا فألجأهم ابراهيم الى الدليل الواضح الذى لا ريب بعده

---

(١) سورة النمل آية ٤٧.

في استحقاق العبادة للواحد الأحد الذى يسير الكون بارادته المطلقة ومن جملة ذلك الكواكب السيارة فليوقظهم من غفلتهم جاراهم في تعلقهم بالكواكب وعبادتهم لها فكأنه عليه السلام يقول لهم على فرض ألوهية هذه الكواكب تعالوا ننظر في خصائصها هل لها ما تستحق به الربوبية والألوهية أم لا ؟ فنجدها ما تلبث فترة حتى تغيب عن الأنظار ، ومعنى هذا أنها مُسيرة لمحدثها وأنها تتصف بالتغيير من حال الى حال فهذا القمر يبزغ كاملا ليلة بدره ثم يغيب وهذه الشمس أكبر منه هي الأخرى تتعرض للتغيير . وما دامت هذه الكواكب تتعرض للتغيير فلا تصلح أن تكون الها وربا ، لأنها معرضة للنقص والتغيير فاقدة للقدرة المطلقة والسلطان الكامل ، ومن كان كذلك كان ضعيفا قليل القوة فألجأهم بذلك الى حقيقة أن الاله هو الذى لا يتعرض للنقص أو العجز بل له الكمال التام والنفع والضر . وحينما أوقفهم ابراهيم على الحقيقة وثبت أنهم مشركون تبرأ منهم وأعلن توجهه لله الذى خلق الأشياء كلها كبيرها وصغيرها . ومن هنا فهولا يخاف آلهتهم التي أشركوا بها حيث ان الأمن والاستقرار والنصر للموحدين الذين لم يشركوا بعبادة ربهم أحدا فحاجهم عليه الصلاة والسلام حتى وضح الحق وأفل الباطل . ذلك ما أخبرنا به القرآن الكريم حيث يقول رب العزة والجلال ﴿ واذ قال ابراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين ، فلما جن (١) عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي ، فلما أفل

---

(١) معناه ستره يقال جن عليه الليل من باب قتل أى ستره . كتاب المصباح المنير ص ١٣٦ .

قال لا أحب الآفلين ،فلما رأ القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين ،فلما رأ الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر ،فلما أفلت قال يا قوم انى برىء مما تشركون إني وجهت وجهي للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين وحاجه قومه قال أتحاجوني في الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئا وسع ربي كل شيء علما أفلا تتذكرون وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم ﴾.(١)

٢ - وفي حال اتجاههم بالعبادة للأصنام المنحوته يتجه معهم الى الحجج أيضا وينصح أول ما ينصح أباه في تلطف وتأدب كما مر معنا في الفصل قبل هذا لكن أباه وقومه كابروا في جحودهم وعنادهم واعراضهم عن الحق الذى وضحه نبي الله ابراهيم عليه الصلاة والسلام لهم بحيث بين لهم بأنهم يرتكبون إفكا وإثما مبينا بعكوفهم على عبادة الأصنام التي لا تسمعهم حين يدعونها ولا تنفع من يريدون نفعه ولا تنصر من يريدون نصره بل هم الذين يصنعونها بأيديهم ويصورونها تماثيل فكيف يعبدونها ؟،فهم بذلك إذن في ضلال كبير وما كان من قوم ابراهيم عليه الصلاة والسلام إلا المضي في عتوهم واحتجاجهم بأن آباءهم كانوا

---

(١) سورة الأنعام آية ٧٤، ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٧٩، ٨٠، ٨١، ٨٢، ٨٣.

يعبدونها ويحاولون نسبة اللعب الى ابراهيم فيما جاءهم به من حـــق كما أخبرنا عز وجل في قوله : * ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنـا به عالمين إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبيـن قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين ،قال بل ربكم رب السموت والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلك من الشاهدين *.(١) وفي قوله تعالـــى * وإنّ من شيعته لابراهيم إذ جاء ربه بقلب سليم إذ قال لأبيـــه وقومه ماذا تعبدون أئفكا الهة دون الله تريدون ،فما ظنكم بـــرب العالمين *.(٢)

ولما رأى ابراهيم عليه الصلاة والسلام إصرارهم على المقـام في عبادة الأصنام وآيس من اقلاعهم عن العكوف عليها يسلك معهـم سبيلا آخر يوقظهم من غفلتهم ويمسهم في أعماق قلوبهم لعلهم يلقـون الكبر جانبا ويوحدون بالعبادة من يستحقها وذلك أن ابراهيم عليـه الصلاة والسلام عمد الى أصنامهم فكسرها وقطعها قطعا قطعا بعـد أن تحين الفرصة المواتية لذلك. وحينما اتهموه بذلك، قال : بل فعله كبيرهم هذا ليقفوا على ما هم فيه من باطل بأعينهم ويرجعوا الى الحق إن كانوا يريدونه ويتركون الغي الذى هم سادرون فيه ، لكن القوم بعـد أن أخرس ابراهيم ألسنتهم وفكروا مليا وأدركوا أنهم مخطئون فـــي عبادتهم لما لا ينفع ولا يضر بل لا يستطيع الدفاع حتى عن نفســه

---

(١) سورة الأنبياء آية ٥١، ٥٢، ٥٣، ٥٤، ٥٥، ٥٦.
(٢) سورة الصافات آية ٨٣، ٨٤، ٨٥، ٨٦، ٨٧.

واعترفوا بأنهم ظالمون وعلى ضلال وباطل ، لما أدركوا ذلك لجأوا الى القوة ليستروا فضيحتهم أمام ضعاف قومهم فأجمعوا أمرهم على حرق ابراهيم عليه الصلاة والسلام ،فرموه في النار فنجاه الله منها بحيث أمرها بأن تكون بردا وسلاما على ابراهيم ويتركهم عليه الصلاة والسلام مهاجرا لهم طالبا أرضا يعبد الله فيها حق عبادته وذلك ما جاء في قول الله عز وجل ﴿ وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم يرجعون قالوا من فعل هذا بئالهتنا إنه لمن الظالمين ، قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم ، قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون ،قالوا ءأنت فعلت هذا بئالهتنا يا إبراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا فاسئلوهم إن كانوا ينطقون فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون ثم نكسوا على رؤسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون قالوا حرقوه وانصروا ءالهتكم إن كنتم فاعلين قلنا يانار كوني بردا وسلاما على إبراهيم وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين ﴾ (١) وفي قوله عز من قائل ﴿ فنظر نظرة في النجوم فقال : إني سقيم فتولوا عنه مدبرين فراغ الى ءالهتهم فقال ألا تأكلون مالكم لا تنطقون فراغ عليهم ضربا باليمين فأقبلوا اليه يزفون (٢) قال أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه في الجحيم فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين وقال إني ذاهب الى ربي سيهدين ﴾. (٣)

---

(١) سورة الانبياء آيات : ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٦٠، ٦١، ٦٢، ٦٣، ٦٤، ٦٥، ٦٦، ٦٧، ٦٨، ٦٩، ٧٠.

(٢) أى يسرعون من زف الرجل اذا اسرع ،انظر المصباح ص ٣٠١ ، وانظر تفسير الألوسي م ٨ ج٣ ص ١٢٣ .

(٣) سورة الصافات آيات : ٨٨، ٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٤، ٩٥، ٩٦، ٩٧، ٩٨، ٩٩.

٣ - وفي حال عبادتهم لملوكهم يتجه ابراهيم لمن يعبدونه بالمحاجة ،وذلك أن قوم ابراهيم يظهر منهم أنهم كانوا يضيفون الى عبادة الأصنام والكواكب عبادة حكامهم كالنمروذ حينما اتجه اليه ابراهيم ليحاجه بأن الله هو الذى يحيى ويميت فيغالط النمروذ قومه بقتل شخص والعفو عن شخص بعد أن كان محكوما عليه بالقتل ،وهي مهزلة واضحة البطلان ومع ذلك يستدرجه ابراهيم عليه الصلاة والسلام ليبطل دعاويه فينتقل معه الى قضية أخرى هي أن الله يأتي بالشمس من المشرق فليأت النمروذ بها من المغرب ،فأخرس الكافر عاجزا منقطعا عن الجواب وانكشف أمره أمام الذين يطيعونه ويعبدونه كما قال عز وجل ﴿ ألم تر الى الذى حاج ابراهيم في ربه أن آتاه الملك إذ قال ابراهيم ربي الذى يحيى ويميت قال أنا أحيي وأميت ،قال إبراهيم فان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين ﴾.(١)

موطن ابتلاء قوم ابراهيم :

١ - يظهر ذلك في أنهم كلما صدمهم ابراهيم في محاجتهم بالحق كلما سلكوا طريق الصمت يتربصون افحام ابراهيم عليه الصلاة والسلام ،ولذلك كلما انتهت محاورة بين ابراهيم وقومه يكون آخر الحجة لابراهيم ،ولم ينقل القرآن الكريم مراجعة لابراهيم من قومه حينما يفحمهم

---

(١) سورة البقرة آية ٢٥٨.

وهم كذلك في جميع محاورتهم مع ابراهيم ففي محاجته لهم بغية إقلاعهم عن عبادة الكواكب كان آخر القول من ابراهيم لهم كما ذكر القرآن * وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون *[1] وفي محاجته لهم كي يقلعوا عن عبادة الأصنام * قال بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين *[2] فهنا تنتهي محاجتهم ولم يردوا بشيء وكذلك عندها بهت النمرود فخسيء ولم يزد شيئا.

ومعنى هذا أنهم كانوا يعترفون بالحق الذى يوضحه ابراهيم لهم لكنهم لا يعملون بما تأكدوا من صحته اتباعا لأشرافهم الذين يخشون زوال سلطانهم وتحكمهم فيما يلبون به شهواتهم ،وهم كذلك حتى رأى كبراء القوم أن ابراهيم سيقضي على آلهتهم التي كانوا يضللون بها عامة القوم اذ القضاء على هذه الالهة بتكسيرها سيوقظ القوم من غفلتهم أو على الأقل بعضهم كالضعاف منهم ولذلك لما قال لهم : * قال أتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون *[3] قرروا احراقه حتى لا يضيع منهم السلطان والشأن * فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أوحرقوه فأنجاه الله من النار إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون *.[4]

---

(١) سورة الأنعام آية ٨١ ، ٨٢.

(٢) سورة الأنبياء آية ٥٦.

(٣) سورة الأنبياء آية ٦٦ ، ٦٧.

(٤) سورة العنكبوت آية ٢٤.

٢ - يظهر ذلك أيضا بانجاء الله ابراهيم من النار فرأوه حيا لم يمسسه شيء بعد أن ألقوه في نار عظيمة تحرق الالاف من بني آدم ورغم ذلك لم يهتدوا بهذه الخارقة ويئس منهم ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، لأنهم أغلقوا قلوبهم عن قبول الهداية وهذا دليل على أن خاتمتهم سيئة بالمقام في النار يوم لا ناصر لهم ،يخبرهم ابراهيم بهذه الخاتمة في قوله تعالى * وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين *.(١) ويتركهم ابراهيم على هذه الحال ويذهب مهاجرا الى ربه ومن معه متبرئين منهم ومما يعبدون من أصنام معلنين العداوة والبغضاء الى أن يؤمنوا بالله الواحد الأحد كما قال عز وجل * قد كانت لكم أسوة حسنة في ابراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم انا برءآؤا منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده *.(٢)

وحينما هاجرهم ابراهيم رافقه ابن أخيه لوط على نبينا وعليهما أفضل الصلاة والتسليم وهو الذى سبق أن أيده في دعوته ،،ثم أرسل لوط لأهل سدوم في مكان في الشام حيث ابتدعوا فعلة شنعاء بلغت الغاية في الشناعة والانتكاس إذ الفطر السليمة لا يمكن أن تنزل نفسها تلك المنزلة التي يأباها الحيوان الأعجم فاخترعوا ما لم يسبقوا إليه

---

(١) سورة العنكبوت آية ٢٥ .

(٢) سورة الممتحنة آية ٤ .

من فعل بلغ أسفل سافلين في الشناعة ألا وهو اتيان الذكور ويظهر لمن تأمل السياق الكريم في شأن قصة قوم لوط أن لوطا أول ما توجه به لدعوة قومه هو الأمر بالاقلاع عن الفعلة الشنيعة فلم يدعهم كسابقيه من الأنبياء الى التوحيد ، وما ذلك الا لأنهم بلغوا أسفل الدركات في تشبثهم بفعلتهم تلك حتى أصبحت ديدنا لهم وطبيعة في سلوكهم وبالتالي استحكمت في قلوبهم يقول أبو حيان (١) في تفسيره عند بيان سبب عدم دعوة نوح لقومه بالتوحيد كسابقيه من الأنبياء ما معناه أن لوطا لم يدع قومه إلى التوحيد كما دعا إبراهيم وشعيب قومهما ، لأنه كان من قوم ابراهيم ودعوته بلغت قوم لوط فاختص لوط بدعوتهم للاقلاع عن الفاحشة غير أن هذا التعليل يحتاج إلى دليل يثبت بأن دعوة ابراهيم وصلتهم وأنه كان مرسلا إليهم وعلى أى حال فالقرآن الكريم يخبرنا عنهم بأنهم كانوا يقطعون الطرق ويتعرضون لابن السبيل فيعتدون على كرامتهم وأعراضهم وأسرفوا في ذلك حتى تعدوا الحدود فكانوا يفعلون تلك الفاحشة على مرأى من بعضهم البعض فلا يتحاشون من اظهار تلك الفعلة الشنعاء ،ولما بلغوا درجة الاسراف في ارتكابهم تلك الجريمة القذرة أرسل الله لهم لوطا عليه الصلاة والسلام فيبين لهم شناعة اتيان الذكور وترك النساء اللاتي خلقن لتلبية تلك الرغبة الانسانية فما كان من قوم لوط إلا أن أعلنوا العداوة لمن يتطهر من تلك الفعلة ويجمعون على اخراج لوط عليه السلام ومن

---

(١) البحر المحيط جـ٧/١٤٨ الطبعة الثانية .

معه من بينهم ،لأنهم يتطهرون مما تنجس به القوم ذلك ما نجده في قول الله عز وجل ﴿ ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون وما كان جواب قومه الا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون ﴾(١) ، وفي قوله عز من قائل ﴿ كذبت قوم لوط المرسلين إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى الا على رب العالمين ، أتأتون الذكران من العالمين وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم عادون ﴾(٢) وفي قوله تعالى ﴿ ولوطا إذ قال لقومه انكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر ﴾(٣).

ولما أصر القوم على ارتكاب تلك الفعلة بالانغماس في قذارتها حقت عليهم كلمة الله وجاءهم العذاب فأرسل الله اليهم ملائكة في صورة آدميين فاستضافهم لوط فأدخلهم بيته ، وما إن علم القوم بوجودهم حتى جاءوا مسرعين يطالبون لوطا بإخراجهم لهم ليفعلوا بهم ماأرادوا فراودهم لوط عليه الصلاة والسلام واستلطفهم وطلب منهم أن لا يفضحوه في ضيفه ،ودعاهم الى اتقاء عذاب الله عز وجل وندبهم الى الزواج من البنات إن كانوا فاعلين ،فلم تنفع معهم موعظة ولم يسترشد منهم أحد بل ظلوا سادرين في غوايتهم ،وحينئذ تحسر لوط عليه الصلاة والسلام

---

(١) سورة الاعراف آية ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢.
(٢) سورة الشعراء آية ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦.
(٣) سورة العنكبوت آية ٢٨ ، ٢٩.

على ضيوفه مما سيلاقونه من القوم بحيث عجز عن حمايتهم من بطش القوم وما كان منه إلا أن توجه إلى الله طالبا منه النصر على الذين كانوا يعملون الخبائث وساعتها أخبره الضيوف بأنهم ملائكة رسل من الله عز وجل وأمروه بالخروج ليلا مصاحبا أهله إلا امرأته التي كانت تشايعهم على تلك الفعلة القبيحة . وما إن انفلق الصبح عن ضيائه حتى أخذتهم الصيحة وقلب الله بهم قريتهم وأمطر عليهم الحجارة فأهلكوا جميعا بعد أن حذرهم لوط من عذاب الله ، ذلك ما أخبرنا به في قوله ﴿ وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون فأنجيناه وأهله الا امرأته كانت من الغابرين وأمطرنا عليهم مطرا فانظر كيف كان عاقبة المجرمين ﴾ (١) . وفي قوله تعالى ﴿ ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب وجاءه قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي أليس منكم رجل رشيد ، قالوا لقد علمت مالنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد ، قال لو أن لي بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد ، قالوا : يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك ، إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد ﴾ (٢) . وفي قوله تعالى

---

(١) سورة الاعراف آية ٨٢، ٨٣، ٨٤.

(٢) سورة هود آية ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩، ٨٠، ٨١، ٨٢، ٨٣.

* قالوا لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين ، قال إني لعملكم من القالين ،رب نجني وأهلي مما يعملون فنجيناه وأهله أجمعين الا عجوزا في الغابرين ،ثم دمرنا الاخرين وأمطرنا اليهم مطرا فساء مطر المنذرين إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم *.(١)

موطن الابتلاء في قصة قوم لوط :

يتجلى ذلك في أن أولئك القوم كانوا سادرين في تلبية شهواتهم القذرة فلم ينظروا الى الطريقة السليمة التي أباحها الله والتي توافق كرامة الانسان ومروءته بل أسرفوا في الانحراف حتى بلغوا درجة الذين خمرت عقولهم فأصبحوا يرتكبون تلك الجريمة البشعة وهم فاقدوا التفكير عما وصفهم القرآن الكريم * لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون *(٢) فأصبحوا لا يميزون بين الخطأ والصواب وعندها لا يرجى منهم التيقظ والرجوع الى الفطرة السليمة . إذ لا هم لهم الا اشباع غريزتهم بنزواتهم الخبيثة.

والذى ينظر الى قضاء شهواته فقط ولا ينظر الى الطريق المباح في ذلك لا شك أنه يجر على نفسه غوائل الاسراف والدمار ومن هنا تصبح الشهوات مليئة بالأضرار والشرور ،فجريمة اتيان الذكور لها عواقب خطيرة في افساد المجتمع الانساني كالاخراج بالذكران من الرجولة الى

---

(١) سورة الشعراء آية ١٦٧، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٥.

(٢) سورة الحجر آية ٧٢.

الخنوثة وفقدان الشهامة والاباء والغيرة وذلك ينتج عنه تعطيل النسل والتجاء النساء الى الزنا والسحاق وبالتالي تفشى الأمراض المدمرة للمجتمع كله ،وما أخبار الأمم التي انحدرت ضد الكرامة الانسانية وأباحوا هذه الفعلة الشنيعة في مجتمعاتهم عنا ببعيدة حيث أصيبوا بأمراض مااستطاعوا اختراع دواء لها وهم الذين بلغوا شأوا بعيدا في الاختراعات الطيبة وغيرها ومن هنا حرم الاسلام تلك الفاحشة . وفرض على مرتكبيها أشد العقوبات فقد وردت عقوبة القتل لمن ثبت عليه ارتكاب تلك الفعلة القذرة كما هو في بعض المذاهب الفقهية .(١)

ويأتي بعد قوم لوط في سلسلة الأمم المدعوة ،قوم شعيب عليه الصلاة والسلام كما يذكر القرآن الكريم في سياقه قوم شعيب تالين لقوم لوط ومن هنا نتبع - في هذه الرسالة - قوم شعيب لهم كما قال شعيب لقومه ﴿ وما قوم لوط منكم ببعيد ﴾(٢) وذلك أن الله أرسل نبيه شعيبا عليه الصلاة والسلام لمدين حيث عبدوا غير الله من الايكة(٣) وأفسدوا في الأرض بما نقصوا في المكيال والميزان وبما أكلوا من أموال الناس بالباطل فسلكوا سبل أنواع البخس لأموال الناس فدعاهم شعيب الى اجتناب عبادة غير الله ،وأمرهم بالقسطاس المستقيم في معاملتهم من حيث البيع والشراء كما أمرهم بأن يوفوا المكيال والميزان إذا باعوا

---

(١) انظر المغني لموفق الدين عبدالله المعروف بابن قدامة جـ١٠/١٦٠ نشر دار الكتاب بيروت .

(٢) سورة هود آية ٨٩.

(٣) شجرة يعبدونها وقيل شجر ملتف . انظر تفسير ابن كثير جـ٣/٣٤٥ طبع دار التراث القاهرة .

واذا اشتروا على السواء ونهاهم أن يصدوا عن سبيل الله من آمن بدعوته وذكرهم بنعم الله عليهم ككثرة نسلهم بعد أن كانوا قليلين كما حذرهم من أن يقعوا فيما وقع فيه المفسدون من الأمم التي سبقتهم كما قال عز وجل ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين ﴾.(١)

وما كان من قوم شعيب إلا أن هددوه بالطرد والاخراج من قريتهم إن لم يسلك سبيلهم في العبادة بحيث يدخل في ملتهم وذلك كله بأسلوب فيه السخرية والاستهزاء والتطاول عليه باتهامه بالسفه مرة وبالسحر أخرى وبانكار رسالته بدعوى أنه بشر، مريدين بكل ذلك الانفلات في التعامل المالي بحيث يفعلون في أموالهم حسب أهوائهم كما جاء في قوله عز وجل ﴿ قال الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا ﴾(٢) . وفي قوله عز من قائل ﴿ قالوا : ياشعيب أصلواتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد ﴾(٣) وفي قوله تعالى ﴿ قالوا إنما أنت من المسحرين وما أنت الا بشر مثلنا وان نظنك لمن الكاذبين ﴾(٤) وهم على هذه الحال من الصلف والعناد

---

(١) سورة الاعراف آية ٨٥، ٨٦.
(٢) سورة الاعراف آية ٨٨.
(٣) سورة هود آية ٨٧.
(٤) سورة الشعراء آية ١٨٥، ١٨٦.

يقابلهم شعيب بالوداعة والحجة الواضحة فينبههم إلى أنه لا ينبغي لمن آمن وخالط الايمان قلبه أن يرجع عما آمن به إلا مكرها والا كان كاذبا في ابتداء ايمانه مفترى في قوله ، ولأن الايمان فضل من الله ونعمة ،والضلال شر ونقمة ينجى الله من يشاء من عباده من غوائله ولهذا لا يمكن للمؤمنين أن يعودوا الى ملة الكفر وعبادة الأوثان إلا أن يشاء الله كما قال عزوجل ﴿ قال أولو كنا كارهين قد افترينا على الله كذبا إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا منها وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شيء علما على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ﴾.(١)

وهكذا نرى نبي الله شعيبا يلاطفهم مرة أخرى بالأسلوب المشوق الذى يلفت الأنظار الى معاني الحق التي ينبغي اتباعها والوقوف منها على بصيرة وبينة وذلك أنه يجب عليهم أن ينظروا فيما اذا لو كان شعيب على هدى من الله وعلى حق فيما يدعوهم إليه لا سيما أنه لا يطلب منهم أجرا على نصيحته لهم وتبليغ الحق إليهم بل لا يريد أن يفعل ما ينهاهم عنه وإنما قصده من دعوتهم للاقلاع عن المفسدات من الأفعال الاصلاح . ويمضي شعيب عليه الصلاة والسلام في مخاطبتهم بالحسنى والرفق بهم علهم يلقون عصا الكبر والشقاق فيسلكون سبيل الحق والوفاق ولذلك حذرهم أن تكون عداوتهم له ومشاقتهم إياه سببا في الاعراض عن شرع الله والعمل بأوامره فيحق عليهم ما حق على من سبقهم من الأمم كقوم نوح وهود وغيرهم ثم دعاهم الى التوبة والاستغفار

---

(١) سورة الاعراف آية ٨٨ ، ٨٩ .

لأنّ الله عز وجل رحيم ودود وذلك ما جاء في قوله عز وجل * قال ياقوم أرءيتم إن كنت على بينة من ربي ورزقني منه رزقا حسنا وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الاصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ،ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أوقوم هوأوقوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم ودود * (١) وما يزيد القوم تلطف شعيب معهم وتودده إليهم إلا استعلاء وتكبرا وتحديا فمرة يحذرون الناس من اتباعه فيعدون من اتبعه بالخسران ،ومرة يستهزءون به منكرين فَهْمهم لما يدعوهم إليه ومرة يهددونه بالضر والايذاء لولا عشيرته ومرة يتحدونه بالاتيان بالعذاب لهم كما جاء في قوله عز وجل * وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبا إنكم اذا لخاسرون * (٢) وفي قوله تعالى * قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وما أنت بعزيز * (٣) وقوله تعالى * فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين * (٤) . وهنا يئس شعيب من إيمان القوم والتجأ إلى الله القوى العزيز الذى لم يخش منه القوم بل لم يرعووا ولم يروا أى قوة غير قوة العشيرة والقبيلة . فيتركهم متوكلا على الله القوى الجبار متوعدا اياهم بحلول العذاب منتظرا حكم الله فيهم وذلك ما أخبرنا الله به في قوله * وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين * (٥)

---

(١) سورة هود آية ٨٨، ٨٩، ٩٠.
(٢) سورة الاعراف آية ٩٠.
(٣) سورة هود آية ٩١.
(٤) سورة الشعراء آية ١٨٧.
(٥) سورة الأعراف آية ٨٧.

وفي قوله تعالى ﴿ قال يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا إن ربي بما تعملون محيط ويا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا إني معكم رقيب ﴾.(١)

وهكذا يتركهم شعيبا لتحل بهم العذاب غير متأسف عنهم ولا حزين مما أصابهم بعد أن بالغ في تبيين الحق لهم وعندها تأتي القوم رجفة أسكنت حركاتهم وظلة أحرقتهم وصيحة أنسفتهم فأبيدوا عن آخرهم وتلك عاقبة المكذبين الذين استكبروا واتبعوا شهواتهم كما أخبر عنهم عز وجل في قوله ﴿ فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا(٢) فيها الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم ،فكيف آسى على قوم كافرين ﴾(٣)

وفي قوله سبحانه ﴿ ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود ﴾(٤).

---

(١) سورة هود آية ٩٢ ،٩٣.

(٢) معناه كأنهم ما أقاموا في تلك البلدة مستغنين يقال : غنى بالمكان طال مقامه فيه مستغنيا به عن غيره انظر المفردات ص ٣٦٦ مادة غنى وتفسير ابن كثير جـ٢/٢٣٢ طبعة مكتبة دار التراث القاهرة .

(٣) سورة الاعراف آية ٩١ ،٩٢ ،٩٣.

(٤) سورة هود آية ٩٤ ،٩٥.

وفي قوله جلت قدرته وعز سلطانه ﴿ فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾.(١)

فأهلكهم الله بأنواع من العذاب كل نوع منها يوافق ما كانوا يقابلون به نبي الله شعيبا من التعنت والتحدى والاستهزاء يقول الحافظ ابن كثير (٢) في هذا الصدد . وقد ذكر الله تعالى صفة اهلاكهم في ثلاثة مواطن كل موطن بصفة تناسب ذلك السياق ،ففي الأعراف ذكر أنهم أخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين وذلك لأنهم قالوا (٣) ﴿ لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا ﴾ فأرجفوا نبي الله ومن اتبعه فأخذتهم الرجفة ، وفي سورة هود قال : ﴿ وأخذت الذين ظلموا الصيحة ﴾ (٤) وذلك لأنهم استهزءوا بنبي الله في قولهم : ﴿ أصلوتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد ﴾ (٥) قالوا : ذلك على سبيل التهكم والازدراء فناسب أن تأتيهم صيحة تسكتهم فقال ﴿ فأخذتهم الصيحة ﴾ وفي الشعراء قالوا : ﴿ فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين ﴾ (٦) على وجه التعنت والعناد فناسب أن يحق عليهم

---

(١) سورة الشعراء آية ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ج٣ / ٣٤٦ طبع مكتبة دار التراث القاهرة .

(٣) سورة الاعراف آية ٨٨ .

(٤) سورة هود اية ٩٤ .

(٥) سورة هود آية ٨٧ .

(٦) سورة الشعراء آية ١٨٧ .

ما استبعدوا وقوعه ﴿ فأخذهم عذاب يوم الظلة انه كان عذاب يوم عظيم ﴾ (١)

يؤيد هذا أيضا ما لاحظه أبو السعود في تفسيره حيث قال : " وفي اضافة العذاب الى يوم الظلة دون نفسها ايذان بأن لهم يومئذ عذابا آخر غير عذاب الظلة " (٢)

ومن هنا نعلم أنه ليس في تنوع العذاب على قوم شعيب دليل على أنهم كانوا أُمتين أرسل إليهما شعيب كما ذهب إليه البعض من المفسرين ورده ابن كثير حيث يقول (٣) : " ومن زعم من المفسرين كقتادة وغيره أن أصحاب الأيكة أمة أخرى غير أهل مدين فقوله ضعيف وانما عمدتهم شيئان في اثبات ذلك :

١ - عدم ذكر لفظ "أخوة" شعيب كما ذكرت مع مدين بحيث قال تعالى ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبا ﴾ وقال ﴿ كذب أصحاب الأيكة المرسلين اذ قال لهم شعيب ﴾ وأجيب عن هذا بأن عدم ذكر لفظ الاخوة مع أصحاب الأيكة نظرا لورود وصفهم بعبادة الأيكة فلم يكن مناسبا التعبير بالاخوة بينهم وبين شعيب بخلاف لما ذكرت القبيلة ناسب ذكر الأخوة .

٢ - وصف عذاب أصحاب الأيكة بيوم الظلة ولم يوصف به عذاب أصحاب مدين وأجيب بأن هذا ينطبق على أن عذابهم وصف مرة بالرجفة وأخرى بالصيحة فهل تعددت الأمم بناء على تعدد وصف العذاب ؟ .

---

(١) سورة الشعراء آية ١٨٩ .

(٢) ارشاد العقل السليم جـ٤ /١٧٧ ، نشر دار الفكر .

(٣) انظر البداية جـ١/١٩٠ وانتهى منها بتصرف .

ثم قال : والحديث الذى ذكره ابن عساكر مرفوعا عن عبدالله بن عمرو (أن مدين وأصحاب الأيكة أمتان بعث الله إليهما شعيبا النبي عليه السلام) حديث غريب وفي رجاله من تكلم فيه.

وأضيف الى هذا أن ذكر الأقوام الماضية وبيان مواقفهم من أنبيائهم في سورة الشعراء من لدن نوح إلى لوط نلاحظ فيه اتباع قصة شعيب للوط وهي العادة التي يسلكها القرآن في غير سورة الشعراء من قصص الأنبياء بحيث يتبع قصة شعيب لقصة لوط ولم يذكر في سورة الشعراء لفظ مدين فاكتفى بوصفهم بالأيكة وهذا يدل على أنها أمة واحدة والله أعلم.

موطن الابتلاء في قصة قوم شعيب

المتأمل يدرك ذلك في أمرين :

١ - ان القوم اتبعوا شهواتهم في جمع المال وبأى طريق ورفضوا أن يتدخل التشريع الالهي في التعامل المالي فلم يقبلوا التنظيم الرباني في الكيل والوزن وما يتبع ذلك من أخذ وعطاء في شتى النواحي المالية فسفهوا من يدعوهم لذلك بل لنظرتهم الخاطئة فصلوا المعاملات عن العبادات ولذلك أوعدوا من يتبع التشريع الالهي في الأموال بالخسران كما سبق ان قرأنا في قوله تعالى ﴿ قالوا يا شعيب أصلوتك تأمرك أن نترك ما يعبد اباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد ﴾(١) تلك قضية يعايشها الدعاة

---

(١) سورة هود آية ٨٧.

في كل عصر يظهر فيه من يفصل بين العبادات وبين التعامل المالي وغيره مما يحتاج إليه الناس في حياتهم الدنيا . والحقيقة أن التعامل المادى عند ذوى النظر الفاحص والفكر الثاقب يصبح من باب العبادات أو الروحيات وذلك حينما تخلص النيات وتصفو الطويات في امتثال الأوامر الواردة بخصوص تنظيم التعامل المادى ومن هذا القبيل عدم تحكيم شريعة الله في المنازعات واتخاذ القوانين الوضعية منهجا للحياة والأخذ بالربا محاربة لله ولرسوله ، كما هو واضح في قوله تعالى ﴿ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فان تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيرا من الناس لفاسقون ﴾(١) ، وقوله تعالى ﴿ يايها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا ان كنتم مؤمنين فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ﴾(٢) ومثل ذلك ما جاء بخصوص الدين فيما رواه البخارى في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه ، ومن أخذها يريد اتلافها أتلفه الله ﴾.(٣)

---

(١) سورة المائدة آية ٤٩ .

(٢) سورة البقرة آية ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

(٣) أخرجه في كتاب الاستقراض انظره بشرحه فتح البارى جـ٥/٥٤ باب من أخذ أموال الناس .

٢ - ان القوم كانوا لا يأبهون أو يخشون أية قوة غير قوة القبيلة والعشيرة وهذا معناه أنهم كانوا في غاية من الضلال والفساد فلا ضمائر لهم تنهاهم عن البطش والقهر وبالتالي بلغوا درجة قصوى من الغرور بما أعطاهم الله من نعم ومنها كثرتهم في العدد فنسوا الذى خلقهم ورزقهم فلم يلتفتوا الى مظاهر قوته المنتشرة في كل موجود كما سبق ذكر ذلك في قوله تعالى ﴿ وإنا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز قال يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا إن ربي بما تعملون محيط ﴾.(١)

وبعد الحديث عن قصة شعيب وبيان موطن الابتلاء فيها نتبعها بقصة موسى مع فرعون تأسيا بالقرآن حيث نراه دائما يتبع قصة موسى لقصة شعيب على نبينا وعليهما أفضل الصلاة والتسليم وذلك أن فرعون طغا وعثا في الأرض فسادا فاستعبد بني اسرائيل وأذلهم وذبح أطفالهم وأهان نساءهم فكان مجتمعا مليئا بالظلم والقهر حتى بلغ درجة من الفساد فأصبح في حاجة إلى الاصلاح من لدن العليم الخبير بارسال الرسل وتلك سنة الله كلما أوغلت البشرية في الانحراف، وكلما عم الفساد الحياة كلها . فأرسل الله موسى إلى فرعون مؤيدا بالمعجزات الباهرة التي لا يخالج حقيقتها ريب ، فدعا موسى فرعون ومعه أخوه هارون يعينه ويؤازره في مقابلة فرعون الطاغية ،دعاه الى الايمان بالله رب العالمين وترك بني اسرائيل في حال سبيلهم ويفاجأ فرعون

---

(١) سورة هود آية ٩١ ، ٩٢.

بدعوة موسى فيسلك سبيل المراوغة ممتنا على موسى بما سبق من تربيته له في بيته وبما قد وقع بين موسى وبين القبطي الذى اعتدى على الاسرائيلي ، فيرد عليه موسى مفهما اياه ،موضحا له بأن تربيته له لا تقابل استعباد بني اسرائيل شعب بأكمله وبأن ماوقع بينه وبين القبطي كان ذلك قبل أن يختار للرسالة ، ويرجع فرعون في حديثه فيسأل موسى عن رب العالمين ، فيدله على آثار قدرته ومشاهد خلقه وجبروته فهو الذى خلق السموت والأرض وما بينهما ،وهو الذى بسط الأرض وجعل فيها رواسي وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرج به نبات كل شيء نباتا منوعا من أزواج شتى كما جاء في قوله تعالى ﴿ قال فمن ربكما يا موسى قال ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾(١) وقوله ﴿ الذى جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى كلوا وارعوا أنعامكم ،إن في ذلك لآيات لأولي النهى ﴾(٢)، فيتهمه فرعون أمام ملائه بالجنون مغالطا قومه مهددا إياه إن اتبع إلها غيره بالسجن ،وذلك ما قصه الله في قوله عز وجل ﴿ ثم بعثنا من بعدهم موسى بئايتنا الى فرعون وملائه فظلموا بها فانظر كيف كان عاقبة المفسدين وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معي بني اسرائيل ﴾(٣)

---

(١) سورة طه آية ٤٩ ، ٥٠ .

(٢) سورة طه آية ٥٣ ، ٥٤ .

(٣) سورة الأعراف آية ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ .

وفي قوله عز وجل ﴿ وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين قوم فرعون ألا يتقون قال رب إني أخاف أن يكذبون ويضيق صدرى ولا ينطلق لساني فأرسل إلى هارون ولهم علي ذنب فأخاف أن يقتلون ، قال كلا فاذهبا بئايتنا إنا معكم مستمعون فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين أن أرسل معنا بني إسرائيل قال ألم نربك فينا وليدا و لبثت فينا من عمرك سنين وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين قال فعلتها إذا وأنا من الضالين ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكما وجعلني من المرسلين ، وتلك نعمة تمنها عليّ أن عبدت بني إسرائيل ، قال فرعون وما رب العالمين قال رب السموت والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين قال لمن حوله ألا تستمعون قال ربكم ورب ءابائكم الأولين قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون ، قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون قال لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين ﴾.(١)

وبعد هذا التهديد من فرعون لموسى يدخل معه في إقامة الحجة المحسوسة والبينة الساطعة على صدقه فيعرض عليه موسى اظهار البينة الخارقة وهما البرهانان اللذان جاء بهما موسى لفرعون أحدهما العصا التي انقلبت حية ، وثانيهما يده التي يخرجها بيضاء بعد أن كانت سمراء ثم ترجع الى لونها الأصلى . وعندها يصطدم فرعون بالحقيقة المرة التي تنزع منه السلطان وتحبسه عن العدوان فينسل أمام قومه معلنا أن موسى ساحر يريد أن يخرجهم من أرضهم بسحره ويجاريه رؤساء القوم في دعواه

---

(١) سورة الشعراء آية ١٠، ١١، ١٢، ١٣، ١٤، ١٥، ١٦، ١٧، ١٨، ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩.

فيشيرون عليه بجمع المهرة من السحرة .ويضرب لهم موسى يوم عيدهم الذى يجتمعون فيه موعدا وذلك لتكون الفضيحة معلنة مرئية للكثير من قوم فرعون .

ويصل وقت الموعد وفرعون قد حشر العدد الكثير من السحرة الذين بلغوا الدرجة العليا في السحر، وقبل بدء المباراة يعظ موسى عليه الصلاة والسلام السحرة بأن لا يسلكوا طريق الافتراء والبهتان فيحق عليهم عـــذاب الاستئصال . ويمضى السحرة مغرورين فرحين بما وعدهم به فرعون من العطايا وبما سيمن به عليهم من تقريبهم الى مجالسه وجعلهم مـــن خاصته فيأتي يوم الزينة ويظهر السحرة بمهارتهم فيه فيلقون ما معهم من عصي وحبال بهروا بها أعين الناس ،وما يلبث فرعون وقومه فـــي نشوة مما رأوه من سحر عظيم قام به السحرة حتى يرسل موسى عصاه فتبطله بابتلاعها ما جاءوا به من عصي وحبال وساعتها أبلج الحق وانهار فرعون وخسر السحرة ساجدين قائلين ﴿ آمنا برب العالمين رب موسى وهارون ﴾.(١)

ويقلب فرعون القضية فيتهم السحرة بأنهم تعلموا السحر مـــن موسى وأنهم يريدون هم الاخرون أن يخرجوا فرعون وقومه من بلدتهم وهذا يصدر من فرعون بعد أن كان يريد منهم غلبة موسى وما ذاك إلا للتمويه على قومه واظهاره نفسه أمامهم مظهر القوى المحق في سلطانه ،ولذلك ما لبث أن هدد السحرة بالتصليب والتقطيع من الأطراف ،لكن السحـــرة عرفوا الحق وخالج الايمان قلوبهم ومن هنا أعلموا فرعون بأنهم لا يعبأون بما سيفعل بهم من أضرار في الدنيا ،لأنهم آمنوا بربهم الذى سيرجعون

---

(١) سورة الأعراف آية ١٢١ ، ١٢٢ .

إليه طالبين منه المغفرة حيث كانوا أول من ءامن بموسى كما أخبرنا العليم القدير عز وجل في قوله ﴿ وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين حقيق على أن لا أقول على الله الا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معي بني اسرائيل قال : إن كنت جئت بئاية فأت بها إن كنت من الصادقين فألقى عصاه فاذا هي ثعبان مبين ونزع يده فاذا هي بيضاء للناظرين قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون قالوا أرجه وأخاه وأرسل في المدائن حاشرين يأتوك بكل ساحر عليم ،وجاء السحرة فرعون قالوا إن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين ، قال نعم وانكم لمن المقربين ،قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين قال : ألقوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءو بسحر عظيم وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون ،فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين وألقي السحرة ساجدين قالوا ءامنا برب العالمين رب موسى وهارون ،قال فرعون ءامنتم به قبل أن ءاذن لكم إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين قالوا إنا الى ربنا منقلبون ،وما تنقم منا إلا أن ءامنا بئاية ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين ﴾ (١) وهكذا يثير فرعون شبهات ويلقيها إلى آذان عوام القبط وذلك لما عاينوا ارتفاع أعلام المعجزة ومشاهدتهم لخضوع أعناق السحرة لها فلم يتمالكوا حتى آمنوا بها ،فليغالط الاقباط

---

(١) سورة الأعراف آية ١٠٤، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩، ١١٠، ١١١، ١١٢، ١١٣، ١١٤، ١١٥، ١١٦، ١١٧، ١١٨، ١١٩، ١٢٠، ١٢١، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦.

ادعى أن ايمان السحرة مبني على المواضعة بينهم وبين موسى وأن هدفهم من ذلك اخراج القوم من المدينة وابطال ملكهم . وقال هذا لما في مفارقة الأوطان المألوفة والنعم المعروفة من مشقة على النفوس . وساعتها يثبت القبط على ماهم عليه ويزداد هيجان عداوتهم لموسى عليه السلام ويتضح هذا أيضا في قوله تعالى ﴿ قالوا أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم (١) بعذاب وقد خاب من افترى فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى ، قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفا وقد أفلح اليوم من استعلى قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى قال بل ألقوا فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى فأوجس في نفسه خيفة موسى قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى فألقى السحرة سجدا قالوا آمنا برب هارون وموسى ، قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذى علمكم السحر فلأقطعن أيديكم وأرجلكم

---

(١) أى يستأصلكم بعذاب من السحت وهو الاهلاك والاستئصال ، ذكره الفراء في معانيه جـ٢/١٨٢ وأنشد قول الفرزدق :

وعض زمان يابن مروان لم يدع من المال الا مسحتا ومجلف

وانظر اللسان جـ٣/١٩٤٩ نشر دار المعارف القاهرة .

والمجلف ، معناه : الشيء الذى أخذ من جوانبه ، قاله ابن منظور في اللسان جـ١/٦٦٠ .

من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل ولتعلمن آينا أشد عذابا وأبقى
قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض
إنما تقضى هذه الحياة الدنا إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وماأكرهتنا
عليه من السحر والله خير وأبقى * (١) وبعد أن وضح الحق وتبين الطريق
القويم وفشل فرعون في اثبات مزاعمه وتمويهاته لجأ الى التهديد بقتل
موسى بدعوى الخوف من أن يبدل دين القوم وأن ينشر الفساد في الأرض
وهي دعاوى يتخذها أعداء الحق ترسا يخفون به أباطيلهم ويؤلبون
به الجماهير من حولهم على الناس الصالحين المصلحين وذلك حينما يرون
شهواتهم التي يتمتعون بها آيلة للسقوط تحت أقدام رسل الحق وهي
دعاوى ما تلبث قليلا حتى تنكشف أمام الأمة ولذلك نرى فرعون لما لجأ
الى سبل القضاء على صاحب الدعوة يخرج له من آله من يفحمه بالحجة
ويجعله أمام الجمهور في موضع لا يستطيع بعده التمويه على أحد من قومه
فيقف لفرعون رجل آمن على ضوء البينات التي جاء بها موسى فينكر
على فرعون قتل رجل لا ذنب له إلا الدعوة إلى الاصلاح والاعتراف
بالربوبية لمن يستحقها مدعما دعوته بالدلائل الشاهدة على صدقه ،
وعلى فرض عدم صدقه فالنتيجة راجعة عليه فكيف وهو صادق بما أظهره
من معجزات باهرة ،فان كذبتموه تكون العاقبة خسرانكم كما وعدكم ولا ناصر
لكم إذا حل بكم العذاب ،وينازع فرعون الرجل المؤمن فيتدخل أثناء
خطابه لقومه، مما يدل على شدة خوف فرعون من انفلات زمام أمر القوم

---

(١) سورة طه آية ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٦٠، ٦١، ٦٢، ٦٣، ٦٤، ٦٥،
٦٦، ٦٧، ٦٨، ٦٩، ٧٠، ٧١، ٧٢، ٧٣.

من يديه فيؤمنون بالنور والهدى الذى جاء به موسى ولذلك يقطع فرعون الطريق عليه ويقول لهم . ماذكر القرآن عنه بقوله ﴿ ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾ (١) ولكن الرجل المؤمن يمضي في نصيحته لقومه مذكرا اياهم بما أصاب الأمم التي سبقتهم من عذاب أحاط بهم في الدنيا وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون بتكذيب الرسل كما حذرهم من عذاب الآخرة : ذلك ما نتلوه في قوله عز من قائل ﴿ وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم وأن يظهر في الأرض الفساد وقال موسى إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذبا فعليه كذبه وإن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ،وقال الذى آمن ياقوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلما للعباد ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد يوم تولون مدبرين مالكم من الله من عاصم ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾ (٢) ويصر فرعون - بعد هذا البيان الآخذ من أعماق القلوب - على التمويه والتضليل بعد أن تأكد من صدق رسالة موسى

---

(١) سورة غافر آية ٢٩ .

(٢) سورة غافر آية ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ .

فيدعو وزيره هامان لتشييد الصرح ليطلع إلى إله موسى إن كان هناك اله والا فهو لا يصدق موسى وان كان متأكدا من حقيقة ما جاء به. وهو بذلك يرتكب حماقة تدل على هلعه وجزعه على فقدان جبروته وعظمته على العباد وشدة حبه للملك الذى خشي أن يفلت من يديه وحينئذ يتركه الجمهور ويصبح مساويا لهم في العبودية بعد أن كان يدعى الالوهية كما أخبر سبحانه ﴿ وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ الأسباب أسباب السموت فأطلع إلى إله موسى واني لأظنه كاذبا وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون الا في تباب ﴾(١). وبعد هذا التمويه يصير الرجل المؤمن على مواصلة النصح لقومه مبينا لهم أن دعوة موسى هي الطريق الرشيد فمن اتبعه نجا يوم القيامة واستقر في دار الخلد والنعيم المقيم. ومن اتبع هواه وأشرك مع الله غيره كان من الأشقياء المسرفين كما قال عز وجل ﴿ وقال الذى آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الاخرة هي دار القرار من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب ﴾(٢).

ولما يئس مؤمن آل فرعون من ايمان قومه نبههم إلى أنهم سيندمون على عدم اتباع موسى وتركهم حزينا على عدم ايمانهم مفوضا الأمر إلى الله عز وجل كما قال سبحانه ﴿ ويا قوم ما لي أدعوكم الى النجاة

---

(١) سورة غافر آية ٣٦، ٣٧.
(٢) سورة غافر آية ٣٨، ٣٩، ٤٠.

وتدعونني إلى النار تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم وأنا أدعوكم الى العزيز الغفار لا جرم[1] أنما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الاخرة وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى الله ، إن الله بصير بالعباد *[2]

ويترك الرجل المؤمن فرعون وقومه ،ويمضي فرعون في سبيل الضلال والتضليل سالكا طريق التمويه على العامة بما من الله به عليهم من نعم كالزروع والأنهار الجارية وبما يتمتع هو فيه من سلطة على القوم أقامها على التضليل والاستغلال كما قال عز وجل * ونادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتي أفلا تبصرون أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين فلولا ألقي عليه أساورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين فاستخف[3] قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين *[4] وهكذا يضلل فرعون قومه فيتبعونه بعد أن وضح الحق وثبت صدق موسى . ومع ذلك رحمة بهم ابتلاهم الله بالمصائب علهم يرجعون الى الحق ويتركون البغي والظلم. فتتابعت عليهم الشدائد والأهوال فكلما انفرجت عنهم واحدة أخذتهم أخرى بنكثهم للعهود التي يلتزمون بها عند اشتداد البلاء عليهم

---

(١) كلمة تأتي بمعنى تحقيق الشيء فمعناها وجب وحق كما في قول القائل:
ولقد طعنت أبا عبيدة طعنة جرمت فزارة بعدها أن يغضبوا
انظر حاشية الشهاب جـ٧/ ٣٧٤ نشر دار صادر ،وروح المعاني للألوسي م ٨ / جـ ٢٤/ ٧٠ نشر دار الفكر .

(٢) سورة غافر آية ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤.

(٣) أى استفزهم . انظر كتاب معاني القرآن للفراء جـ٣/ ٣٥ ، ط/ الثالثة ١٤٠٣هـ .

(٤) سورة الزخرف آية ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤.

كما قال عزوجل ﴿ فلما جاءهم بئايتنا إذا هم منها يضحكون وما نريهم من ءاية إلا أكبر من أختها وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون وقالوا يا أيه الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون ﴾[1] وهكذا أخذهم الله بالسنين فحل بهم الجدب والنقص كي يذكروا ويرجعوا الى الحق لكن القوم تمردوا واستمروا في عنادهم ونصبوا العداوة لموسى ومن معه حتى تشاءموا بهم فنسبوا مجيء الخيرات لأنفسهم والجائحات لموسى إن حلت بهم وما دروا انهم هم السبب فيما يصيبهم باعراضهم عن الحق فيستحقون الجزاء على كفرانهم بنعم الله الذى خلقهم ،ولما لم يؤمنوا بالآيات التي جاء بها موسى أرسل الله عليهم الطوفان فأتلف زروعهم وثمارهم وعندما اتجهوا لموسى طالبين منه أن يدعو ربه ليكشف ما حل بهم من طوفان ووعدوا بأنهم سيؤمنون ويتركون بني اسرائيل في حريتهم ويكشف الله عنهم الطوفان لكنهم نكثوا العهد أيضا ويسلط الله عليهم الجراد فأكل الأخضر واليابس ويتجهون لموسى بمثل ما قالوا في الأولى ويكشف الله عنهم وينكثون ويسلط الله عليهم القمل منعهم الاستقرار في الأكل والملبس ويتجهون لموسى بمثل ما سبق ويكشف الله عنهم وينكثون ويسلط الله عليهم الضفادع حتى أجهدتهم في بيوتهم وأطعمتهم ويتجهون لموسى فيدعو الله فيكشف عنهم وينكثون ويسلط الله عليهم الدم فاستحالت مياههم دما فلم يجدوا ما يشربونه ويتجهون لموسى كما سبق[2] .

---

(١) سورة الزخرف آية ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ .

(٢) انظر البداية والنهاية لابن كثير جـ١/ ٢٦٦ الطبعة الثانية .

يقول عز وجل ﴿ ولقد أخذنا ءال فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون فاذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وان تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه آلا انما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون وقالوا مهما تأتنا به من ءاية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ءايات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين ﴾.(١)

وهكذا استكبر فرعون وقومه فحق عليهم العذاب كما قال عز وجل ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل ءاية حتى يروا العذاب الأليم ﴾.(٢)

وحينما أعيا فرعون التمويه على قومه وانكشف أمره قرر هو والملأ من قومه القضاء على موسى كما حكى القرآن الكريم ﴿ وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وءالهتك قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون ﴾.(٣)

ولما لم يرعو فرعون عن غيه وحبس دعوة الله عن الوصول الى القوم وبالتالي أراد القضاء على صاحب الدعوة حق عليه ما حق على أمثاله من الضالين ، وتلك سنة الله في القوم المجرمين ، فدعا موسى ربه بأن يهلك فرعون وقومه وأن يطمس على أموالهم وأن يطبع على قلوبهم لأنهم أصبحوا في درجة لا يرجى منهم إيمان بعدها فتأتي الخاتمة السيئة

---

(١) سورة الاعراف آية ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣.
(٢) سورة يونس آية ٩٦ ، ٩٧.
(٣) سورة الأعراف آية ١٢٧.

فيأمر الله موسى باخراج من آمن معه من بني اسرائيل فيسلك بهم البحر بعد أن ضربه بعصاه فانحبس وظهرت اليابسة واستمر موسى مع قومه في السير في البحر. ويتبعهم فرعون بجيشه الكبير ليسلك الطريق الذى سلكوه ظانا أنه مثلهم سيسلك البحر من حيث سلكوه وما درى أن ذلك خاص بأهل الايمان الذين صفت قلوبهم لخالقهم الذى يحميهم من الظلم والبغي وأن حتفه حان أوانه فما إن توسط فرعون وقومه البحر حتى أطبق عليه الموج وعلى من معه من فئة البغي فيصرخ معلنا إسلامه بعد أن أدركه الغرق وحاق به أسوأ العذاب في الدنيا وأقبح منزلة في جهنم وذلك ما أخبرنا به الله في قوله عز وجل ﴿ وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ،قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون وجاوزنا ببني اسرائيل البحر فاتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين ﴾ (١) وفي قوله عز وجل ﴿ وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى إنكم متبعون ،فأرسل فرعون في المدائن حاشرين إن هؤلاء لشرذمة قليلون وإنهم لنا لغائظون ،وإنا لجميع حذرون فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم كذلك وأورثناها بني إسرائيل فاتبعهم مشرقين فلما تراءا الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون ، قال كلا

---

(١) سورة يونس آية ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ .

إن معي ربي سيهدين فأوحينا الى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم وأزلفنا ثم الاخرين ،وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ثم أغرقنا الا خرين إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم * [(١)] وفي قوله تعالى * ولقد فتنا قبلكم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم أن أدوا [(٢)] إلي عباد الله إني لكم رسول أمين وأن لا تعلوا على الله إني آتيكم بسلطان مبين وإني عذت بربي وربكم أن ترجمون وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون فأسر بعبادى ليلا إنكم متبعون واترك البحر رهوا [(٣)] إنهم جند مغرقون * [(٤)].

موطن البلاء في قصة فرعون وقومه :

من خلال المحاورات التي حدثت بين موسى وفرعون وملائه والتي أظهرت الحق الذى جاء به موسى وكشفت عن الباطل الذى اتخذه فرعون وأشراف قومه تضليلا وتمويها للحفاظ على مآربهم الشهوانية:

---

(١) سورة الشعراء آية ٥٢ ،٥٣ ،٥٤ ،٥٥ ،٥٦ ،٥٧ ،٥٨ ،٥٩ ، ٦٠ ،٦١ و ٦٢ ،٦٣ ،٦٤ ،٦٥ ،٦٦ ،٦٧ ،٦٨ .

(٢) معناه ادفعوهم الي وأرسلوهم معي . انظر كتاب معاني القرآن للفراء جـ٣/ ٤٠ .

(٣) معناه ساكنا كما نقل عن ابن عباس وكما في قول القائل :
يمشين رهوا فلا الاعجاز خاذلة ولا الصدور على الاعجاز تتكل
معاني القرآن للفراء جـ٣/ ٤١ ط/ الثالثة ١٤٠٣ وروح المعاني للآلوسي م ٩ / جـ ٢٥/ص ١٢٢ .

(٤) سورة الدخان آية ١٧ ،١٨ ،١٩ ،٢٠ ،٢١ ،٢٢ ،٢٣ ،٢٤ .

١ - ندرك أن فرعون كان يسلك دائما سبيل التمويه على العامة مهما بلغت القرية من السخافة والاختلاق فهو بعد أن ادعى على موسى السحر فيما جاء به من معجزات أخضعت المهرة من السحرة للتسليم لله رب العالمين فئامنوا غير مكترثين بتهديد فرعون لهم ، ورغم أنه هو الذى حشدهم وجاء بهم ووافق على المباراة بعد ذلك يتهمهم بأن موسى هو الذى علمهم السحر لأنه اصطدم بالحقيقة التي لا يريدها والتي تأكد من صدقها . ورغم أنه رأى بأم عينه السحرة يوءمنون ويستغفرون ربهم مما سبق منهم من خطايا وبالتالي لم يعبأوا بتهديده وهو صاحب السلطة والقوة في ذلك المجتمع فيقولون له بثبات واطمئنان " قالوا لا ضير إنا الى ربنا منقلبون إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول الموءمنين * (١) بعد هذه الدعاوى الواضحة للايمان يظهر بغرية أخرى فيدّعي أنه سيطلع لاله موسى إن كان هناك اله . والفرية هذه بينت أن فرعون جن على استعباد العباد اذ فقد التوازن في نظره للأشياء فيدعو إلى الصعود إلى إله موسى .

٢ - يخرج لفرعون وقومه موءمن من آله الذين كانوا يتمتعون بسلطانه فبين لهم الحق فيما جاءهم به موسى وحذرهم من مغبة عدم ايمانهم برسالته ووضعهم بين مفرق الحق والباطل ان كانوا يريدون التمييز بينهما وذلك أنه قال لهم : إن كان موسى كاذبا فلا يصلكم ضرمن كذبه ان اتبعتموه ،وان كان صادقا وقد جاءكم بالبينات

---

(١) سورة الشعراء آية ٥٠ ، ٥١ .

الدالة على صدقه فلكم الويل ان لم تتبعوه . لكن فرعون وقومه أخفقوا في اتباع نصيحة أخيهم لهم فلم يؤمنوا .

٣ - يسلك فرعون في تضليل قومه الاستدلال بما يملك من متاع زهيد وسلطة جائرة في مكان محدود وهوبهذا يريد استغفال قومه من طريق الماديات التي تعلق بها الانسان ويشق عليه التخلي عنها لما يكمن فيه من دوافع شهوانية ولذلك نرى فرعون يلفت نظر قومه الى أن موسى يفقد ماعنده هومن زخارف فلا يملك ذهباولا ملكا ذا سلطة وبالتالي لا يستطيع حتى الافصاح عما يريد النطق به . وذلك قبل أن يذهب عنه ما كان به من لكنة . وبالتالي لوكان صادقا لجاء معه ملائكة يؤازرونه ويقفون لجانبه ضد من يخالفه وهوبذلك يموه على قومه فأخفقوا فيما بصرهم به موسى من آيات الحق والنجاة فحقت عليهم كلمة الله .

٤ - لما أخفق قوم فرعون في الايمان بالدلائل التي جاء بها موسى والتي هي من باب النعم اختبرهم الله بالمصائب التي حلت بهم تترا ،فكلما ضاقوا بمصيبة وقد علموا مصدرها بدليل أنهم يطلبون من موسى دعاء ربه ليكشف عنهم تلك البلية فتكشف بدعاء موسى وما يلبثون أن ينقضوا العهد الذى ألزموا به أنفسهم من الايمان بموسى وبرفع الظلم عن بني اسرائيل وهم بذلك أيضا أخفقوا في إصابتهم الحق من خلال ما تعرضوا له من شدائد وأهوال ، فلم يرعووا ولم يتبصروا حتى أخذهم الله بعذاب من عنده فأغرقهم من حيث ظنوا النجاة

﴿ فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين ﴾(١) وهذا يدل على كمال قساوة قلوبهم ونهاية جهلهم وغباوتهم وذلك أن الشدائد ترقق القلوب وتلين العرائك لا سيما بعد مشاهدة الآيات البينات .

وبعد هذه المواطن الابتلائية التي ظهرت لنا من خلال تنقلنا حول مراحل ومواقيت الرسالات التي تعاقبت على العصور الماضية بأجيالها الغابرة والتي يدرك المتأمل من استعراضها كأن البشرية كانت في حاجة الى الترقي الفكرى مما جعل الرسالات تتتابع حسب وصول الانسانية الى درجة معينة من النضوج الفكرى ،ومن هنا نجد أن الرسل السابقين لخاتمة الرسالات مفرقين بين الأمم والشعوب بحيث يرسل الرسول لأمة خاصة أو لشعب خاص ونلاحظ أن الرسول كان يرسل لبني جلدته وقومه الذين ينتسب إليهم وهكذا حتى وصلت الأمم إلى درجة عالية من التفكير تستطيع التجمع حول رسالة واحدة عامة توافق تشريعاتها كل الناس في أى مكان وفي أى حين ، فبعث الله أفضل الخلق سيدنا محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم حاملا هذه الرسالة إلى الناس كافة بادئا بقومه قريش فقد تحمل صلى الله عليه وسلم أقسى الشدائد وأصعب الملمات فلاقى من كفار قريش في سبيل الدعوة أذى كثيرا ،وذلك أنه صلى الله عليه وسلم صدع بالدعوة فبدأ بقومه حينما جاءه الأمر الكريم ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾(٢) كما جاء في الحديث عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما

---

(١) سورة الزخرف آية ٥٥، ٥٦ .

(٢) سورة الشعراء آية ٢١٤ .

قال : " لما نزلت ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ صعد النبي صلى الله عليه وسلم الصفا فجعل ينادى يا بني فهر يا بني عدى - لبطون من قريش - حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو . فجاء أبو لهب وقريش فقال أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي ؟ قالوا : نعم ما جربنا عليك إلا صدقا . قال : فاني نذير لكم بين يدى عذاب شديد ، فقال أبو لهب : تبا سائر اليوم ، ألهذا جمعتنا ؟ فنزلت ﴿ تبت يدا أبي لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب ﴾ "(١)

بدأ صلى الله عليه وسلم بدعوة أقربائه لاقامة الحجة على من سيدعوهم من بعدهم ولدفع ما قد يتوهم من محاباة لقومه ، فكانت قريش ألد الناس عداوة لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم وأشدهم بغضا حيث دأبوا على عبادة الأصنام وأوغلوا في التقرب إليها جوار بيت الله العتيق الذى كانت القبائل تحج إليه فكبر عليهم أن يدعوا عبادتها حتى قال قائلهم : ﴿ أجعل الالهة الها واحدا إن هذا لشيء عجاب ﴾(٢)

ومضى صلى الله عليه وسلم في دعوة قومه يعالج صلفهم وتعنتهم مثل الطبيب الشفوق على مرضاه فتحمل منهم شتى ألوان الأذى كذبوه فيما جاءهم به واتهموه بالسحر والجنون كما جاء في قوله عز وجل ﴿ وكذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون أتواصوا به بل هم قوم طاغون فتول عنهم فما أنت بملوم وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾(٣)

---

(١) أخرجه البخارى في صحيحه انظره بشرحه فتح البارى ، كتاب التفسير جـ٨/ ١٠٥٠

(٢) سورة ص آية ٥.

(٣) سورة الذاريات آية ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥.

وفي قوله عز وجل ﴿ وقال الكافرون هذا ساحر كذاب ﴾(١) وفي قوله عز وجل ﴿ نٓ والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون وإن لك لأجرا غير ممنون وانك لعلى خلق عظيم فستبصر ويبصرون بأيكم المفتون إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾.(٢)

وهكذا أنكرت قريش نبوته صلى الله عليه وسلم لبشريته وهذه الفرية تتابعت الأقوام على التعليل بها استكبارا وعنادا لأنهم هم بشر فلم يرضوا لأمثالهم من البشر ما أنعم الله عليهم به من تشريف واختبار للرسالة كما جاء في قوله عز وجل ﴿ وقالوا ما ل هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظلمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا ﴾.(٣)

ولما جابههم النبي صلى الله عليه وسلم بالقضية الكبرى والحجة العصماء اتضح كبرهم ووضح تعنتهم وانكشف حسدهم، تلك هي معجزة القرآن الكريم نعمة الله على البشرية ، لما جابههم القرآن بالحقيقة بدأوا يتخبطون فيما تنازعهم فيه أنفسهم من داخلها وفيما تضغط عليهم فطرتهم فيه للايمان بالحق الذى أبلج فتراهم مرة يفرون من الايمان طالبين نزول كتاب في قرطاس ،ومرة يطلبون نزول الملائكة كما حكى القرآن في هذا الصدد فقال ﴿ ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين ،وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا

---

(١) سورة ص آية ٤ .
(٢) سورة ن آية ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ .
(٣) سورة الفرقان آية ٧ ، ٨ ، ٩ .

لقضي الأمر ثم لا ينظرون ، ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزءون ﴾ [1] وكما في قوله عز من قائل ﴿ وقالوا يأيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون لوما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذا منظرين إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ [2].

فهذه الآيات الكريمات كشفت دعاويهم الواهية كما جاء أن النضر ابن الحارث وعبدالله بن أبي أمية ونوفل بن خويلد قالوا [3] لرسول الله صلى الله عليه وسلم : " لن نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله تعالى ومعه أربعة من الملائكة يشهدون أنه من عند الله وأنك رسوله فنزل ﴿ ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم ﴾ الآيات الآنفة الذكر وعلى كلا الأمرين فهم يقصدون بهما التعجيز وكما رأينا فإن القرآن فضح مقصدهم بأنهم مهما جاءتهم الدلائل والآيات البينات سلكوا مسلك الالتواء وتسلسلوا في الدعاوى الباطلة ، لأنهم أعرضوا عن الايمان من منطلق الكبر والعناد كما قال عز وجل ﴿ وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا ﴾ [4].

وهكذا هم ماضون في استكبارهم فلو نزلت إليهم الملائكة أو كلمهم الموتى أو أخبرتهم الأمم السابقة بصدق رسالتك ما آمنوا بها كما قال

---

(١) سورة الأنعام آية ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠.
(٢) سورة الحجر آية ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ .
(٣) انظر الألوسي م٣/ج٧/ص ٩٥ .
(٤) سورة الفرقان آية ٢١ .

عز وجل ﴿ ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون ﴾.(١)

ويمضي صناديد قريش في الالتواء والتعجيز والعناد فها هم تراهم مرة يصمون القرآن بالسحر ومرة يطلبون تبديله بقرآن غيره ومرة يطلبون تفجير المياه من العيون ومرة يطلبون اسقاط السماء عليهم ومرة يطلبون معاينة الله والملائكة ، يسلكون هذه الأباطيل وهم يعترفون بطهارة الرسول صلى الله عليه وسلم وأمانته حتى إنهم كانوا يسمونه بالأمين قبل بعثته كما اعترف بذلك أبو سفيان وهو رئيس القوم حين سأله هرقل ملك الروم ، كيف نسبه فيكم ؟ قال هو فينا ذو نسب ، قال : كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ماقال ؟ قال : لا . وقضية وضع الحجر شاهدة على اتفاقهم في نزاهة النبي صلى الله عليه وسلم من أي شبهة وذلك لما اختلفت قريش وتحزبت طوائف : كل يريد وضع الحجر فانتهى بهم الأمر الى تحكيم أول داخل عليهم فاذا النبي صلى الله عليه وسلم داخل فقالوا : هذا محمد ، هذا الأمين قد رضينا به.(٢) هذا قبل نبوته فكيف بالقوم ينكرون صدقه فيما جاءهم به من نور ، ومع ظهور بطلان تلك الدعاوى يرد عليهم القرآن الكريم فاضحا مراوغتهم ، وذلك ما جاء في قوله عز وجل ﴿ واذا تتلى عليهم آيتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء

---

(١) سورة الأنعام آية ١١١.

(٢) انظر الشفاء للقاضي جـ٢/١٥٦، ١٥٧ بشرح نور الدين القارى.

نفسي إن اتبع إلا ما يوحى إلي إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم ،قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون * [١] وقوله تعالى * ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون * [٢] وفي قوله عز وجل * وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالله والملائكة قبيلا [٣] أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت الا بشرا رسولا ،وما منع الناس أن يؤمنوا اذ جاءهم الهدى الا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا ، قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا ، قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم إنه كان بعباده خبيرا بصيرا *. [٤]

وبعد هذا الافهام المسكت وهذه الحجج الساطعة تمضي قريش في المراوغة والتحايل والتعجيز فيطلبون آية تدل على صدقه في نبوته ، فيسخر الله القمر فينفلق فلقتين حتى رآه أهل مكة وغيرهم من البلدان البعيدة كما جاء في حديث عبدالله بن مسعود :" قال : انشق القمر ونحن مع النبي صلى الله عليه وسلم فصار فرقتين فقال لنا اشهدوا وأشهدوا"

---

(١) سورة يونس آية ١٥ ، ١٦.

(٢) سورة الحجر آية ١٤ ، ١٥.

(٣) معناه كفيلا شاهدا لك بصحة ما تقول وضامنا ما يترتب على قولك أو مقابلا بمعنى عيانا . انظر معاني القرآن للفراء جـ٢/ ١٣١ وانظر معالم التنزيل للبيضاوى بحاشية الشهاب جـ٦/ ٦٠ نشر دار صادر بيروت .

(٤) سورة الاسراء آية ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦.

وروى أيضا من حديث أنس رضي الله عنه قال : " سأل أهل مكة أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر ".(١)

ولم يؤمنوا بل أصروا بعد هذا على العناد وكرسوا الجانب الأكبر في مشاقتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم محاولين النيل من القرآن والطعن فيه ، اذ القرآن هو الذى قض مضاجعهم و زلزل مناصبهم وجعلهم حيارى ينازعون أنفسهم من داخلها حيث تيقنوا بأن القرآن حق من عند اللـــه وأنه ليس بكلام بشر ، ولذلك مرة يقولون إفك افتراه فهو أساطير الأولين تملى عليه كما قال عز وجل ﴿ وقال الذين كفروا إن هذا إلا افك افتــراه وأعانه عليه قوم ءاخرون فقد جاءوا ظلما وزورا وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا قل أنزله الذى يعلم السر في السموت والأرض إنه كان غفورا رحيما ﴾.(٢)

وهم ببهتانهم هذا ودعواهم الكاذبة ندرك أنهم أصبحـــــوا يتخبطون وينطقون بألسنتهم دون أن يفكروا بعقولهم إذ هم على علم و بينة من أن محمد صلى الله عليه وسلم لا يعرف من الكتابة شيئا ولا القراءة أيضا فقد تربى بين ظهرانيهم وعلى مرأى منهم ،وإنما ينكرون الحق الذى وافق فطرتهم ينكرونه عنادا وكبرا فتراهم مذبذبين مضطربين لا يستقر لهـــم قرار ولم تثبت لهم حجة شأن أى منكر للحق كما قال عز وجـــل :

---

(١) أخرجهما البخارى في صحيحه انظره بشرحه فتح البارى كتاب التفسير باب وانشق القمر جـ٨/٦١٧ ،وانظر الشفاء لعياض شرح القارى جـ٣/١ الى ص ١٥ مطبعة المدني القاهرة . وانظر البداية لابن كثير حيث نقل الاجماع على وقوع ذلك جـ٣/١١٨ ، ط/الأولى .

(٢) سورة الفرقان آية ٤ ،٥ ،٦ .

* وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون قل ربي يعلم القول في السماء والأرض وهو السميع العليم بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها ، أفهم يؤمنون *(١)

وتعجز قريش في التدليل على دعواها تلك لا سيما حينما تحداهم القرآن وهم الفصحاء الذين يضرب بهم المثل في البلاغة وهم الذين كثر شعراؤهم وخطباؤهم . وهم الذين دأبوا على أن يتحدى بعضهم بعضا في المساجلة(٢) والمقارضة بالقصيد(٣) والخطب ثقة منهم بقوة الطبع ولهم في ذلك مواقف ومقامات في أسواقهم ومجامعهم فتحداهم القرآن بالاتيان بمثله ومعهم الجن كما جاء في قوله عز وجل * قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا *(٤) ثم نزل معهم الى الاتيان بعشر سور مفتريات كما جاء في قوله تعالى * أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين فإلم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله الا هو فهل أنتم مسلمون *(٥)

---

(١) سورة الأنبياء آية ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ .

(٢) معناها المفاخرة والتبارى في الشعر بحيث يخرج أحد المساجلين ما يخرجه الآخر. اللسان ج٣ / ١٩٤٥ ، ط/ دار المعارف ،مصر مادة : سجل .

(٣) معناها قول الشعر ،يقال : قرضت الشعر أقرضه اذا قلته . اللسان ج٥/٣٥٩٠ - مادة قرض .

(٤) سورة الاسراء آية ٨٨ .

(٥) سورة هود آية ١٣ ، ١٤ .

ويعجزون وينزل معهم القرآن الى الاتيان بسورة واحدة مع تحديهم بما يستفزهم ليفعلوا لو كانوا قادرين كما جاء في قوله تعالى * وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صدقين فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين *(١) وفي قوله عز من قائل * أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله ،وادعوا من استطعم من دون الله إن كنتم صادقين بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين *.(٢)

وهكذا نرى القرآن تحداهم بأن يأتوا بمثل القرآن أو بما يستطيعون منه فما استطاعوا بل تحداهم بأنهم لن يستطيعوا ذلك ،وحينما ظهر عجزهم وبان عوارهم لجأوا الى الاتهامات الكاذبة والاغراء بالمباهتة والرضا بالدنيئة كقولهم * قلوبنا في أكنة * وكقولهم * لا تسمعوا لهذا القرآن * كما جاء في قوله تعالى * وقالوا : قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي ءاذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون *(٣) وفي قوله تعالى * وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرءان والغوا فيه لعلكم تغلبون *.(٤)

---

(١) سورة البقرة آية ٢٣ ، ٢٤.

(٢) سورة يونس آية ٣٨ ، ٣٩.

(٣) سورة فصلت آية ٥.

(٤) صورة فصلت آية ٢٦.

ولما سمع الوليد بن المغيرة القرآن رق قلبه فقد روى عن عكرمة عن ابن عباس قوله [١] : " إن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقرأ القرآن فكأنه رق له فبلغ ذلك أبا جهل فقال أى عم ان قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا . قال : لم ؟ قال : يعطونكه فانك أتيت محمدا تتعرض لما قبله قال : قد علمت قريش أني أكثرها مالا ، قال فقل : فيه قولا يعلم قومك أنك منكر لما قال وأنك كاره له ، قال : فما أقول فيه ؟ فوالله ما منكم من رجل أعلم بالاشعار مني ولا أعلم برجزه مني ولا بقصيده ولا بأشعار الجن والله ما يشبه الذى يقول شيئا من هذا . والله لا يرضي قومك حتى تقول فيه ، قال : فدعني حتى أفكر فيه ، فلما فكر قال : هذا سحر يأثره عن غيره فنزلت * ذرني ومن خلقت وحيدا وجعلت له مالا ممدودا وبنين شهودا ، ومهدت له تمهيدا ثم يطمع أن أزيد كلا إنه كان لآياتنا عنيدا سأرهقه صعودا إنه فكر وقدر فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر ثم نظر ثم عبس وبسر [٢] ثم أدبر واستكبر فقال إن هذا إلا سحر يؤثر إن هذا إلا قول البشر سأصليه سقر وما أدراك ما سقر لا تبقي ولا تذر لواحة للبشر عليها تسعة عشر * [٣] إذن فصحاء قريش أو العرب قاطبة

---

(١) اخرجه الحاكم في المستدرك وقال على شرط البخارى جـ٢/٥٠٧ كتاب التفسير .

(٢) معناه الاستعجال في العبوس والكلوح وهذا من قولهم بسر الفحل الناقة ضربها قبل أن تطلبه وكما في قول القائل :
وقد رابني منها صدود رأيته ... وإعراضها عن حاجتي وبسورها
انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ٤/٤٤٢ نشر دار التراث القاهرة والبيت من بحر الطويل . انظر المفردات للأصفهاني ص ٤٦ مادة بسر .

(٣) سورة المدثر آية ١١، ١٢، ١٣، ١٤، ١٥، ١٦، ١٧، ١٨، ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩.

وأشرافهم ما استطاعوا أن يماثلوا القرآن بقول ولو مفترى ولا بحكمة هادية فأعرضوا عنادا واستكبارا .

موطن الابتلاء في دعوة قريش :

ذلك أنهم جاءهم كتاب مصدق لما بين يديه معجز في معناه ومبناه فلم يستطيعوا رده بعد أن تحداهم بل لم يجدوا حيلة للوصول إلى مرماهم المبني على الحقد والعناد حيث استبد القرآن بإرادتهم في ذلك وغلب على طباعهم فيما جاءهم به من الأساليب والمعاني الجامعة للأحكام والاخبار والتي فاقت تصوراتهم في الفصاحة ، فحال بينهم وبين ما قصدوا إلى خلافه فانعقدت قلوبهم حتى فروا منه إليه إذ المكابرة والمعاندة بما استقر في القلب وانعقد في النفس لا تتعدى جوانب اللسان الذى يستطيع أن يخالف ما جزم به القلب ؛ لأن اللسان عضو يستخدمه الانسان في النطق بالحق والباطل ولذلك اتجهت قريش إلى أساليب السخرية والاستهزاء بصاحب الرسالة ووصمه بما هو برىء منه بالدليل القاطع كما رأينا ،مرة قالوا ساحر ومرة قالوا مجنون ومرة يرسلون عليه النظرات الناقمة كما قال عز وجل ﴿ وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون ﴾(١) ، ﴿ وعجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا ساحر كذاب ﴾(٢) بل كانوا يستهزئون بمن آمن به بل سلكوا طريق القسر والتعذيب للضعفاء من الذين آمنوا كما جاء في قوله تعالى ﴿ إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون وإذا مروا بهم يتغامزون ﴾(٣).

---

(١) سورة ن آية ٥١ . (٢) سورة ص آية ٤ .

(٣) سورة المطففين آية ٢٩ ، ٣٠ .

وهكذا سلكوا طريق الطغيان وحالوا بين قلوبهم وبين الحق الذى اطمأنت إليه الأفئدة فلم يستغلوا ما رزقهم الله من اختيار للرغبة في الايمان والتوجه الى الهدى .

وحكم الله في سننه الجارية على من سلك هذا الطريق هو الاضلال ، لأنهم حادوا عن الطريق الذى يصلون من خلاله الى النجاة ولأنهم جحدوا أو تعاموا عن الحقائق التي دلت عليها البراهين الواضحة والقاطعة فصرفوا أنفسهم عما ثبت لديهم من دليل مشهود وعطلوا ما استقر في داخلهم من فطرة قويمة كما قال عز وجل ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾(١) ، إذن فالذين يتكبرون عن الخشوع للحق الثابت بالدلائل المنصوبة في الآفاق والأنفس والذين لا يتوجهون الى طريق الهدى والسداد ويتخذون لأنفسهم مسلك الضلال باستمرار فلا يكادون يعدلون عنه نظرا لموافقته أهواءهم وافضائه بهم الى شهواتهم ، أولئك يعرضون أنفسهم للصرف وقلوبهم للطبع بحيث يصبحون لا يعتبرون بأى دليل ،لأنهم أصروا على الكبر والعناد يرون لأنفسهم الارتفاع عن غيرهم والمزية على من سواهم من الخلق ولذلك لم ينتفعوا بالايات القائمة على الحق فزاغوا عنه فكانت النتيجة أن سلط الله عليهم الزيغ المستمر كما قال عز وجل ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾.(٢)

---

(١) سورة الأنعام آية ١١٠ .
(٢) سورة الصف آية ٥ .

فلما عدلوا عن اتباع الحق وهم عالمون به أمال الله قلوبهم عن الهدى وحل فيها الشك والريب والخذلان . قال عز وجل * سأصرف عن ءاياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كل ءاية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بئاياتنا وكانوا عنها غافلين *.(١)

والذين يرون لأنفسهم الارتفاع في الأرض والمزية على الخلائق معرضون للطبع على قلوبهم فلا ينتفعون بآيات الله المنصوبة ولا يغتنمون مغانم آثارها الدالة على عظمة الله وشرعه ،فكما استكبروا بغير حق أذلهم الله بالجهل .

---

(١) سورة الأعراف آية ١٤٦ .

الفصل الثالث

ابتلاء الأمم المدعوة بعد الاجابة

وبعد ، فقد تجلى للقارىء في الفصل الذى يليه هذا الفصل أن أحوال الأمم وبلاءهم قبل الاجابة من حيث خروجهم عن جادة التوحيد ولوازمه هم في ذلك قد حادوا عن براءتهم الأصلية وفطرتهم الصافية التي تظهر في خضوعهم للواحد الأحد الذى يخلق ويرزق كما بدا لنا أن الله عز وجل لم يترك البشرية منذ أن انحرفت عن طريق الهدى هملا بل منّ عليها بإرسال الرسل وإنزال الكتب كي ترجع إلى سبيل الرشد فنصب الأدلة القاطعة على وجوب اعتقاد تفرده بالخلق الموجب لتفرده بالعبادة لكن مما يحزن المؤمن حقا أن قسطا كبيرا من بني آدم سلكوا سبيل الغي فتكبروا وأبوا الا التمرد على ما أنعم الله به عليهم من دلائل موصلة للنجاة فكانت مواقفهم أمام دعوة أنبيائهم محزنة ، مواقف شيبت رسول الخلق أجمعين صلى الله عليه وسلم كما جاء في حديث ابن عباس قال : قال أبو بكر : يا رسول الله قد شبت قال : شيبتني هود وأخواتها ".(١)

وبعد هذه التجلية فيما يتعلق باستعراض مراحل ابتلاء الأمم التي انحرفت بفطرتها ، وشوهت سلوكها بكفران نعمة خالقها يقتضي الأمر استعراض مواقف الأمم الشاكرة بالاستجابة لأمر ربها ووفائها لما سبق أن أخذ عليها من عهد وارد في قوله تعالى ﴿ واذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى ﴾(٢) ، ومن المؤسف أن الكثرة الكاثرة من الأمم المدعوة لم تستجب لرسل الله ، ولذلك نجد أن اتباع الأنبياء السابقين كانوا من القلة التي لم تجعل القرآن

---

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه وقال على شرط البخارى ووافقه الذهبي ج ٢/٣٤٣ .

(٢) سورة الأعراف آية ١٧٢ .

يتعرض بالبيان لمواقف وقفوها أو بلايا تعرضوا لها اللهم إلا ما كان من بني اسرائيل مع موسى أو مع عيسى . ولذلك الجانب الأكبر في ابتلاء الذين آمنوا نجده يشمل حياة أصحاب محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم ، كما نجد الثبات والصبر على الايمان هو من ديدنهم أيضا . ويتجلى ذلك في أن بني اسرائيل كانوا في عيشة ذليلة وتحت سلطان قاهر زمن فرعون فأذاقهم الطاغية شتى ألوان الذل والهوان ، فمن الله عليهم بارسال موسى عليه الصلاة والسلام لينقذهم من تسلط فرعون عليهم فسلك بهم البحر ابتغاء تخليصهم من بطشه وحينما اتبعهم فرعون وقومه أغرقهم الله ونجى موسى ومعه بنواسرائيل من عدوان فرعون عليهم إذ كان يعذبهم أشد العذاب ويستأصل أعقابهم بتقتيل أبنائهم كما أخبر سبحانه في معرض المنة على بني اسرائيل . ولفت نظر اليهود الذين عاصروا دعوة النبي محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم إذ يقول : * وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم *(١) . وقوله تعالى * وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم *(٢) ،وقوله * واذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم *(٣).

---

(١) سورة البقرة آية ٤٩ .

(٢) سورة ابراهيم آية ٦ .

(٣) سورة الأعراف آية ١٤١ .

فالآيات الكريمات تدل على أن فرعون سلط على بني اسرائيل أنواع العذاب والقتل سواء بالتذبيح أو بغيره كما يدل عليه لفظ يقتلون في الأعراف وكما يدل عليه عطف جملة يذبحون في ابراهيم وذلك أنه في البقرة وردت جملة يذبحون بدون واو وكذلك في الأعراف ، فالعطف بالواو يدل على أن فرعون كان يسوم بني اسرائيل أقسى أنواع العذاب مع ذبح أبنائهم لأن العطف يقتضي المغايرة [1] أما حذف الواو في البقرة والاعراف إنما هو بناء على بيان العذاب بجملة يذبحون و يقتلون وذلك للاتصال الكامل بين المفسر والمفسر بفتح السين [2] وذكر الواو في ابراهيم بناء على أن التذبيح والتقتيل أشد أنواع العذاب فعطف على ما قبله من باب عطف جبريل على لفظ الملائكة . كما تدل تلك الآيات على أن الله أنعم على بني اسرائيل بأن أنجاهم من تسلط فرعون ومع ذلك ما إن تجاوزوا البحر وآمنوا مما كان مسيطرا عليهم من الخوف والرعب من إدراك فرعون لهم حتى أشركوا بالله الذى أنجاهم فطلبوا من موسى أن يجعل لهم إلها يعبدونه حينما رأوا قوما يعبدون أصناما وغفلوا عن مهمة موسى الأولى وهي غرس التوحيد في نفوسهم واخراجهم من دائرة التقليد ولذلك وصفهم موسى بالجهل وبين لهم أن عبادة غير الله باطلة ومؤدية الى القضاء بالهلاك على أصحابها فكيف يطلبون ذلك

---

(١) جامع الأحكام للقرطبي جـ١/ ٣٨٥ الطبعة الثالثة .

(٢) روح المعاني للألوسي م ٥/جـ٣/ص ١٨٩ وانظر التلخيص للقزويني ص ١٧٨ نشر دار الكتاب بيروت وانظر حاشية الشهاب جـ٥/ ٢٥٢ نشر دار صادر بيروت وانظر البحر المحيط جـ٥/ ٤٠٦ الطبعة الثانية نشر دار الفكر .

بعد أن أنعم الله عليهم بالانجاء من فرعون وبتفضيلهم على كثير من العالمين في زمانهم . ويمضي بنواسرائيل مع موسى وقد كانوا في حاجة إلى نظام لحياتهم وشريعة تقودهم إلى الحسنى فاصطفى الله نبيه موسى ووعده أربعين ليلة ليأتي إلى الطور لتلقي الألواح التي فيها التوراة المتضمنة لأنواع الهداية من أصول التشريع كالعقائد والآداب وأحكام الحلال والحرام نورا للمؤمنين وحجة على المتكبرين الذين أوعدهم الله بصرفهم عن طريق النجاة وذلك لأنهم تكبروا عن الايمان بالله وكذبوا بآياته ،فاذا وضح لهم طريق الهدى والنجاة أعرضوا عنه وإذا رأوا طريق الغي اتجهوا إليه عنادا وتكبرا ولذلك استحقوا الختم على أفئدتهم واستوجبوا صرفهم عن الاهتداء بآيات الله البينات قال الله عز وجل ﴿ سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بئايتنا وكانوا عنها غافلين ﴾(١) وكقوله عز وجل ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾(٢) ولما مضى موسى إلى ربه وعد قومه بالغياب عنهم ثلاثين ليلة غير أنه لما سمع كلام ربه وخطابه له لبث أربعين ليلة بزيادة عشر(٣)

---

(١) سورة الاعراف آية ١٤٦ .

(٢) سورة الأعراف آية ١٧٩ .

(٣) وقد قيل أن موسى أفطر خوفا من أن يكلمه الله وهو صائم مما سيؤدى إلى تغيير رائحة الفم فأمر الله بزيادة العشر ليأتي بعدها وهو صائم. انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ٢/٢٤٣ . وروح المعاني للألوسي م٣ / جـ٩ /٤٣ .

كما أخبرنا سبحانه وتعالى ﴿ ووعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة ﴾ (١) وحق لموسى ذلك إذ اللقاء قد لا يتكرر وهو لقاء العبد الفقير بربه الغني . فالفوز بمناجاته والقرب من رعايته مأرب مطلوب وقصد كريم مرغوب فلا يناله إلا المقربون .

وموسى على هذه الحال وقومه قد سلكوا من بعده طريق الضلال بما تسبب لهم فيه السامرى من نصبه لعجل ودعوتهم لعبادته فعبدوه إلا القليل منهم ، صنعه لهم من ذهب مما يدل على سفههم وتعمقهم في الغفلة ، يعبدون عجلا مصنوعا لا حول له ولا قوة لا يستطيع تكليمهم ولا ارشادهم سواء أطاعوه أو عصوه فأخبر الله موسى بما وقع فيه قومه من فتنة ﴿ واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين ولما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين ﴾ (٢)

يعكفون على عبادة العجل رغم محاولة هارون الذى كان قد خلفه موسى في غيابه على القوم كما أخبر سبحانه في قوله ﴿ وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ﴾ (٣) فحاول هارون تقديم النصح لهم ببيان أن الله هو ربهم وأنه هو الذى يستحق العبادة وحده فأبوا الا الاستمرار في عبادة ذلك العجل حتى يرجع إليهم موسى ، وحينما رجع موسى بالألواح ووجدهم عاكفين على عبادة العجل

---

(١) سورة الأعراف آية ١٤٢ .
(٢) سورة الأعراف آية ١٤٨ ، ١٤٩ .
(٣) سورة الأعراف آية ١٤٢ .

أخذ يؤنب أخاه هارون على ما وقع فيه بنو اسرائيل من عبادته ظنا من موسى أنه فرط في نصح القوم وارشادهم الى الحق فبين له أنه لم يأل جهدا في النصح لهم والمحافظة على جمعهم وهو على ذلك حتى كادوا يقتلونه حينما استضعفوه ولذلك فهارون لا يستحق ما يجعل أعداءه يشمتون فيه ، وساعتها التفت موسى الى القوم يؤنبهم و يعيب عليهم الاستعجال في أثناء غيبته واستبطاءهم رجوعه فخلفوه الى عبادة العجل متعللين بأنهم عبدوه لا عن طواعية واختيار ولكن السامرى هو الذى سول لهم ذلك . وهو عذر لا تقوم به حجة فلو تمكن الايمان من قلوبهم وعرفوا الله حق معرفته ما لبس عليهم السامرى بصنعه العجل. هذا ما أخبرنا به الله في قوله * وما أعجلك عن قومك يا موسى قال هم أولاء على أثرى وعجلت إليك رب لترضى قال فانا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامرى ، فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسي أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا ، ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به ، وإن ربكم الرحمان فاتبعوني وأطيعوا أمري قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى . قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن أفعصيت أمرى قال يبنؤم لا تأخذ بلحيتي

ولا برأسي إني خشيت أن تقول فرقت بين بني اسرائيل ولم ترقب قولي ﴾.(١)

ولما ذهب عن موسى الغضب وهدأ روعه التفت إلى السامرى رأس الفتنة وداعية الضلالة يريد كشف أمره وأخذ اعترافه بما قام به من فتنة فكانت عاقبته الخسران في الدنيا والاخرة ،ففي الدنيا بعزله عن مخالطة البشر بدعوة موسى عليه فلا يمس انسانا ولا يمسه انسان ،وفي الاخرة يساق الى النار ليلقى جزاء ما اقترفت يداه وبئس المصير . وبالقضاء عليه وعلى عجله بالحرق والنسف قضى موسى على فتنة جعلت بني اسرائيل يسقط في أيديهم كما قال عز وجل ﴿ قال فما خطبك يا سامرى ؟ قال : بصرت بما لم يبصروا فقبضت قبضة من أثر الرسول(٢) فنبذتها وكذلك سولت لي نفسي ،قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس وإن لك موعدا لن تخلفه وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفا إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو وسع كل شيء علما ﴾.(٣)

وكذلك عاقب الله بني اسرائيل بظلمهم أنفسهم بعبادة العجل فأمرهم بقتل أنفسهم . وسواء قلنا في كيفية القتل إن كل من عبد العجل أمر بقتل نفسه أو قلنا إن الذين لم يعبدوا العجل أمروا بقتل الذين عبدوه فالمقصود أن الله عاقبهم بالأمر بقتل أنفسهم مع ما من به عليهم من توبة

---

(١) سورة طه آية : ٨٣، ٨٤، ٨٥، ٨٦، ٨٧، ٨٨، ٨٩، ٩٠-، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٤، ٩٥، ٩٦، ٩٧، ٩٨ .

(٢) في معنى هذه الآية يقول جمهور المفسرين أن السامرى أخذ قبضة من أثر فرس جبريل لما أرسله الله للقضاء على فرعون وألقاها على الحلى المذاب فكان ما كان من أمر العجل .
انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٣/ ١٦٣ نشر مكتبة التراث القاهرة وروح المعاني للألوسي م٦/ج١٦/ ٢٥٣ نشر دار الفكر.

(٣) سورة طه آية : ٩٥ ، ٩٦، ٩٧، ٩٨ .

وعفو عنهم كرما وتفضلا منه كما أخبرنا الله عز وجل في قوله * وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا الى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم *. (١)

وهكذا لطف الله ببني اسرائيل - كما رأينا في الآية الكريمة - ورحمهم فعفا عنهم بعد أن تابوا واستجابوا لقتل أنفسهم . وبعد ذلك تتوالى نعم الله على بني اسرائيل فمن عليهم بالبعث بعد أن أخذتهم الصاعقة وذلك أن موسى اختار من قومه سبعين رجلا للذهاب معه كي يتوبوا الى الله مما فعل قومهم من عبادة العجل فما لبثوا هم الاخرون حتى طلبوا من موسى أن يريهم الله جهرة فأخذتهم الصاعقة عقابا لهم كما قال عز وجل * واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى أتهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين *. (٢) وهؤلاء السبعون هم الذين طلبوا من موسى رؤية الله جهرة كما في قوله تعالى * واذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون *. (٣)

---

(١) سورة البقرة آية ٥٤.
(٢) سورة الأعراف آية ١٥٥.
(٣) سورة البقرة آية ٥٥، ٥٦.

نستدل لهذا بما أخرجه ابن جرير عن الربيع عن أنس في قوله تعالى ﴿ فأخذتكم الصاعقة ﴾ أنه قال : هم السبعون الذين اختارهم موسى فساروا معه ،وقالوا له : اطلب لنا ربك لنسمع كلامه قال سمعوا كلاما فقالوا ﴿ لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ﴾ قال فسمعوا صوتا فصعقوا. يقول : ماتوا ،فذلك قوله تعالى ﴿ ثم بعثناكم من بعد موتكم ﴾ فبعثوا من بعد موتهم ،لأن موتهم ذلك عقوبة لهم فبعثوا لبقية آجالهم.[1] وقال ابن كثير من قوله تعالى ﴿ واذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ﴾ : المراد السبعون المختارون منهم ولم يحك كثير من المفسرين سواه.[2] فطلب بني اسرائيل من موسى أن يروا الله دليل على غفلتهم المستمرة وعلى جهلهم بمعرفة الله وعلى عدم اكتراثهم بما من الله به عليهم من نعم ومعجزات شاهدوها بأعينهم كما يدل على أنهم دأبوا على التمرد على أوامر الله والكفران بما يسديه إليهم من نعم فكان جزاؤهم أن أخذتهم الصاعقة لا لمجرد طلبهم الرؤية فقط ولكن لسلوكهم طريق التعنت وفرط العناد وذلك شأن كل ملحد يعرض عليه الايمان فيتذرع بما لا يستطيع

---

(١) قال ثنا بن المثنى قال ثنا اسحاق قال ثنا ابن أبي جعفر عن أبيه عن الربيع. جامع البيان في تفسير القرآن جـ١/ ٢٣٢ ط الأميرية وفيه : عبدالله بن أبي جعفر وصفه في التقريب بأنه صدوق يخطيء جـ١/ ٤٠٧ وأبوه عيسى بن أبي عيسى وصفه أيضا في التقريب بأنه صدوق سيء الحفظ جـ٢/ ٤٠٦ ،والربيع بن أنس صدوق له أوهام فيه التقريب جـ١/ ٢٤٢ وباقي رواته ذكروا في الثقات ،انظر التقريب.

(٢) تفسير القرآن العظيم جـ١/ ٩٤ نشر مكتبة دار التراث القاهرة.

عمله أو بما ان حصل سينهي مستلزمات الاختيار المبني على الابتلاء بمعنى أنه له رأوا الله جهرة لم يبق معنى للاختبار الذى يظهر من خلاله عمل الانسان ومن هنا لما لم ينتفع الجاحدون بما أنزل الله من كتب وما أظهر من بينات وهدى وبلغوا درجة يستحقون بهاالاستئصال جاء التهديد في القرآن الكريم بأن القوم لو عاينوا الملائكة ولم يؤمنوا لحق عليهم القضاء فكيف لو عاينوا رب العزة والجلال كما قال عز وجل ﴿ ولو أنزلنا ملكا لقضي الأمر ثم لا ينظرون ﴾(١) يقول الشوكاني في تفسيره لهذه الآية ما نصه : " أى لأهلكناهم إذ لم يؤمنوا عند نزوله ورؤيتهم له ، لأن مثل هذه الآية البينة وهي نزول الملك على تلك الصفة إذا لم ينفع الايمان بعدها فقد استحقوا الاهلاك والمعاجلة بالعقوبة.(٢) يؤيد هذا المعنى أيضا ما قاله الحافظ ابن كثير(٣) في تفسيره للآية " أى لو نزلت الملائكة على ما هم عليه لجاءهم من الله العذاب كما قال الله تعالى ﴿ ما تنزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذا منظرين ﴾(٤) وقوله تعالى ﴿ يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ﴾(٥) وهكذا يتضح أنه لو أرسل الله إليهم ملكا ورأوه عيانا لحق عليهم الاستئصال ولم يبق معنى للاختيار لأن قضية الايمان أصبحت واضحة لا تحتاج

---

(١) سورة الأنعام آية ٨.

(٢) كتاب فتح القدير جـ٢/١٠١ نشر دار المعرفة بيروت.

(٣) تفسير القرآن العظيم جـ٢/١٢٤ نشر دار التراث القاهرة.

(٤) سورة الحجر آية ٨ .

(٥) سورة الفرقان آية ٢٢.

إلى دليل ولأن التكليف أيضا مبني على الاختيار فاذا رأوا الملك ولم يؤمنوا وجب إهلاكهم[1] وهذا ما يعنيه أيضا القول الكريم * هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك ،أو يأتي بعض آيات ربك يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا قل انتظروا إنا منتظرون *[2] هذه الآية الكريمة تقطع حجة الذين يعرضون عن الايمان ويأبون الخضوع لتعاليم الاسلام فيسلكون سبيل العناد والجحود بأن يعلقوا ايمانهم بالرسل والكتب المنزلة على حصول رؤيتهم لله عيانا وهذه دعوة باطلة كثيرا ما أشاعها الملحدون ،وضللوا بها السذج من المتعلمين وأفسدوا بها كثيرا من الشباب التائهين ،ولولا أن هذه الأمة هي آخر الأمم لحق على الذين يطلبون رؤية الله ما حق على من سبقهم من الأمم كبني اسرائيل أخذتهم الصاعقة لولا أن الله عفا عنهم وبعثهم لقطع دابرهم. وتتوالى نعم الله على بني اسرائيل بأن أوحى الله الى موسى أن يذهب بهم الى الأرض المقدسة لفتحها وقتال من فيها من أعدائهم ووعدهم الله بالنصر والظفر عليهم ولكنهم ما لبثوا عندما سمعوا كلمة الجهاد أن نكصوا واستخذوا فقالوا إن فيها قوما جبارين رغم أن رجلين منهم نصحا لهم بالدخول وبشراهم بالغلبة إن كانوا مؤمنين لكنهم لم يستجيبوا واستمروا على التمرد مستمرئين الراحة والجبن وقالوا لموسى : لن ندخلها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون فخالفوا أمر ربهم فاستحقوا العقاب

---

(١) انظر في هذا المعنى ،تفسير أبي السعود جـ٢/١٢٧. نشر دار الفكر بيروت .

(٢) سورة الأنعام آية ١٥٨.

بالتيه في الأرض أربعين سنة حتى انقضى الجيل الذى ألف الذل والهوان وخلفهم جيل كسب القوة والتجلد قال الله عز وجل * يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين قالوا يا موسى إن فيها قوما جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فانا داخلون ،قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فاذا دخلتموه فانكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ، قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين *.(١)

فعوقبوا بالتيه يسيرون ولا يهتدون وخلال هذه المدة أنعم الله عليهم أيضا بنعم وافرة :

١ - ظللهم الغمام وأنزل الله اليهم أطيب الأطعمة وأشهاها كالمن والسلوى وذلك دون نصب في تحصيله كما أخبر سبحانه في قوله * وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا إليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا لكن كانوا أنفسهم يظلمون *.(٢)

---

(١) سورة المائدة آية ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦.

(٢) سورة البقرة آية ٥٧.

٢ - منَّ الله عليهم بالماء بعد أن اشتد بهم العطش في التيه فاستقى لهم موسى ربه فأمره بضرب الحجر فانفجر منه اثنتاعشرة عينا على أعداد الأسباط منهم فعرف كل سبط منهم مكان شربه الخاص به دون تزاحم أو مشاحنة بل كل سبط يأخذ ماءه دون عناء ، وهذه نعمة أخرى كما أخبر سبحانه في قوله ﴿ واذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك البحر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾.(١)

وبنو اسرائيل هم بنو اسرائيل يأبون الا أن يجحدوا نعم الله المتوالية عليهم إلى درجة أنهم يستبدلون الذى هو خير بالذى هو أخس وأقل درجة في البهجة والسرور أبدلوا المن والسلوى وهما ألذ الأطعمة بالبصل والعدس والثوم وما يتبعهما من بقول فلم يشكروا ما رزقهم الله من طعام سهل المنال لذيذ المذاق فطلبوا بدله طعاما صعب التحصيل قليل النفع رخيص الثمن وذلك ما امتن الله به عليهم في قوله ﴿ واذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير اهبطوا مصرا فان لكم ما سألتم وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءو بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بئايات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾.(٢)

---

(١) سورة البقرة آية ٦٠.

(٢) سورة البقرة آية ٦١.

يقول ابن جرير عند تفسيره لهذه الآية :" أى قال لهم موسى أتأخذون الذى هو أخس خطرا وقيمة وقدرا . وذلك كان استبدالهم ".(١)

وبعد هذه الاختبارات التي تنقل فيها بنواسرائيل كي يرجعوا الى طريق الطاعة ولأوامر مولاهم بعدما رأوا الآيات ، وبعد الذى ذاقوه من عقوبات على مخالفتهم تلك والتي انتهت بهم الى التيه أربعين سنة بعد ذلك كله يكرمهم الله فيأمرهم بالدخول الى بيت المقدس وهو المقصود بالقرية كما ثبت (٢) عن ابن عباس وابن مسعود ليعيشوا عيشة مرضية وليشكروا الله على نعمه وليتوبوا فيطلبوا المغفرة منه سبحانه ويسألوه التجاوز عما فرط منهم . وليحط عنهم ما تحملوه من أوزار بعصيانهم أوامره وتمردهم على شرعه . ولكن اليهود قوم بهت فهم هم يقول عز وجل ﴿ وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغدا وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء بما كانوا يفسقون ﴾.(٣)

يرشدهم الله إلى كيفية الشكر الذى يجب عليهم لخالقهم ، ويوجههم الى الطريق السهل الذى ينجيهم بأن يدخلوا من باب المدينة المفتوحة لهم خاشعين ساجدين ضارعين إلى الله عز وجل

---

(١) جامع البيان عن تأويل القرآن جـ١/٣١٢ ط/ الأميرية .

(٢) انظر روح المعاني للألوسي م١/ جـ / ٢٦٥.

(٣) سورة البقرة آية ٥٨ ،٥٩.

ليحط عنهم ما اقترفوه من آثام وليمحو عنهم ما سلف من مخالفات وعصيان .

فقوله عز وجل ﴿ وقولوا حطة ﴾ معناه كما نقل عن الحسن وقتادة (١) (احطط عنا خطايانا) فبدلوا ما قيل لهم وذلك أنهم بدل أن يدخلوا ساجدين دخلوا على أستاههم ، وبدل أن يطلبوا حط ذنوبهم ويقولوا حطة قالوا : حبة في شعرة كما روى عن أبي هريرة رضي الله عنه يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قيل لبني اسرائيل ﴿ ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم ﴾ فبدلوا فدخلو يزحفون على استاههم وقالوا : حبة في شعرة " (٢) فخالفوا السجود بالزحف وقالوا حنطة بدل حطة فظلموا أنفسهم بعدما استيقنوا صحة شرع الله فأصابهم العذاب نتيجة عصيانهم و جحودهم لنعم الله عليهم فأنزل الله عليهم عذابا من عنده بسبب التواءاتهم عن الطريق المستقيم و اصرارهم على التمرد كلما أدركتهم رحمة الله بالعفو كما جاء في قوله تعالى ﴿ واذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطة وادخلوا الباب سجدا نغفر لكم خطيئاتكم سنزيد المحسنين فبدل الذين ظلموا منهم قولا غير الذى قيل لهم فأرسلنا عليهم رجزا من السماء بما كانوا يظلمون ﴾. (٣)

وهكذا جمع بنو اسرائيل بين الفسق والظلم بتعمقهم في الخروج عن الطاعة وغلوهم في التمرد على أوامر خالقهم و تبديلهم نعم الله

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج١/ ٩٨ .

(٢) أخرجه البخارى في صحيحه انظره بشرحه فتح البارى ج٨/ ٣٠٤ ، كتاب التفسير .

(٣) سورة الأعراف آية ١٦١ ، ١٦٢ .

الوافرة عليهم وذلك ما استحقوا به عقاب الله الشديد كما قال عز وجل في معرض التقريع والتوبيخ على جحودهم ذلك * سل بني اسرائيل كم آتيناهم من آية بينة ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فان الله شديد العقاب *. (١)

ويتوالى ارسال الأنبياء في بني اسرائيل كلما زاغوا عن طريق الاستقامة أو أحدثوا ما يناقض لوازم العبودية من صرفها لغير الله أو تحريف للأحكام ولا سيما أن بني اسرائيل دأبوا على التعنت والتكلف وامتثال الأوامر فكانوا اذا طلبوا تحقيق أمر لهم واستجيب لهم لا يستطيعون القيام به لجبنهم وعنادهم كما قص الله علينا من أنهم سألوا أحد أنبيائهم نصب أمير عليهم ليقاتلوا في سبيل الله . وقد سبق أن علمنا أن منهم من قال * فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون * (٢) ولذلك هم في حاجة الى الاختبار ليعلم صدقهم من كذبهم.

فها هم طلبوا نصب مالك عليهم ليتأمروا بأمره ويقاتلوا تحت رايته أعداءهم من العمالقة والكنعانيين الذين تسلطوا عليهم بعد أن فقدوا التابوت الذى كانوا ينصرون به وبالتالي بادت ملوكهم وهلكت أعظم أموالهم ولما كتب عليهم ما طلبوه من قتال نكصوا وخانوا العهد . فحينما بعث الله لهم طالوت ملكا أخذوا في اللجاج والتعنت فرفضوا تنصيبه ملكا عليهم متعللين بأنهم أحق بالملك منه لأنه لم ينحدر من بيت أهله أهل ملك ومال فلم ينظروا إلى أن الله

---

(١) سورة البقرة آية ٢١١ .

(٢) سورة المائدة آية ٢٤ .

هو الذى اختاره واصطفاه عليهم ،وهو الذى جعله يفوقهم في العلم والجسم كما قال عز وجل ﴿ ألم تر الى الملأ من بني اسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم والله عليم بالظالمين ،وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا قالوا أنى يكون له الملك علينا و نحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم ﴾ (١) فبين لهم في هذه الآية خطأهم في استبعادهم تنصيب طالوت ملكا عليهم لما كان فقيرا وما دروا أن ملاك الأمور بيد العليم الخبير وقد اصطفاه من بينهم إذ هو العليم بمصالح القوم وبالتالي هو وحده الذى له التصرف في ملكه يولي من يشاء على من يشاء ويغني من يشاء ويفقر من يشاء .

وما دام الأمر كذلك فيجب على بني اسرائيل أن يقبلوه ملكا عليهم . وإن أرادوا علامة ملكه عليهم فذلك حينما يأتيه التابوت. كما روى عن ابن عباس (جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض حتى وضعته بين يدى طالوت والناس ينظرون) (٢) فمجيء التابوت ظاهرة دالة على صدق ذلك النبي وعلى صحة تولى طالوت عليهم ملكا وفي التابوت أيضا سكينة . واختلف المفسرون في المراد بالسكينة

---

(١) سورة البقرة ٢٤٦ ،٢٤٧ .

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ١/ ٣٠١ نشر مكتبة التراث القاهرة .

منهم من عبر عنها بما هو مادى كمن جعلها طستا من ذهب ومنهم من جعلها حيوانا يتكلم ومنهم من جعلها شيئا معنويا وهو الموافق لمدلولها اللغوى إذ لا دليل عن المعصوم يوحي بدلالتها على ما هو مادى ومن هنا فالذى ينبغي المصير إليه هو ما ذهب اليه عطاء حيث [١] نقل عنه ابن جريج قوله : " ما تعرفون من آيات الله فتسكنون اليه " وهذا ما عبر عنه الآلوسي [٢] بقوله أيضا : " أى في اتيانه سكون لكم وطمأنينة ".

وقوله تعالى ﴿ وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة ﴾ [٣] نقل عن ابن عباس قوله : (عصاه ورضاض [٤] الألواح) [٥].

والمهم في هذا أن الله عز وجل أرسل لهم التابوت علامة على صدق نبيهم وشهادة لاستحقاق نصب طالوت ملكا عليهم حيث قال سبحانه ﴿ وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ﴾ [٦] ويمضى طالوت ملكا عليهم فيعد جيشا من الذين مضوا

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ج١/ ٣٠١ نشر دار التراث القاهرة.

(٢) روح المعاني للآلوسي م١/ج٢/ ١٢٩.

(٣) سورة البقرة آية ٢٤٨.

(٤) معناه : مكسراتها . انظر المصباح المنير ج١/ ٢٧١ ،والنهاية لابن الأثير ج٢/ ٢٢٩.

(٥) جامع البيان لابن جرير حيث قال فيه : حدثنا ابن المثنى قال ثنا أبو الوليد قال ثنا حماد عن داود بن ابي هند عن عكرمة عن ابن عباس . رواته وصفهم ابن حجر في تقريبه بأنهم ثقات،راجع الجامع بتحقيق محمود محمد شاكر ج٥/ ٣٣١ الطبعة الثانية .

(٦) سورة البقرة آية ٢٤٨.

عازمين على القتال بعد أن اختبرهم ليظهر عزيمة من يثبت معه ويصبر على لأواء الحرب وشدة القتال وذلك لما مروا بنهر وقد اشتد بهم العطش وأصابهم الظمأ فأمرهم طالوت بأن لا يشربوا منه الا غرفة واحدة فمن صبر على عدم الشرب الا بالقدر الذى أجازه الأمير فسوف يتحمل الآلام ومرارة الظمأ مع وجود الماء ويسره ويدل ذلك أيضا على صلاحه وثبات عزيمته وثقته بالله وبالتالي يدل على أن هذا الصنف من الناس يستطيع خوض المعارك وتحمل الصعاب فيها حينما يشتد وطيس الحرب فينفع الناس وينتفع هو أيضا بعكس من خالف الأمر ولم يصبر على تحمل الظمأ فسوف يتراخى في الأمر ويطلب الدعة والاستسلام ومن كان كذلك لا يصلح لمصاحبة المجاهدين لما ينالهم بسببه من التثبيط والخور.
وبنواسرائيل من الصنف الذى لا يتحمل الشدائد ومن النمط الذى طالما خيب آمال أنبيائه فيما يمرون به من اختبار وفي هذه القصة يخبرنا الله عز وجل بأنهم شربوا من الماء الا القليل ﴿ فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فانه مني الا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه الا قليلا منهم ﴾.(١)

ويمضى الذين صبروا وتحملوا المشاق معتمدين على ايمانهم القوى بنصر ربهم لهم في مقابلة جالوت رغم كثرة عدده وعدته فيبرز له داود ويقضي عليه ويريح الناس من شره وظلمه كما أخبرنا عز وجل في قوله ﴿ فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده

---

(١) سورة البقرة آية ٢٤٩.

قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدمنا وانصرنا على القوم الكافرين فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وءاتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ،ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين ﴾.(١)

ويتوالى إرسال النبيين إلى بني اسرائيل يحكمون فيهم بالتوراة كما أخبر سبحانه في قوله ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بئاياتي ثمنا قليلا ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾.(٢)

ومع طول المدة وقساوة قلوب بني اسرائيل وتمردهم كلما طال عليهم العهد كانوا في حاجة إلى رسول جديد ليصلح لهم ما حرفوه من شريعة التوراة وليردهم إلى سبيل التوسط بعد أن اعتادوا على التمسك بالافراط أو التفريط وبعد أن تَقَطعوا وبدلوا وحرفوا فيما جاءتهم به التوراة من أحكام وهم في هذه الحال يرسل الله إليهم عيسى ابن مريم رسولا مؤيدا بمعجزة لا تدع سبيلا للارتياب في صدق رسالته كصنع الطير من الطين والنفخ فيه فيتحرك حيا طائرا بإذن الله وكإبراء الأكمه والأبرص وكتكليم الموتى وكإخبارهم بما يأكلون وما يختزنونه للأكل .

---

(١) سورة البقرة آية ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ .
(٢) سورة المائدة آية ٤٤ .

وبالتالي جاءهم عيسى عليه السلام ليبشرهم بقرب بعثة خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم كما أخبر الله تعالى في قوله ﴿ وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وءاتيناه الانجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين ﴾[1] وفي قوله ﴿ ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل ورسولا إلى بني اسرائيل أني قد جئتكم بئاية من ربكم إني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ومصدقا لما بين يدى من التوراة ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم وجئتكم بئاية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون ﴾.[2]

جاء عن الربيع بن أنس أنه قال : (كان الذى جاء به عيسى ألين مما جاء به موسى عليهما السلام وكان قد حرم عليهم فيما جاء به موسى عليه السلام لحوم الابل والثروب[3] فأحلها لهم على لسان عيسى ، وحرمت عليهم شحوم الابل فأحلت لهم فيما جاء به عيسى)[4] وذلك أن الله كان قد حرم عليهم أشياء عقوبة لهم على ما صدر منهم من مخالفات كما قال عز وجل ﴿ فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا وأخذهم الربوا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما ﴾.[5]

---

(١) سورة المائدة آية ٤٦ .

(٢) سورة آل عمران آية ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ .

(٣) جمع ثرب بوزن فلس الشحم الرقيق الذى يكون على الكرش والأمعاء. كتاب النهاية لابن الأثير ج١ / ٢٠٩ ، والمصباح المنير ج١ / ١٠١ ، نشر دار الكتب العلمية بيروت .

(٤) أخرجه ابن جرير في جامعه قال حدثني / المثنى حدثنا اسحاق قال حدثنا ابن أبي جعفر عن عبد الله بن الربيع ج٦ / ٤٣٩ تحقيق محمود محمد شاكر انظر بيان درجة رواته في ص : ٣٥٧ .

(٥) سورة النساء آية ١٦٠ ، ١٦١ .

ومع هذه النعم التي جاءهم بها عيسى بن مريم فبنو اسرائيل هم بنو اسرائيل دأبوا على العصيان والجحود ، فما إن جاءهم عيسى برسالته وبين لهم فيها ما اختلفوا فيه من أمور التكليف . حتى ظهر منهم الكفران والعناد وهموا بقتله ولم يؤمنوا به إلا قليل منهم وهم الحواريون كما قال عز وجل ﴿ فلما أحس عيسى منهم الكفر ، قال من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين ، ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين ﴾(١) وقوله عز وجل ﴿ ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم ﴾(٢). وكقوله عز وجل ﴿ وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني اسرائيل إني رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدى اسمه أحمد ، فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين ﴾(٣).

ولما أدى عيسى مهمته بتبليغ بني اسرائيل الانجيل وبين لهم الحق فيما كانوا فيه يختلفون رفعه الله إليه بعدما تآمروا على قتله لكن الله عز وجل نجاه منهم وشبهه لهم فرفعه إليه كما أخبر عز وجل في قوله ﴿ إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إلي مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون ﴾(٤)، وقوله عز وجل

---

(١) سورة آل عمران آية ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤.
(٢) سورة الزخرف آية ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥.
(٣) سورة الصف آية ٦ (٤) سورة آل عمران آية ٥٥.

﴿وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ﴾ (١) روى عن ابن عباس (٢) أن رهطا من اليهود سبوه عليه السلام وأمه فدعا عليهم فمسخوا قردة وخنازير فبلغ يهوذا رأس اليهود فخاف فجمع اليهود فاتفقوا على قتله فساروا إليه ليقتلوه فأدخله جبريل عليه السلام بيتا ورفعه منه الى السماء ولم يشعروا بذلك فدخل عليه أحدهم ليقتله فلم يجده وأبطأ عليهم فألقى الله عليه شبه عيسى عليه السلام فلما خرج قتلوه وصلبوه.

وهكذا رأينا أن بني اسرائيل استمروا على التمرد على أنبيائهم وأرادوا قتل عيسى عليه السلام لكن شبه لهم بصاحبهم فقتلوه واعتقدوا أنهم قتلوا عيسى وأصبحوا في ريب من أمره كما قال عز وجل ﴿وان الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا بل رفعه الله اليه وكان الله عزيزا حكيما﴾. (٣)

والى هنا تقف بنا الرحلة مع بني اسرائيل باستعراض مواقفهم التي كشفت عن خسرانهم فيما اختبروا به من جهة أنبيائهم.

موطن الابتلاء في قصص بني اسرائيل :

١ - يتجلى ذلك في أن بني اسرائيل ما إن نجوا من تسلط فرعون عليهم باذلالهم وقهرهم حتى رجعوا الى ما علق في قلوبهم من خنوع وتذلل فطلبوا من موسى أن يجعل لهم آلهة عندما رأوا أقواما عاكفين على أصنام لهم يعبدونها .

---

(١) سورة النساء آية ١٥٧.
(٢) روح المعاني للآلوسي م ٢ / ج٦/ص١٠.
(٣) سورة النساء آية ١٥٧، ١٥٨.

٢ - نقضهم الميثاق حيث إن موسى عليه السلام ذهب ليأتي لهم بالتوراة التي فيها نظام حياتهم وما لبثوا وراءه هنيهة حتى خانوا الأمانة وعبدوا العجل وتمردوا على هارون بل كادوا يقتلونه.

٣ - التشكك الدائم ويتضح ذلك في السبعين الذين اختارهم موسى للميقات ليعلنوا توبة القوم من عبادة العجل فما لبث هؤلاء مع موسى - ورغم المعجزات التي رأوها - حتى علقوا إيمانهم بما جاء به موسى على رؤية الله معاينة.

وفي أمر الحواريين الذين طلبوا من عيسى انزال مائدة من السماء وبصيغة فيها التشكيك والاستفهام كما جاء في قوله عز وجل ﴿إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين﴾ (١) ألا ما أقسى قلوبهم وما أشد تبلد حسهم وعنادهم.

٤ - استمرار تمردهم على الأوامر الالهية حيث إنهم كلما جاءهم أمر نكصوا على أعقابهم وتلكأوا في امتثال أمر ربهم وتعنتوا فيما يوجههم إليه أنبياؤهم وذلك كعدم التزامهم بأحكام التوراة وابائهم العمل بها حتى رفع الله فوق رؤسهم جبلا فسجدوا مكرهين وهم ينظرون إليه خوفا من أن يقع عليهم كما أخبر سبحانه بذلك في قوله ﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون﴾ (٢) وكتمردهم لما أمروا بالدخول الى الأرض المقدسة

---

(١) سورة المائدة آية ١١٢، ١١٣.

(٢) سورة الأعراف آية ١٧١.

لقتال من فيها من الجبابرة كان موقفهم مخزيا وكاشفا للتاريخ البشرى عن مدى جبنهم وخذلانهم حيث قالوا لموسى ﴿ فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ﴾ (١) فحلت بهم عقوبة التيه وخسروا ما كانوا يستمتعون به من نعم لو دخلوا الأرض المقدسة لكن جبنهم وخوفهم جعلهم ينكصون على أعقابهم وامتنعوا من الدخول فضربت عليهم الذلة والمسكنة وتاهوا في الأرض أربعين سنة وهم فاسقون . وحتى عندما انتهت مدة التيه وأحل الله لهم الدخول عاندوا وحرفوا صفة الدخول وغيروا للهيئة في الفعل والقول التي أمروا بالدخول عليها بحيث أمرهم الله أن يدخلوا ساجدين طالبين حط الذنوب عنهم فدخلوا يزحفون وغيروا القول في حطة فقالوا : حنطة .

٥ - جحودهم نعم الله عليهم بل نزول طباعهم الى الأحط والأخس من الأشياء يتضح ذلك فيما منّ الله به عليهم أثناء التيه من الألذ من الأطعمة كالمن والسلوى فأبوا إلا طلب الأدنى من البصل والثوم.

٦ - سوء الهم ما لا يستطيعون القيام به يتجلى ذلك في سوء الهم القتال تحت ملك يختار من بينهم فلما أعطوا ما طلبوا تولوا وتمردوا على من ولاه الله عليهم إلا زمرة قليلة بل حتى تلك الزمرة منهم التي خرجت معه حينما اختبرهم طالوت بعدم الشرب من النهر عصوه فشربوا إلا القليل منهم .

---

(١) سورة المائدة آية : ٢٤ .

٧ - وأخيرا دأب بنو اسرائيل على قتل أنبيائهم كما أخبرنا الله عز وجل حيث قال ﴿ إن الذين يكفرون بئايات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم ﴾(١) وفي قوله عز وجل ﴿ ذلك بأنهم كانوا يكفرون بئايات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾.(٢)

ولذلك لما جاءهم خاتمة أنبيائهم عيسى عليه الصلاة والسلام كذبوه وبيتوا قتله لولا أن الله رفعه إليه، ولعل الدارس لأخبار بني اسرائيل لا يخالجه شك في أن بني اسرائيل أخس الأمم التي قص الله علينا خبرها فيما قد مرت فيه من امتحانات وأنها أقسى الأمم قلوبا وأخبثهم مكرا وأبشعهم بطشا وأشدهم تعنتا والتواء عن سبيل الهدى والرشاد وسيظهر لنا المزيد من ذلك عندما نتعرض لمواقفهم من خاتمة الرسالات ونرى كيف سلكوا سبل الخيانة الفاضحة والتدمير والتلبيس والتثبيط، سنتأكد من الغرق الشاسع بينهم وبين خير أمة أخرجت للناس. وذلك أنه قد سبق معنا في الفصل قبل هذا استعراض ابتلاء كفار قريش إبان دعوة النبي صلى الله عليه وسلم فأبوا إلا الفساد والتنكيل بمن أسلم فتتابع أذاهم لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم. ولما أخرجوهم من ديارهم وتركوهم شذر مدر هاجرت طائفة منهم إلى الحبشة في أول الأمر. وبعد فترة تمت المعاهدة بين النبي صلى الله عليه وسلم والأنصار عند بيعة العقبة فبدأ المسلمون يهاجرون الى المدينة من أجل الحفاظ على دينهم.

---

(١) سورة آل عمران آية ٢١.
(٢) سورة آل عمران آية ١١٢.

والثبات على عقيدتهم وتتابع نكال قريش للمسلمين ولما اشتد الأذى بالنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه و أصبحوا مهددين في أرزاقهم بقطع كفار قريش وسائل الحياة عنهم في تحركهم واتخاذ وسائل التعذيب في حق من أسلم كما فعل بنو مخزوم بآل ياسر فكانوا يخرجون عمار ابن ياسر وأمه وأباه اذا حميت الظهيرة فيعذبونهم برمضاء مكة ويمر بهم النبي صلى الله عليه وسلم فيقول صبرا آل ياسر موعدكم الجنة (١) وكان أمية بن خلف الجمحي يعذب بلالا بن رباح رضي الله عنه أشد أنواع العذاب فيخرجه الى الرمضاء ويضع على صدره صخرة عظيمة ثم يقول له لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى فيقول رضي الله عنه : أحد ،أحد (٢) كما كان أبو جهل يغرى بمن أسلم من الضعفاء ويؤنب من له منعة وشرف ويخزيه بالتسفيه في العقل والتخطئة في الرأى والتحريض على عدم التعامل مع من كان تاجرا من المسلمين . (٣) وهكذا والت قريش صب البلاء على المستضعفين من المسلمين واستمرت على حبسهم وتعذيبهم بالضرب والجوع والعطش حتى كان بعضهم يفتتن في دينه فلم يكن بد من الهجرة أمام هذا الوضع القاتم فأذن صلى الله عليه وسلم لمن لم يصبر بالهجرة الى الحبشة واستمر من صبر في مكة كما جاء في سيرة ابن هشام حيث يروى لنا القول " فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يصيب أصحابه من البلاء وما هو فيه من العافية بمكانه من الله ومن عمه أبي طالب وأنه

---

(١) انظر سيرة ابن هشام جـ١/ ٣٢٠ الطبعة الثانية الحلبية.
(٢) انظر السيرة لابن هشام جـ١/ ٣١٨.
(٣) انظر سيرة ابن هشام جـ١/ ٣٢٠.

لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء قال لهم : لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أرض الحبشة مخافة الفتنة وفرارا إلى الله بدينهم ".(١)

ثم استمرت قريش في أذى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الذين لا زالوا معه ولم يهاجروا بعد . فكان الصحابة رضي الله عنهم يطلبون من الرسول الاستنصار من الله لكن سنة الله في المؤمنين الاختبار والامتحان كما قال عز وجل ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب ﴾(٢) وقوله سبحانه ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾(٣) وقوله جل شأنه ﴿ أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة ﴾(٤) وقوله عز وجل ﴿ الٓمٓ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾(٥)

---

(١) جـ ١/ ٣٤١.
(٢) سورة البقرة آية ٢١٤.
(٣) سورة آل عمران آية ١٤٢.
(٤) سورة التوبة آية ١٦.
(٥) سورة العنكبوت آية ١ ، ٢ ، ٣.

وكذلك ما جاء في الصحيح من حديث خباب يقول : " أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة وهو في ظل الكعبة وقد لقينا من المشركين شدة - فقلت يا رسول الله ألا تدعو الله لنا ؟ فقعد وهو محمر وجهه فقال : لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه. وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت ما يخاف الا الله " وفي رواية والذئب على غنمه.(١)

فهذه النصوص الظاهرة تعطينا أن من سنة الله في عباده حينما يرسل إليهم الرسل أن يمتحنهم بالتكاليف كالمهاجرة والمجاهدة وكالاعراض عن الشهوات وكالتعرض لفنون المصائب في الأنفس والأموال ليتميز المخلص من المنافق والراسخ في الدين من المتزلزل فيه فيعامل كل واحد بما يقتضيه حاله فيجازى الجميع بناء على مراتب أعمالهم فلا مناص من الاختبار بأمور يظهر فيها أهل العزم ويبدو فيها حال الصادق من الكاذب وذلك هو ما مر منه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين آمنوا به أول الأمر في مكة. ولما اشتد البلاء على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ويسر الله له منفذا آخر لانطلاق الدعوة بما تم بينه وبين الأنصار من مبايعتهم له على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم أمر صلى الله عليه وسلم أصحابه بالهجرة الى المدينة. ولما

---

(١) أخرجه البخارى في صحيحه . كتاب مناقب الانصار باب ما لقي النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من المشركين . فتح البارى ج ٧/ ١٦٥.

علمت قريش بذلك ضاقت ذرعا وأحست بأفول غطرستها وقرب زوال كبريائها اجتمع صناديدها . قرروا النظر في الأمر والبت فيه قبل انفلات الزمام من أيديهم بظهور هذا الدين وانتصاره على من وقف مضادا لمبادئه فاجتمعوا في دار الندوة يتشاورون ويبرمون الأمور فانتهى الأمر بهم أن اتفقوا على قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم - فداه أبي وأمي - وحينذاك أخبر الله رسوله بأمر قريش وتآمرهم على قتله وأذن له بالهجرة من مكة بعد أن مكث فيها ثلاث عشرة سنة يدعو إلى توحيد الله عز وجل والى شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله وقد لقي في تلك الفترة أبشع ألوان الفتن والمحن فكان صابرا متحملا حتى أمر بالهجرة الى المدينة ونزلت عليه الآية الكريمة (١) ﴿ وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا ﴾ (٢) فخرج صلى الله عليه وسلم من بين ظهرانيهم ولم يروه فخذلوا وسقط في أيديهم ثم اصطحب معه الصديق رضي الله عنه وخرجا حتى أتيا غار ثور واختفيا فيه ما شاء الله أن يختفيا فتتبعت قريش أخبار أمره من كل جهة وصوب وجعلوا مائة من الابل لمن يأتي به أو بخبره قبل أن يصل إلى مهجره . وهكذا قد تولى البحث عنه وتتبع آثاره بعض رجالات قريش أنفسهم حتى وقفوا على باب الغار (٣) ولما رآهم أبو بكر رضي الله عنه فزع وخاف أن يروهما لكن الله أعمى أبصارهم وطمس بصائرهم فعادوا خائبين

---

(١) سورة الاسراء آية ٨٠ .

(٢) أخرجه الترمذي في سننه من حديث ابن عباس وقال حسن صحيح . انظره بشرحه تحفة الأحوذي للمباركفوري . التفسير جـ٨/ ٥٧٤ نشر دار الفكر .

(٣) انظر السيرة لابن هشام جـ٢/ ٤٨٥ .

يجرون أذيال الخزى والشنار ونجى الله رسوله من مكرهم وأيده على سطوتهم كما ذكر تعالى ﴿ إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم ﴾ (١) وفي قوله تعالى ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾ (٢) وكما جاء في الصحيح من حديث أبي بكر قال : "قلت للنبي صلى الله عليه وسلم وأنا في الغار لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا فقال : ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما" (٣).

وهكذا ينجو صلى الله عليه وسلم من مكر كفار قريش ويصل إلى المدينة ويقيم فيها دولة الاسلام لينتشر النور من هناك في ربوع أرجاء الأرض ، وبذلك تنتقل الدعوة الى الجهر بها والقوة في مسارها ويتخذ الابتلاء طريقا جديدا ولونا آخر وذلك في دار الهجرة التي أصبحت معقلا للاسلام يشع منه النور . فقد أصبحت الدعوة تواجه عدوا ثلاثيا اثنان من الداخل اليهود والمنافقون وواحد من الخارج كفار قريش فكانت المهمة صعبة والثمن باهظا لاقامة دولة اسلامية تمتد الى الافاق وتتجاوز مبعثها في الجزيرة . ولا تمام هذا الأمر باقامة دولة محمية من أعدائها قوية في كلمتها وأوامرها تجاه من أذاقوا أفرادها أصناف الأذى.

---

(١) سورة التوبة آية ٤٠ .

(٢) سورة الانفال آية ٣٠ .

(٣) أخرجه البخارى في صحيحه انظره بشرحه فتح البارى جـ٧/٨ كتاب فضائل الصحابة .

وفتنوهم أشد فتنة حتى اضطروهم الى الهجرة المتتالية ، وليجد الانسان -أيضا- حريته في اعتقاده وفي تأدية شعائر دينه الذى اختاره لنفسه وقد اضطهد من أجل معتقده . من أجل ذلك يجب على المسلمين أن يجاهدوا عدوهم الذى يتربص بهم الدوائر ويحاول فتنتهم حتى لا يستطيعوا أن يمارسوا قواعد الاسلام . اذن يجب الجهاد أولا حتى يصرف العدو عن محاربة المسلمين فأذن الله لنبيه بالقتال حتى يكون الانسان حرا فيما يختاره لنفسه من عقائد إذ لا إكراه في الدين كما قال عز وجل ﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ﴾(١) فجاء الاذن بقتال المعتدين كما في قوله تعالى ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ﴾(٢) وكما قال عز وجل ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فان انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين ﴾(٣) وفي قوله عز وجل ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فان انتهوا فان الله بما يعملون بصير ﴾(٤) يلاحظ حذف لفظ كل في آية البقرة وذكره في آية الأنفال وذلك أن آية البقرة جاءت بخصوص مشركي مكة وآية الأنفال جاءت لعموم الكفار فناسب ذكر كل فيما هو عام وحذفه فيما هو خاص(٥) والله أعلم بمراده . وهذا أيضا ما ذهب اليه الجمل في حاشيته حيث قال :

---

(١) سورة البقرة آية ٢٥٦.

(٢) سورة الحج آية ٣٩.

(٣) سورة البقرة آية ١٩٣.

(٤) سورة الأنفال آية ٣٩.

(٥) تفسير روح المعاني للألوسي م ١/ج ٢/ ٧٦ وما ذهب اليه الألوسي يستقيم على القول بتخصيص إحدى الايتين وعموم أخراهما وإلا فلا والظاهر أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ومن هنا لا يستقيم توجيه الألوسي .

" وترك هنا كله " وذكره في الأنفال ، لأن القتال هنا مع أهل مكة فقط ، وثم مع جميع الكفار فناسب ذكره ".(١) وقوله تعالى * وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا *(٢) وقوله تعالى * أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز *.(٣) هذه الآيات العظيمات تكشف لنا أن المشركين هم الذين كانوا يؤذون المؤمنين لا لشيء إلا لأنهم اعتقدوا ما هو الحق الذى ثبت بالدليل القاطع فمنعوهم من حرية معتقدهم فأذاقوهم شتى ألوان العذاب وبالتالي أخرجوهم من ديارهم ومنعوهم أموالهم . وكان المؤمنون يأتون إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ما بين مضروب ومشجوج ويتظلمون إليه صلى الله عليه وسلم فكان يأمرهم بالصبر. أخرج الترمذى من حديث ابن عباس قال " ولما أخرج النبي صلى الله عليه وسلم من مكة قال أبو بكر أخرجوا نبيهم ليهلكن فأنزل الله تعالى * أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير * الآية فقال أبو بكر: لقد علمت أنه سيكون قتال "(٤) ولذلك لما هاجروا أذن لهم بالقتال

---

(١) حاشيته على الجلالين ج١/ ١٥٤ ط / الحلبية.

(٢) سورة النساء آية ٧٥.

(٣) سورة الحج آية ٣٩ ، ٤٠.

(٤) أخرجه في جامعه وقال هذا حديث حسن انظره بشرح المباركفورى أبواب التفسير ج٩/ ١٥ نشر دار الفكر بيروت.

دفاعا عن عقيدتهم كي يعمل بها مختارين وكي يبلغوها للناس كافة
فقال تعالى : ﴿ فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى اذا اثخنتموهم
فشدوا الوثاق فاما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ذلك
ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض ﴾ (١) فكانت غزوة
بدر الكبرى التي ابتلى فيها المؤمنون أشد البلاء وذلك أن طائفة من
قريش كانت قادمة من الشام بعير تحمل تجارتهم برئاسة أبي سفيان
فما إن علم المسلمون بمرور القافلة حتى خرجوا لطلبهم ولما علم أبوسفيان
بخروجهم بعث لقريش يستنجد بهم فخرجوا مدججين بالسلاح والمؤن
لحماية القافلة لكن خروجهم في الحقيقة عند النظر والتأمل قد تم بتدبير
من الله سبحانه ليقضي على صناديد الكفر وزعماء الضلال بدليل أن أباسفيان
غير وجهته بمحاذاة البحر مما جعله ينجو من قبضة المسلمين فليتم ما
أراده الله من ازهاق الباطل واظهار الحق أصر كفار قريش على محاربة
الرسول صلى الله عليه وسلم وجنده من المسلمين في موقعة بدر التي التقى
فيها الجمعان بغير موعد . ورغم تلكوء بعض المسلمين الذين كانوا
يريدون طائفة العير لما فيها من الأموال والغنائم ورغم أن بعضا من
كفار قريش لما علموا بنجاة العير أشاروا على جندهم بالرجوع ولكن
كما قلت ساقهم قدر الله لحتف انوفهم وذلك ليتم ما أراده الله
من اختبار الفريقين باقامة الحجة على الكفار وليبتلي المؤمنين بالنصر
والغنيمة ولاحباط فئة الكفر والضلال ،ليعلو علم التوحيد ويتم احقاق

---

(١) سورة محمد آية ٤ .

الحق كما أخبر سبحانه في قوله ﴿ وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون ﴾.(١)

والتقى الجمعان على جانبي الوادي، جمع الهدى والحق بقيادة خير الخلق صلى الله عليه وسلم وجمع الضلال والخسران يؤمهم الشيطان الذي خذلهم بعد أن أوقعهم في شرك المذلة وبؤرة الخسة فتولى عنهم فارا من عقاب الله كما روى عن ابن عباس(٢) قال : لما كان يوم بدر سار إبليس برايته وجنوده مع المشركين وألقى في قلوب المشركين أن أحدا لن يغلبكم وأني جار لكم فلما التقوا ونظر الشيطان إلى امداد الملائكة نكص على عقبيه . قال رجع مدبرا وقال : «إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب» كما أخبر في قوله سبحانه وتعالى ﴿ وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني برئ منكم إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب ﴾.(٣)

---

(١) سورة الأنفال آية ٧، ٨.

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره فقال : حدثني القاسم قال ثنا الحسين قال حدثني حجاج عن ابن جريج قال قال ابن عباس جامع البيان جـ١٠/١٤ ط/ الاولى ١٣٢٧هـ فيه الحجاج المصيصي ثقة ثبت لكنه اختلط بآخرة . انظر في شأنه التقريب جـ١/١٥٤ وانظر الكواكب النيرات في معرفة من اختلط لابن الكمال ط/ الاولى ص ٤٥٦ . وفيه ابن جريج عبد الملك بن عبد العزيز ثقة فقيه فاضل وكان يدلس جعله ابن حجر في الثالثة . التقريب جـ١/٥٢٠ / كتاب تعريف أهل التقديس : ص ٩٥ نشر دار الكتاب العلمية بيروت . وباقي رواته ذكروا في الثقات انظرهم في التقريب .

(٣) سورة الانفال آية ٤٨.

أما جمع الهدى لما أخبرهم النبي صلى الله عليه وسلم بأنهم أصبحوا أمام واقع حربي لا مفر منه . قال المهاجرون قولتهم الخالدة على لسان المقداد بن عمرو حيث قال : يا رسول الله امض لما أراك الله فنحن معك والله لا نقول لك كما قال بنو اسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ،فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد (١) لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه ".

ويطلب صلى الله عليه وسلم الاستشارة من الانصار فيقول سعد ابن معاذ على لسانهم (فقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة لك فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا انا لصبر في الحرب صدق عند اللقاء ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر على بركة الله) (٢) ويمضي رسول الله صلى الله عليه وسلم مسرورا بما سمع من المهاجرين والانصار. وعدد الجميع يومئذ بضعة عشر وثلاثمائة كما جاء في صحيح البخارى (٣) من حديث أبي اسحاق قال (سمعت البراء رضي الله عنه يقول حدثني أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ممن شهد بدرا إنهم كانوا عدة أصحاب

---

(١) بفتح الباء وكسرها وضم العين وكسرها أيضا اسم موضع باليمن النهاية لابن الاثير جـ١/١٢١ .

(٢) سيرة ابن هشام جـ١/٦١٥ الطبعة الثانية / الحلبية.

(٣) أخرجه في المغازى باب عدة أصحاب بدر انظره بشرح فتح البارى جـ٧/٢٩٠.

طالوت الذين جازوا معه النهر بضعة عشر وثلاثمائة) وكفار قريش مابين الستمائة والالف[1] وبعد أن أجمع المسلمون أمرهم وصمموا على قتال أعدائهم وهيأوا أماكنهم الحصينة واقترب الوعد الحق . وأخذ صلى الله عليه وسلم يشد من العزائم ويقيم الصفوف والتجأ صلى الله عليه وسلم الى القوى العزيز رافعا يديه الى السماء وهو يقول[2] : (اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك . اللهم إن شئت لم تعبد ، فأخذ أبو بكر بيده فقال حسبك : فخرج وهو يقول : (سيهزم الجمع و يولون الدبر)[3] و يلتقي القوم وقد هيأ الله الأسباب لنصرة جند الحق فجعل كلا من الجمعين قليل العدد في أعين الآخرين ليتطلع ويطمع فريق المسلمين في الانقضاض والقضاء على المشركين فهم قلة في أعينهم في حين أن الله صور المسلمين قلة قليلة في أعين المشركين حتى لا يعطوا كبير اهتمام وعظيم شأن لمقاتلة المسلمين ومحاربتهم وذلك ليقضي الله أمرا كان مفعولا . قال الله تعالى ﴿ واذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلا ويقللكم في أعينهم ليقضي الله أمرا كان مفعولا وإلى الله ترجع الأمور ﴾ .[4] وما إن تداخل الفريقان حتى أكرم الله رسوله والمؤمنين بالنصر والعون بأن استجاب الله لنصرة أوليائه بانزال الملائكة فأمدهم بثلاثة آلاف ثم زادهم حتى وصلت خمسة آلاف كما روى عن

---

(١) سيرة ابن هشام جـ١/٦١٧.

(٢) أخرجه البخارى من حديث ابن عباس انظره بشرحه فتح البارى كتاب المغازى جـ٧/٢٨٧.

(٣) سورة القمر آية ٤٥.

(٤) سورة الأنفال آية ٤٤ .

الربيع بن أنس قال (أمد الله المسلمين يوم بدر بألف ثم زادهم فصاروا ثلاثة آلاف ثم زادهم فصاروا خمسة آلاف) (١) ثم قال ابن حجر بعد نقله لهذا الأثر وكأنه جمع بذلك بين آيتي آل عمران والأنفال وهذا يدل على أن القول الصحيح أن الملائكة إنما نزلوا في غزوة بدر كما يدل عليه أيضا صنيع البخارى في صحيحه اذ اقتصر على نزول آيتي الملائكة في غزوة بدر حيث قال (باب قصة غزوة بدر وقول الله تعالى ﴿ ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ،بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة الاف من الملائكة مسومين وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ليقطع الله طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين ﴾ (٢) ثم قال :

(باب قول الله تعالى ﴿ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم إذ يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام إذ يوحي ربك الى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فان الله شديد العقاب ﴾ . (٣)

---

(١) رفتح الباري جـ٧/ ٢٨٥.

(٢) ا. رصحيحه بشرحه فتح الباري جـ٧/ ٢٨٤ كتاب المغازي، آل عمران، آية ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥.

(٣) انظر البخاري بشرحه فتح الباري جـ٧/ ٢٨٦ كتاب المغازي. الانفال، آية ٩، ١٠، ١١، ١٢، ١٣، ١٤.

ويؤيد هذا ما نقله القرطبي في تفسيره (١) عن الشعبي في نزول آية آل عمران حيث قال : بلغ النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يوم بدر أن كرز بن جابر المحاربي يريد أن يمد المشركين فشق ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى المسلمين فأنزل الله تعالى ﴿ ألن يكفيكم أن يمدكم - الى قوله - مسومين ﴾ .

وأيا كان الوضع فالله عز وجل هيأ أسباب النصر لعباده المؤمنين . فأنزل إليهم الملائكة وغشيهم النعاس تثبيتا لهم واطمئنانا لأفئدتهم كما أنزل الله إليهم ما يحتاجون من الماء في طهارتهم ابطالا لما قد يوسوس به الشيطان لهم من حيث عدم تطهرهم من الحدثين وفيما قد جعل الرمال متماسكة حتى لا تسيخ فيها أقدامهم عند التحام المعركة ، بما من الله به من تسديد رمي رسول الله صلى الله عليه وسلم كفار قريش بالحصباء وبعد ذلك كله .يمن الله على عباده المؤمنين بالقاء الرعب في قلوب أعدائه الكافرين فأباح بيضتهم حيث قتل منهم الكثير وسبى منهم عدد كبير فخاض المسلمون معهم في وطيس المعركة وعددهم لا يتجاوز ثلث المشركين لكن إيمانهم الصلب وتثبيت الله لهم وطمأنته لأفئدتهم جعلت المعركة في صالح أولياء الله بالقضاء على أعدائه والغنيمة لأوليائه ،نستدل لذلك بقوله عز وجل ﴿ إذ يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام إذ يوحي ربك

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ج٤/ ١٩٥ .

(٢) سورة الأنفال آية ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ .

الى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين ءامنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار ﴾[1] . ومن قوله ﴿ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى وليبلي المؤمنين بلاء حسنا إن الله سميع عليم ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين ﴾.[1] وهكذا جعل الله الغلبة للمسلمين والمحق على الكافرين وهذا في حد ذاته معجزة عظيمة وحجة قوية على صدق رسالة محمد بن عبدالله فيما أخبر به من وعد بالنصر والظفر من الله فالذين هلكوا قد شاهدوا هذه المعجزة فكانت حجة عليهم . وفي هذه المعركة أيضا رأينا أن النصر كان مع الصابرين رغم قلة العدد والعتاد وما ذلك إلا من تحصيل ركائز النصر التي إن حافظ عليها المؤمنون غلبوا أعداءهم مهما بلغت قوتهم وطالت شوكتهم وذلك أن الله أمر عباده بالثبات عند لقاء العدو ونهى عن الفرار من وجهه وتولي الادبار وجعله من أكبر الكبائر وأخبر أن عقوبة التولي هي غضب الله وسخطه كما قال عز وجل ﴿ يأيها الذين ءامنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير ﴾.[3]

---

(١) سورة الأنفال آية ١١، ١٢، ١٣، ١٤.
(٢) سورة الأنفال آية ١٧، ١٨.
(٣) سورة الأنفال آية ١٥، ١٦.

كما أمرهم سبحانه بالاستمرار في ذكر الله عز وجل بالقول والفعل مع التزام طاعة الله ورسوله فيما يخص المعركة وغيرها ومع جمع الصف وعدم تشتيت الآراء بالتنازع الذى يؤدى الى الفشل والاحباط ورأينا أيضا كيف أن الهزيمة حلت بساحة الذين دأبوا على العناد والطغيان والمفاخرة والرياء فقد خرجت قريش من ديارها إلى بدر بطرا وخيلاء واستكبارا في الأرض ولذلك وقفوا في سبيل نشر الحق بمحاربة رسول الله صلى الله عليه وسلم فباءوا بالخزى والعار وتفرقوا أشتاتا قال عز وجل * يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط *.(١)

موطن الابتلاء في معركة بدر :

١ - ذلك واضح في تجلد المؤمنين وهم أمام قوة تفوقهم في عدد الأفراد وعدد السلاح كما يظهر في مفاجأة المعركة اذ المؤمنون خرجوا وليس في حسبانهم قتال فلم يكونوا مستعدين لمجابهة أعدائهم الذين يفوقونهم في القوة الظاهرة لكن ثبات المؤمنين ومصائرهم وبالتالي عمق ثقتهم بالله كما ظهر في قولتي المقداد ابن عمرو نيابة عن المهاجرين وسعد بن معاذ نيابة عن الأنصار . وهنا يظهر الفرق الشاسع بين خير أمة أخرجت للناس وبين بني اسرائيل الذين كان موقفهم مخزيا حيث عصوا أمر أنبيائهم.

---

(١) سورة الأنفال آية ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ .

٢ - يظهر ذلك أيضا أن الانتصار في المعارك التي تشتعل نارها بين أهل الايمان وأهل الضلال والالحاد يكون الاعتماد فيها على العقيدة الصالحة الخالصة التي يظهر أثرها في فعل الانسان وقوله صحيح أن الاستعداد المادى ضرورى لكن بدون عقيدة صحيحة يتصل صاحبها بالخالق المالك لا يوجد انتصار حقيقي ثابت الجذور في المجتمع الانساني على مدا الأعصار والأزمان.

٣ - التمسك بالصبر المصاحب للتقوى بمعناها الشامل يقلب القوة لصالح أصحاب الحق وبالتالي يتسبب في تتابع الامدادات من الله المعبود بحق ومن هنا لم ينفع كفار قريش الأسباب المادية من حيث نزولهم في أحسن موقع ومن حيث حصولهم على كثير من الآلات الحربية وحتى على الأرض التي كانوا معسكرين عليها كانت صلبة بالنسبة لموقع المسلمين ،وبالتالي كانت العير المحملة بصنوف الامدادات خلف ظهورهم يتوقعون المدد منها في كل لحظة كل ذلك ولم تقم له قائمة ولم يجنوا فائدة أمام صبر المؤمنين وشدة عزيمتهم المنبثقة من عمق إيمانهم بقوة ربهم وخالقهم . هذا ولما رجع المشركون من هذه المعركة بالخيبة والعار وذاقوا شر هزيمة جلبت عليهم المذلة والخزى تأججت في قلوبهم نار النقمة واشتعل في صدورهم أوارها فقرروا الكرة بعد فترة وجمعوا الجموع من جديد وتقاسموا لذلك فيما بينهم الطريف والتليد . وعلى رأسهم أبو سفيان فأعدوا العدة الكاملة طوال سنة وهم يتجهزون بغية محاربة الدين الحق

وأهله كما قال عز وجل ﴿ إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون ﴾ (١)

وهكذا خرج كفار قريش بنسائهم يشجعن مقاتلتهم حتى وصلوا الى جبل أحد مقابل المدينة . وما إن سمع المسلمون بتجمعهم حتى تجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن استشار أصحابه في الخروج أو عدمه ، فأشار عليه الكثير منهم بالخروج إليهم لئلا يظن الكفار أنا جبناء وضعفاء فاستقروا على الخروج إليهم فخرجوا وهم ألف رجل والمشركون ثلاثة الاف وحينما وصل المسلمون الى أحد خذلهم رأس المنافقين ابن أبي فرجع ومعه ثلثمائة رجل فأصبح جيش المسلمين سبعمائة (٢) ، وبرجوع ابن أبي كادت طائفة بني سلمة وبني حارثة تصاب بالخور والتثبيط لولا أن الله ثبتهما كما جاء في صحيح البخارى من حديث جابر رضي الله عنه قال أنزلت هذه الاية فينا ﴿ إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا ﴾ بني سلمة وبني حارثة وما أحب أنها لم تنزل والله يقول ﴿ والله وليهما ﴾. (٣)

فاحتل المسلمون مواقعهم ونظم الرسول صلى الله عليه وسلم صفوفهم كما قال عز وجل ﴿ وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم ﴾ (٤) . وكما جاء في البخارى من حديث البراء رضي الله عنه

---

(١) سورة الانفال آية ٣٦ ، ٣٧.

(٢) انظر البداية والنهاية لابن كثير جـ٤/١٣.

(٣) انظره بفتح البارى جـ٧/٣٥٧ كتاب المغازى باب " اذ همت طائفتان منكم أن تفشلا " .

(٤) سورة آل عمران آية ١٢١.

قال (لقينا المشركين يومئذ وأجلس النبي صلى الله عليه وسلم جيشا من الرماة وأمر عليهم عبدالله وقال لا تبرحوا . ان رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا وان رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا فلما لقيناهم هربوا حتى رأيت النساء يشتددن [١] في الجبل رفعن عن سوقهن قد بدت خلاخلهن فأخذوا يقولون : الغنيمة الغنيمة فقال عبدالله عهد الي النبي صلى الله عليه وسلم أن لا تبرحوا فلما أبوا صرفت وجوههم فأصيب سبعون قتيلا) [٢].

هذا الحديث الكريم يفيدنا أنه لما تقابل الفريقان وبدأت المبارزة واشتد الاحتدام ظهرت الجولة في صالح المسلمين حيث بدأ الكفار يولون أدبارهم وهم كذلك إلى أن خالف الرماة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بنزولهم من اماكنهم يبتغون عرض الدنيا وقال قائلهم : الغنيمة الغنيمة فخرجوا عن وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم - وهو القائد - وتطلعوا الى متاع الدنيا الزائل كما قال عز وجل ﴿ ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الاخرة ﴾ [٣] ومعنى قوله تعالى (تحسونهم) أى تقتلونهم كما نقل عن ابن عباس [٤] وأنشد عليه قول عتبى الليثي :

---

(١) بفتح أوله وسكون المعجمة وفتح المثناة بعدها دال مكسورة ثم أخرى ساكنة معناه يسرعون المشي وقال في النهاية يعدون. الفتح جـ٧ / ٣٥٠ والنهاية لابن الأثير جـ٢/٤٥٢ ، نشر دار الفكر بيروت.

(٢) بشرحه فتح البارى جـ٧/٣٤٩ كتاب المغازى باب غزوة أحد .

(٣) سورة آل عمران آية ١٥٢.

(٤) روح المعاني للألوسي م٢/جـ٤/٨٩ والبيت من الطويل .

نحسبهمُ بالبيض حتى كأننا نفلق منهم بالجماجم حنظلا

وبخروج الرماة من موقعهم حصل لهم الاختبار حيث انسل خالد بن الوليد بجيشه من الجهة التي كان فيها الرماة وانقض على جيش المسلمين فأشيع أن الرسول صلى الله عليه وسلم قتل مما زاد الاضطراب في صفوف المسلمين وحصول الارتباك لدى بعضهم فأصيبوا بغمين : غم ما حل بهم من القتل والجرح وما حصل لهم من الارجاف بقتل النبي صلى الله عليه وسلم وفوت الغنيمة .(١)

وأثناء ذلك يمن الله على المؤمنين بما ثبّت في قلوبهم الطمأنينة والأمن حيث غشيهم النعاس كما جاء في البخارى من حديث أبي طلحة رضي الله عنه قال : " كنت فيمن يغشاه النعاس يوم أحد حتى سقط سيفي من يدى مرارا يسقط وآخذه ويسقط فآخذه ".(٢)

والحالة هكذا مليئة بالرعب والارتباك يثبت الرسول صلى الله عليه وسلم رغم ما أصابه في رباعيته وشج في وجهه وأصيب في شفتيه فينادى في المسلمين إليّ عباد الله إليّ عباد الله ، واستطاع أن يجمع الجيش حوله بعد أن فعل المشركون فعائلهم فمثلوا بقتلى المسلمين وفي مقدمتهم حمزة عم النبي صلى الله عليه وسلم الذى طعنه وحشي من خلفه . وفي هذا الظرف الذى بلغ الغاية في الشدة يظهر نموذج من المسلمين فريد وصل إلى الدرجة العليا في الوفاء بالعهد والثبات على المبدأ وذلك لما شاع خبر قتل النبي صلى الله عليه وسلم وانتهز الفرصة المنافقون

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ١/ ٤١٧ وروح المعاني للألوسي م٢ /جـ٤/ ٩٢ .

(٢) انظره بشرحه فتح البارى جـ٧/ ٣٦٥ كتاب المغازى .

بالتشكيك في نبوته حتى منّ لبعض المسلمين أن يأخذ الأمان من رأس المنافقين ابن أبي. (١) ويظهر أنس بن النضر فيقول : يا قوم إن كان قد قتل محمد فان رب محمد لا يموت وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم قاتلوا على ما قتل عليه وموتوا على ما مات عليه ثم قال : اللهم إني اعتذر إليك مما يقول هوء لاء ثم سل سيفه فقاتل حتى قتل رحمه الله ورضي عنه.

ومر بعض المهاجرين بأنصارى يتشحط في دمه فقال يا فلان أشعرت أن محمدا قد قتل ؟ فقال : إن كان قد قتل فقد بلغ قاتلوا عن دينكم فنزل (٢) قوله تعالى ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإين مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا موء جلا ومن يرد ثواب الدنيا نوء ته منها ومن يرد ثواب الاخرة نوء ته منها وسنجزى الشاكرين وكأين من نبي قاتل معه ربيون (٣) كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين ﴾. (٤)

---

(١) انظر البداية والنهاية لابن كثير جـ٤ / ٢٣ الطبعة الاولى بالمطبعة السلفية.

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ١/ ٤٠٩ والتفسير الكبير للرازى م ٥ /جـ٩/ ٢١

(٣) معناه جموع كثيرة وهو المنقول عن ابن عباس واستشهد له بقول حسان : واذا معشر تجافوا عن القصـ ـد أملنا عليهم ربيبا والبيت من الخفيف . انظر روح المعاني م ٢/جـ٤/ ٨٣ .

(٤) سورة آل عمران آية ١٤٤، ١٤٥، ١٤٦.

موطن الابتلاء في وقعة أحد :

١ - أقول والله أعلم إن انتصار المؤمنين في بدر لا شك أنه من باب النعم وحتى لا يذهب المؤمنون مذهب النسيان لنعم الله أراد الله أن يذكرهم بفضله عليهم فأيقظهم من نشوة الانتصار في بدر ورغم ذلك فان ما حدث في أحد كان بسبب العصيان والمخالفة لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن الرماة هم الذين تركوا الفرصة تسنح للمشركين أن يفعلوا بهم ما فعلوا كما قال عز وجل ﴿ أولما أطابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيء قدير ﴾.(١)

فمخالفة الرماة لوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطينا أن العصيان لأوامر الله ورسوله يجلب على المخالفين الشر والخسران وجميع البلايا .

٢ - ما حدث في أحد أظهر المخلصين في ايمانهم الثابتين على عهودهم ومواثيقهم كما ميز المتخاذلين الذين لم يخالط الايمان قلوبهم كرجوع ابن أبي بثلث الجيش الاسلامي كما ظهر التشكك في بعض المسلمين لما وقعت النكسة ولذلك لما ظهر الأمران أنزل الله النعاس على طائفة المخلصين الصابرين فظهر الذين يثبتون في السراء والضراء وينتفعون بوقائع المحن كما انكشف المنافقون الذين قالوا : ﴿ لو نعلم قتالا لاتبعناكم ﴾ وهم الذين قالوا في شأن إخوانهم الذين قتلوا

---

(١) سورة آل عمران آية ١٦٥ .

* لو أطاعونا ما قتلوا * فنطق المتخاذلون بما كشف عن وهنهم وسوء نيتهم كما قال عز وجل * إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم فأثابكم غما بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون ،ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظـــن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل إن الأمر كله لله يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم (١) الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حليم *. (٢)

وقوله تعالى * وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للايمان يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون الذين قالوا لاخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادرؤوا عن أنفسكم الموت ان كنتم صادقين *. (٣)

٣ - ما أصاب المؤمنين كان من باب التربية والتهذيب والتمحيص بالمحن وإلا فما وقعوا فيه لا ينقص من مجدهم ولا يحط من قدر دينهم شيئا وبالتالي لا يدل على خسرانهم يبين ذلك أنهم

---

(١) المراد أنهم اتبعوا وسوسة الشيطان حينما دعاهم الى الزلل.
(٢) سورة آل عمران آية ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥.
(٣) سورة آل عمران آية ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨.

يقاتلون من أجل الحق ،أما المشركون فانهم يقاتلون من أجل الباطل كما قال عزوجل ﴿ الذين ءامنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا ﴾.(١)

ولذلك ما يصاب به أهل الايمان من شدائد يقصد منه التمحيص والمران على تحمل الشدائد وليكرم الله عباده المؤمنين بدرجات عليا جعل الوصول إليها عن طريق الاستشهاد في سبيله فلولا الاستشهاد ما أكرم الله الذين ماتوا في غزوة أحد بتلك المنازل ،ولذلك حينما يتعمق الانسان في حب لقاء الله وتتطلع نفسه لتلك المنازل يلقى كل شيء وراءه ويظهر هذا النموذج فيما رواه البخارى من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال:"قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد : أرأيت إن قتلت فأين أنا ؟ قال : في الجنة . فألقى ثمرات في يده ثم قاتل حتى قتل "(٢) ،إذن فما يصيب المؤمن من محن لا يحط من قدره بل إن درجاته ترفع بتلك البلايا ولذلك ينهى الله عباده المؤمنين الذين يتعرضون للمحن عن الاتصاف بالضعف والحزن لأن ما أصابهم لم يكن بأكثر مما أصاب أعداءهم غير أن العاقبة تختلف ،فللمؤمنين الجنة التي لا يحصى نعيمها ،وللكافرين النار كما قال عزوجل ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين ءامنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين ، وليمحص

---

(١) سورة النساء آية ٨٦.

(٢) انظره بشرحه فتح البارى لابن حجر جـ٧/ ٣٥٤ كتاب المغازى باب غزوة أحد .

الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾.[(١)]

ويحسن بنا أن ننقل من الظلال[(٢)] في هذا المقام ما معناه أن الله يربى بالابتلاء بالشدة بعد الابتلاء بالرخاء وبمرارة الهزيمة بعد الاختبار بالنصر فتتضح أسباب النصر وأسباب الهزيمة فيزداد المؤمنون طاعة وتوكلا على الله وتماسكا بجانبه واحتماء بركنه .

وما كاد ينتهي صلى الله عليه وسلم من موقعة أحد حتى أخذ المرجفون في المدينة يشككون في نبوة النبي صلى الله عليه وسلم ويظهر ذلك في العدو الثنائي من الداخل إذ كان الذين واجههم النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة من المحاربين للدعوة :

١ - اليهود بطوائفهم الثلاثة : بني قينقاع ،وبني النضير وبني قريظة وهؤلاء جميعا عاهدوا النبي صلى الله عليه وسلم على أن لا يحاربوه ولا يمالئوا عليه أحدا .

٢ - قبائل من العرب بعضهم كان ينتظر ظهوره على أعدائه كخزاعة وبعضهم كان ينتظر القضاء عليه كبني بكر . وبعضهم كان يظهر المعية للنبي صلى الله عليه وسلم في الظاهر ويخفي العداوة في الباطن وهم المنافقون .

أما اليهود فقد عانى منهم المسلمون منذ قدومهم المدينة أشد البلايا ورغم أن اليهود من طبائعهم أنهم في عمل دءوب على إفساد المجتمعات الانسانية بحيث يرون أنهم خير البشرية

---

(١) سورة آل عمران آية ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ .

(٢) جـ١/ ٤٧٥ ط/ ونشر دار الشروق جدة .

وأنهم الشعب المختار ولذلك هم في إفساد دائم لبني الانسان إلا أنهم في سبيل محاربة الاسلام كانوا يتوددون للمنافقين في المدينة قصد إضعاف شوكة الاسلام واستئصالها وحينما سنعرض مواقفهم مع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه سنعلم عمق عداوتهم لرسول الاسلام وحقدهم الذى لا يفتر ولا يكل ولا يمل ما دام منصبا على هدم ركائز الاسلام ولذلك لما رجع صلى الله عليه وسلم من موقعة بدر دعا يهود بني قينقاع وحذرهم إن لم يؤمنوا فسيحل بهم ما حل بقريش يوم بدر وما كان منهم إلا أن ردوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بلهجة مليئة بالصلف والتشنج فقد نقل عن ابن عباس وعاصم بن عمر بن قتادة قولهما [1] (إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أصاب من أهل بدر ما أصاب ورجع إلى المدينة

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه قال حدثني مصرف بن عمرو الايامي أخبرنا يونس - يعني ابن بكير - قال أخبرنا محمد بن اسحاق حدثني محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت عن سعيد بن جبير وعكرمة عن ابن عباس .
سنن أبي داود بشرحها عون المعبود . كتاب الفيء والخراج والامارة . باب كيف كان اخراج اليهود من المدينة جـ٨/ ١٣٠ نشر دار الفكر بيروت . وفي سنده يونس وصفه في التقريب بأنه يخطيء جـ٢/ ٣٨٤ . ط الثانية ١٣٩٥ وقال ابن أبي حاتم نقلا عن ابن معين : كان صدوقا . الجرح والتعديل جـ٩/ ٢٣٦ وانظر تاريخ ابن معين جـ٢/ ٦٨٧ فقد وصفه بأنه ثقة مرة أخرى وفيه أيضا محمد بن اسحاق صدوق يدلس ورمي بالتشيع والقدر كما قال ابن حجر في التقريب جـ٢/ ١٤٤ ط/ الثانية ١٣٩٥هـ ، وجعله ابن حجر في الرابعة من المدلسين . كتاب تعريف أهل التقديس ص ١٣٢ نشر دار الكتب العلمية بيروت. ووصفه ابن معين في تاريخه بأنه ثقة لكن ليس بحجة . تاريخ ابن معين جـ٢/ ٥٠٤

===

جمع اليهود في سوق بني قينقاع وقال يا معشر يهود أسلموا قبل أن يصيبكم الله بما أصاب قريشا فقالوا يا محمد لا يغرنك من نفسك أن قتلت نفرا من قريش كانوا أغمارا لا يعرفون القتال إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أننا نحن الناس وأنك لم تلق مثلنا فأنزل الله في ذلك ﴿ قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد ، قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار ﴾ (١) وهم الذين نزل فيهم أيضا قوله تعالى ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين ﴾ (٢) وذلك فيما رواه ابن جرير (٣) بسنده عن عطية بن سعد (قال جاء عبادة بن الصامت من

== ط/ الاولى . وفيه محمد مولى زيد وصفه ابن حبان بأنه ثقة وقال في التقريب مجهول جـ٢/ ٢٠٥ . انظر كتابه الثقات جـ٧/ ٣٩٢ ط/ الاولى حيدرآباد وباقي رواته ثقات. ورواية عاصم انظرها في تفسير ابن كثير جـ١/ ٣٥٠ نشر مكتبة دار التراث القاهرة وانظر أسباب النزول لابي الحسن علي بن أحمد الواحدى ص ٦٢ نشر مؤسسة الحلبي القاهرة.

(١) سورة آل عمران آية ١٢ ، ١٣ .

(٢) سورة المائدة آية ٥١ ، ٥٢ .

(٣) يقول حدثنا أبو كريب قال ثنا ابن ادريس قال سمعت أبي عن عطية بن سعد . جامع البيان جـ١٠/ ٣٩٥ نشر دار المعارف مصر

===

بني الحارث بن الخزرج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إن لي موالي من يهود كثير عددهم وإني أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود وأتولى الله ورسوله فقال عبدالله بن أبي إني رجل أخاف الدوائر لا أبرأ من ولاية موالي . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبدالله بن أبي يا أبا الحباب ما بخلت به من ولاية اليهود على عبادة بن الصامت فهولك دونه قال قد قبلت فأنزل الله الآية الآنفة الذكر".

وهكذا يظهر تحالف اليهود والمنافقين على محاربة الاسلام. فرأس المنافقين يتولى حماية بني قينقاع فيكشف ما كان مكنونا في قلوبهم من مرض النفاق وهم الذين كانوا يقسمون أنهم مع المؤمنين كما قال عز وجل ﴿ ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم انهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين ﴾.(١)

وبذلك نقض بنو قينقاع العهد وخانوا حينما هددوا بالحرب وسار على دربهم بنو النضير إذ سلكوا طريق الغدر وشدوا على محاربة رسول الله صلى الله عليه وسلم العزم حينما قرروا قتله بالقاء صخرة من فوق عليه وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم ذهب إلى ديارهم ليؤدوا ما عليهم من نصيب في دية الرجلين اللذين قتلهما أحد المسلمين خطأ

=== وفيه عطية وصفه في التقريب بقوله صدوق يخطيء ويدلس . جـ٢/٢٤ ط/ الثانية ١٣٩٥هـ وقال فيه يحيى بن معين لما سئل عن حديثه قال صالح . تاريخ ابن معين جـ٢/٤٠٧ . وجعله ابن حجر في المرتبة الرابعة من المدلسين انظر كتابه تعريف أهل التقديس ص ١٣٠ نشر دار الكتب العلمية بيروت . وباقي رواته وصفهم في التقريب أيضا بالثقات . وانظر أيضا أسباب النزول للواحدى ص ١٣٢ نشر موسسة الحلبي القاهرة.

(١) سورة المائدة آية ٥٣ .

من بني عامر الذين كان بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم عهد وأمان ولم يكن يعلم الرجل الذى قتلهما بذلك فتحمل صلى الله عليه وسلم ديتهما .

وهكذا لما وصل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ديارهم بخصوص أخذ ما يجب عليهم دفعه انتهزوافرصة وجوده فتئامروا على قتله حيث ندبوا أحدا ليلقى على الرسول صلى الله عليه وسلم - فداه أبي وأمي - حجرا من فوق الجدار الذى يجلس بجانبه فأخبره جبريل بذلك فنهض وأقبل على المسلمين وأخبرهم بغدربني النضير وأمرهم بالتهيىء للخروج إليهم فأحلوا بساحتهم الخراب والدمار رغم أنهم تحصنوا بحصون ظن المسلمون أنهم لا يخرجون منها ،فألقى الله في قلوبهم الرعب وبدءوا يخربون حصونهم من داخلها وهنا يظهر تخالف المنافقين مرة أخرى مع اليهود حيث أرسلوا إليهم يحضونهم على محاربة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبأن لا يخرجوا من ديارهم ووعدهم بالحماية وأنهم لا يتركون محمدا يخرجهم حتى يخرجوا هم معهم/ أيضا كما كشف الله عن ذلك في قوله :

* ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لاخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحد أبدا وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله ذلك بأنهم لا يفقهون ،لا يقاتلونكم جميعا إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم لا يعقلون * (١)

---

(١) سورة الحشر آية ١١ ،١٢ ،١٣ ،١٤ .

وقد كشف الله في هذه الايات جبن الفريقين وهلعهم وما هم عليه من العداوة فيما بينهم والتفرقة التي حلت في قلوبهم فحاصرهم صلى الله عليه وسلم حتى استسلموا للخروج بشرط أن لا يحملوا معهم سلاحا. فجعل الله سلاحهم وديارهم وأموالهم غنيمة للمسلمين كما أخبر سبحانه في قوله : ﴿ هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ولهم في الاخرة عذاب النار ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فان الله شديد العقاب ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فباذن الله وليجزى الفاسقين ﴾.(١)

ولم يهدأ لبني النضير شأن أو يستقر لهم قرار أو يسكن لهم جناب حتى بدأت جموعهم منطلقة تؤلب القبائل على محاربة النبي صلى الله عليه وسلم وتغرى أعداءه عليه فاجتمعت قريش وغطفان واليهود ومن تبعهم حتى صاروا في جمع عظيم وتحزب كبير واستمال اليهود قريشا حينما قالوا لهم دينكم خير من دين محمد وأنتم أهدى منه ومن اتبعه (٢) فأنزل الله تعالى ﴿ ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا ﴾.(٣) فلما قال اليهود ذلك لقريش

---

(١) سورة الحشر آية ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥.

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ١ / ٣١٥ وأسباب النزول للواحدى ص١٠٣ نشر مؤسسة الحلبي وشركاه القاهرة .

(٣) سورة النساء آية ٤٤ ، ٤٥.

نشطت قريش لدعوى اليهود بمقاتلة المسلمين فاجتمعوا وتواعدوا لذلك فخرجت قريش وقائدهم أبو سفيان وغطفان وقائدهم عيينة بن حصين. فتلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر القوم وتأهب لمقابلتهم وأمر المسلمين بحفر الخندق وأثناءها يفاجيء بنو قريظة المسلمين بنقض العهد فأحاطت الأحزاب بالمسلمين من فوقهم ومن أسفل منهم فعظم الكرب واختلفت الظنون واشتد الخوف وبلغ الفزع منهم مبلغه حتى اضطر المنافقون الى كشف حقيقتهم بعدم تصديقهم ما يخبر به صلى الله عليه وسلم من فتح للأمصار فيما يأتي من الزمن حتى قال قائلهم :(كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا لا يقدر على أن يذهب إلى الغائط)[1] وبدأت تنكشف عوراتهم . وبعضهم نادى بالرجوع الى المدينة وبعضهم سلك سبل الخداع والمراوغة فتعللوا راجعين بحماية بيوتهم من الأعداء فظهر أنهم أقرب إلى الكفر من الايمان فلو جاءهم الكفار إلى بيوتهم وطلبوا منهم الدخول في الكفر لفعلوا وما دروا أن ما فروا منه وهو الموت ليس عنهم ببعيد فلا عاصم إذن من الله إلا اللجوء اليه وامتثال أوامره . فالنجاة من عذاب الله وعقابه هو التمسك بطاعته وهديه والفرار إليه.

فكشف الله أمر المنافقين ، فهم في السلم يدّعون الشجاعة وفي النصر يحرصون أشد الحرص على أن يعطوا من الغنيمة لكن عند الشدة والبأساء جبناء متخاذلون مرجفون يتولون وقت الزحف متربصون

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٣/ ٤٧٢.

بالموء منين الهزيمة ويقبلون عند توزيع الغنائم . ذلك ما أخبر به عز وجل في قوله : ﴿ يأيها الذين ءامنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاء تكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم واذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا هنالك ابتلى الموءمنون وزلزلوا زلزالا شديدا وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فرارا ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لأتوها وما تلبثوا بها إلا يسيرا ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسئولا قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا لا تمتعون إلا قليلا قل من ذا الذى يعصمكم من الله إن آراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لاخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير أولئك لم يوءمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وإن يأت الاحزاب يودوا لو أنهم بادون في الأعراب يسئلون عن أنبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا ﴾.(١)

---

(١) سورة الأحزاب الايات من ٩ - ٢٠ .

هذه الحالة هي التي دأب عليها المنافقون كلما قامت معركة لتقوية شوكة الاسلام وانتشاره بين الناس يعملون على تثبيط المسلمين لئلا يلتحقوا بالجهاد . فينشرون البلبلة والارجاف في صفوف المسلمين كما يظهر ذلك في النداء الالهي للذين ءامنوا محذرا إياهم من مكائد المنافقين المندسين بين صفوف المسلمين ﴿ يأيها الذين ءامنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعا وإن منكم لمن ليبطئن فان أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله علىّ إذ لم أكن معهم شهيدا ولئن أصابكم فضل ليقولن كأن لم يكن بينكم وبينه مودة يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزا عظيما ﴾ . (١)

وكذلك موقفهم حينما تخلفوا في غزوة تبوك واستأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في التخلف مع أن الحقيقة أنهم كاذبون في استئذانهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ هم ليسوا بمؤمنين ولو كانوا مؤمنين ما استأذنوا في التخلف عن الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن المؤمن يرى الجهاد قربة إلى الله فيبادر إلى مرافقة رسول الله صلى الله عليه وسلم لكن المنافقين لما كانوا في شك من الايمان لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء لم يريدوا الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ابتداء وبالتالي فخروجهم مع جماعة المؤمنين لقتال الكافرين لا يزيد المسلمين الا محنة وفتنة ولذلك ثبطهم الله عن الخروج إذ ليس في خروجهم إلا الفساد والشر والوقيعة في صفوف المسلمين لا سيما أن من

---

(١) سورة النساء آية ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ .

بين المسلمين من يغتر بهم فيثق في أقوالهم كما جاء في قول الله عز وجل ﴿ إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الاخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون ﴾.(١)

هكذا كان المنافقون ،ثلمة عظيمة في جنب المسلمين نظرا لأن ظاهرهم الاسلام وباطنهم الكفر والجحود ومن كان كذلك كانت فتنته أخطر ونكايته أشد وأبلغ . بينما كان المؤمنون حينما يأتي وقت الشدة يزدادون عزما ويكونون أصلب عودا وأقوى ايمانا لأن المؤمن يعتقد عندما يبلغ درجة عليا من الايمان أن الامتحان سنة جارية بل هو علامة على تأصل الايمان في القلوب فكلما كان البلاء قاسيا كان دليلا على تعمق الايمان في القلوب.

فالمؤمنون في الأحزاب لما اشتد بهم الخطب ودهمهم العدو وأحاطت بهم الجيوش من الداخل والخارج عرفوا أنه الاختيار الذى جعله الله سنة لتمييز أهل الايمان من غيرهم فازدادوا انقيادا

---

(١) سورة التوبة آية ٤٥ ،٤٦ ،٤٧ ،٤٨ ،٤٩ ،٥٠ .

وتسليما لأوامر الله كما قال عز وجل ﴿ ولما رءا المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفورا رحيما ﴾.(١)

وكما جاء في صحيح البخارى من حديث أنس رضي الله عنه يقول:

(خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الخندق فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم فلما رأى ما بهم من النصب قال : اللهم إن العيش عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة فقالوا مجيبين له :

نحن الذين بايعوا محمدا على الجهاد ما بقينا أبدا .(٢)

وما رواه مسلم في صحيحه من حديث ابراهيم التيمي عن أبيه قال كنا عند حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال له رجل لو أدركت رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلت معه وأبليت فقال له حذيفة أنت كنت تفعل ذلك لقد رأيت مع رسول الله ليلة الأحزاب في ليلة ذات ريح شديدة وقر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أرجل يأتي بخبر القوم يكون معي يوم القيامة فلم يجبه منا أحد ثم الثانية ،ثم الثالثة مثله ثم قال صلى الله عليه وسلم : يا حذيفة قم فائتنا بخبر القوم فلم أجد بدا إذ دعاني باسمي أن أقوم فقال : ائتني بخبر القوم ولا تذعرهم (٣) علي

---

(١) سورة الأحزاب آية ٢٣ ، ٢٤ .

(٢) انظره بشرحه فتح البارى جـ٧/ ٣٩٢ كتاب المغازى باب غزوة الخندق والبيت من الرجز.

(٣) معناه لا تفزعهم بل تحين في مشيك حتى لا يعلموا بك ،انظر النهاية لابن الأثير جـ٢/ ١٦١ .

قال فمضيت كأنما أمشي في حمام (١) حتى أتيتهم فاذا أبو سفيان يصلى (٢) ظهره بالنار فوضعت سهما في كبد قوسي وأردت أن أرميه ثم تذكرت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تذعرهم علي ولو رميته لأصبته قال فرجعت كأنما أمشي في حمام فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أصابني البرد حين فرغت قررت (٣) فأخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) وهكذا ابتلى المؤمنون فازدادوا ايمانا وصلابة وظهر المنافقون فانكشفوا وباءوا بالذلة والهوان وانهزم الكافرون فسلط الله عليهم ريحا شتت جمعهم فرجعوا خائبين كما سلط الله عليهم جنودا من الملائكة فألقوا في قلوبهم الرعب والفزع حتى ارتحلوا مكرهين كما قال عز وجل ﴿ ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا ﴾ (٥) فرجع المؤمنون وقد كفاهم الله القتال فأعز جنده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده .

---

(١) مشدد الميم واحد الحمامات المبنية كما قال الشاعر :

نهيتهما عن نورة أحرقتهما وحمام سوء ماؤه يتسعر

لسان العرب جـ٢/١٠٠٨ مادة حمم نشر دار المعارف مصر .

والمراد انه لم يجد البرد الذى يجده الناس من تلك الريح الشديدة شيئا بل عافاه الله منها . انظر شرح النووى لمسلم جـ١٢/١٤٦ الجهاد باب غزوة الأحزاب .

(٢) أى يعرضه لحرها من شدة ما يجد من برد شديد من قولهم صلى يصلى النار أى وجد حرها من باب تعب . المصباح المنير جـ١/٤٠٩ مادة صلى نشر دار الفكر ببيروت .

(٣) بضم القاف وكسر الراء بردت أى لما سكنت وجدت مس البرد . النهاية جـ٤/٣٨ .

(٤) صحيح مسلم بشرحه النووى كتاب الجهاد والسير باب غزوة الأحزاب جـ١٢/١٤٥ نشر دار احياء التراث العربي .

(٥) سورة الاحزاب آية ٢٥ .

وما إن وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم السلاح حينما قفل من وقعة الأحزاب حتى جاء الأمر بالخروج إلى يهود بني قريظة الذين نقضوا العهود التي كانت بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ومالئوا الأحزاب على محاربة رسول الله صلى الله عليه وسلم كما جاء في صحيح البخارى من حديث عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت لما رجع النبي صلى الله عليه وسلم من الخندق ووضع السلاح واغتسل أتاه جبريل عليه السلام فقال : قد وضعت السلاح والله ماوضعناه فاخرج اليهم قال : أين ؟ قال ها هنا وأشار الى قريظة فخرج النبي صلى الله عليه وسلم إليهم "(١) فأمر المسلمين بالخروج إليهم وحثهم على الاسراع إلى مقابلتهم حيث قال فيما رواه البخارى في صحيحه من حديث ابن عمر رضي الله عنه قال " قال النبي صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب لا يصلين أحد العصر الا في بني قريظة فأدرك بعضهم العصر في الطريق فقال بعضهم لا نصلي حتى نأتيهم ،وقال بعضهم : بل نصلي لم يرد منا ذلك فذكر للنبي صلى الله عليه وسلم فلم يعنف(٢) واحدا منهم ".(٣)

فخرج إليهم رسول الله في جيش المسلمين وحاصرهم خمسا وعشرين ليلة فلما طال عليهم الحال واشتد عليهم الأمر نزلوا على حكم

---

(١) ، بشرحه فتح البارى جـ٧/٤٠٧ كتاب المغازى باب مرجع النبي صلى الله عليه وسلم من الأحزاب .

(٢) معناه لم يلم أحدا من الفريقين أو يعاتب عليه . انظر النهاية لابن الأثير جـ٣/٣٠٩ نشر دار الفكر ببيروت والمصباح المنير جـ٢/٥١٦ نشر دار الكتب العلمية ببيروت.

(٣) ، بشرحه فتح البارى جـ٧/٤٠٨ كتاب المغازى باب مرجع النبي صلى الله عليه وسلم من الأحزاب .

سعد بن معاذ رضي الله عنه سيد الأوس وذلك لأن بني قريظة كان الأوس حلفاءهم في الجاهلية [١] فظنوا أن سعدا سيحابيهم ويحكم فيهم بما يبقيهم وهم الخائنون بنقضهم العهد فأرادوا طعن المسلمين من حيث لم يكونوا يحتسبون فحكم فيهم سعد بما حكم الله فيهم من فوق سبع سموات كما أخبر الصادق المصدوق فيما جاء في صحيح البخارى من حديث أبي سعيد الخدرى رضي الله عنه بقوله :

(نزل أهل قريظة على حكم سعد بن معاذ فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم الى سعد فأتا على حمار فلما دنا من المسجد قال للأنصار قوموا الى سيدكم - أو الى خيركم - فقال : هؤلاء نزلوا على حكمك فقال : تقتل مقاتلتهم وتسبى ذراريهم ، قال : قضيت بحكم الله. وربما قال بحكم الملك) [٢] وفعلا يتم القضاء على زمرة الخيانة والحقد بالقتل والأسر وأخذ أموالهم غنيمة للمسلمين كما أخبر سبحانه بذلك في قوله : ﴿ وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم [٣] وقذف في قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها وكان الله على كل شيء قديرا ﴾. [٤]

---

(١) انظر البداية والنهاية لابن كثير جـ٤/١٢١.

(٢) انظره بشرحه فتح البارى جـ٧/٤١١ كتاب المغازى .

(٣) معناه من حصونهم جمع صيصة وهي كل ما يمتنع به. انتهى من روح المعاني للألوسي م٧ / جـ٢١/١٧٥ وانظر معاني القرآن للفراء جـ٢/٣٤٠ ط / الثالثة ١٤٠٣هـ .

وبهذا نتأكد من أن أمة محمد صلى الله عليه وسلم تمتاز عن غيرها من الأمم السالفة بالأمانة حيث بلغت أعلى قمة في الصبر والثبات لتأدية الأمانة التي تحملها الانسان حينما جعله الله خليفة في الأرض ظهر ذلك في استعراضنا لتلك المواقف التي بينت أن الايمان هو تحمل للشدائد وصبر على الامتحانات المزلزلة فلقد كانت - حقيقة - الأمة المحمدية خير أمة أخرجت للناس فهي أحق بتولي قيادة البشرية إذ كان فوزها في الابتلاء وكل ما امتحنت به يجعلها جديرة بتولى المحافظة على أمانة الخلافة في الأرض لأنه مما لا ريب فيه عند المنصفين أن جميع النحل والمعتقدات سوى عقيدة الاسلام كان أصحابها مذبذبون يفزعون عند الشدة ينسون أنفسهم عند الرخاء .

موطن الابتلاء في غزوة الأحزاب :

١ - كشفت وقعة الأحزاب للمسلمين عن أعدائهم المنبثين بينهم من اليهود والمنافقين حيث تحالفوا مع القبائل المتحزبة لمحاربة المسلمين كبني قريظة الذين كانت بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهود ا فنقضوها لما اشتد الأمر بالمسلمين وذلك بتعاونهم مع الأحزاب ومساعدتهم على محاربة المسلمين . وكارجاف المنافقين ببث الرعب والخوف وذلك فيما سلكوه من التكذيب لما وعد به الرسول أصحابه من النصر ومن أخذ كنوز كسرى وقيصر وفيما سلكوه من ايقاع الضعف والوهن في صفوف المسلمين باستئذانهم الرسول صلى الله عليه وسلم في الرجوع لحماية بيوتهم ختلا وخداعا حيث قالوا : * إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن

يريدون الا فرارا ﴾[1] فانكشف أمر المنافقين ليأخذ المسلمون حذرهم فيما قد يأتي من مواقع وغزوات تستدعي قتالا وتضامنا بين المسلمين لمجابهة أعداء الدين بحيث لا يتركون مجالا للمنافقين ينشرون من خلاله التثبيط بين جماعات المسلمين .

٢ - ظهر خداع اليهود بنقضهم المواثيق التي بينهم وبين الرسول صلى الله عليه وسلم ، بتكشيرهم عن أنياب البغض والعداوة في وقت تجمعت فيه القبائل وتحزب بغاة الظلم والفساد . فأباح الله بيضتهم وسلط جنده عليهم فأبادوهم بالقتل والأسر وجعل الله أموالهم غنيمة لجند الحق وأئمة الهدى والعدل فانتصرت كلمة الحق وعلت راية الايمان بانهزام الأحزاب وبذلك تميز أهل الايمان من أهل الكفر فثبت المؤمنون الذين صدقوا في ايمانهم في حالة تكالبت فيها عليهم الأعداء وأحاطت بهم الجموع ، اليهود والمنافقون بالطعن والغدر والكيد من داخل صفوفهم والكفار من خارج حدود مدينتهم حتى هلعت قلوب بعض منهم وذلك عندما عظم الكرب أمامهم واشتد البلاء فكان المؤمنون في قمة الثبات حيث ظنوا أن ما هم فيه من شدة هي ابتلاء لبيان مقدار جهادهم ومدى صبرهم عندما يكون الحمل ثقيلا والخطب أليما . كما أن الكفار تميزوا بالخذلان والمقت فباءوا بالهلاك والدمار في الدنيا وبالخلود يوم القيامة في النار.

٣ - أظهر الابتلاء في هذه الوقعة أيضا أن النصر أو

---

(١) سورة الأحزاب آية ١٣ .

الانهزام ليس بالكثرة في العدد والعدة وانما النصر من عند الله ، فهو وحده الذى يمن بالنصر والتأييد . صحيح أن الله ربط الأسباب بمسبباتها فلا بد من الاستعداد بما هو في العادة من أسباب النصر ، إلا أن القوة المادية بدون تأييد الله لا تغنى شيئا. وهذه حقيقة مقررة في عدة غزوات كحنين التي أعجب بعض المسلمين فيها بكثرتهم وذلك أن بعض القبائل من هوازن وثقيف لم يسرهم انتصار المسلمين بفتح مكة فجمعوا الجموع وأقبلوا بقضهم وقضيضهم (١) حتى نزلوا حنينا على بضعة أميال من مكة من جهة عرفة يريدون قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولما سمع المسلمون بذلك قال قائلهم : لن نغلب اليوم من قلة (٢) فكانت الهزيمة لما انشغل المسلمون بالغنائم كما جاء في الخبر الذى رواه البراء (٣) حينما سأله رجل من قيس أفررتم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين . فقال البراء ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفر وكانت يومئذ رماة وانا لما حملنا عليهم انكشفوا فأكببنا على الغنائم فاستقبلونا بالسهام ولقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم على بغلته البيضاء وان أبا سفيان بن الحارث أخذ بلجامها وهو يقول : "أنا النبي لا كذب ،أنا ابن عبد المطلب" ،فمن نص هذا الحديث يظهر أن الكثرة من المسلمين خرجوا طامعين في

---

(١) أى بالكبير والصغير انظر النهاية لابن الاثير جـ٤/ ٦٦.

(٢) انظر سيرة ابن هشام جـ٢/ص ٤٤٤ ط / الثانية ١٣٧٥هـ.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه انظره بشرح النووى ، كتاب الجهاد والسير باب غزوة حنين جـ٣/ص ١٢١.

الغنائم فوقع الذعر في سائر الجيش وغزا الرعب قلوب المسلمين كما قال عز وجل ﴿ ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم ﴾(١) ولما رأى الرسول صلى الله عليه وسلم المسلمين مذعورين دعا العباس وأمره أن يهتف بالأنصار فنادى يا معشر الأنصار يا أصحاب السمرة(٢) هذا رسول الله يدعوكم فتجمع القوم نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعاد صفوفهم بعد أن ابتلوا أول الأمر حيث ظهر اندفاعهم نحو الغنيمة فعرفوا خطأهم وأدركوا أن الغرور بالكثرة مع الغفلة عند المدد من الله يوقع في الهزيمة . عقبها أمدهم الله بجنود من الملائكة من عنده(٣) فانتصروا على أعدائهم وانقلبت الهزيمة الى نصر وولت هوازن وأحلافها تاركة للمسلمين اسلابها(٤) وغنائمها. وهذا يعطينا أن المسلمين حينما يخلصون في الالتجاء إلى الله ينصرهم على عدوهم مهما بلغ من القوة والتجمع وكذلك في غزوة تبوك لم تجد كثرة جيش بني الأصفر في مقابلة صبر المؤمنين رغم ما كانوا فيه من الشدة وقلة العدد والعتاد .

---

(١) سورة التوبة آية ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧.

(٢) شجرة الرضوان التي وقعت تحتها البيعة.

(٣) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ٢/٣٤٥ نشر دار التراث القاهرة.

(٤) هو ما يؤخذ من سلاح وثياب ودابة وغيرها من المحاربين . انظر النهاية لابن الأثير جـ٢/٣٩٧.

وذلك أنه ما إن استتب أمر المسلمين بعد الفتح العظيم لمكة حتى بدأ أعداء الاسلام من خارج الجزيرة يعدون عدتهم للغزو ومن أجل ذلك حشد الروم جيوشهم وهم أقوى ما يكونون في العدة والعدد ، فلما بلغ الأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بالتهيء لمقابلتهم، رغم بعد السفر وطول الشقة . استطابت نفوس المسلمين للجهاد واستعدوا للبلاء ولو كان في وقت اشتداد الحر وانتشار لفح الهاجرة وقرب جني الثمار وحصاد الزرع . فظهر المؤمنون الصادقون وتميز المذبذبون .

فمن خالجت نفسه التقوى لم يبال في تحمل مشاق الجهاد صيفا وشتاء ولا حرا وقرا . ولذلك ما إن دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الخروج الى غزوة تبوك حتى سارع المؤمنون باحضار أموالهم وأنفسهم بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأما المذبذبون الحائرون بين الايمان والكفر ما إن سمعوا بالدعوة الى الجهاد حتى تجشموا الشقة وخالفوا الدعوة وأرجفوا بسوء العاقبة والمصير فحاولوا أن يخذلوا المسلمين فلم ينجحوا وأرادوا تثبيطهم عن العزم فلم يفلحوا بحيث صبر المؤمنون فلاقوا ما لاقوه من شدة في الأمر في سنة مجدبة وحر شديد وعسر من الزاد والماء حتى لقد كان الرجلان يشقان التمرة بينهما ،وحتى كاد بعضهم يرتاب للذى نالهم من المشقة والشدة في سفرهم وغزوهم كما قال عز وجل ﴿ لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والانصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد

ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم انه بهم رءوف رحيم *. (١)

تاب عليهم حيث قد استثقلوا التحمل في وقت تجمعت فيه عليهم أنواع الشدائد ، شدة القيظ والقحط ، بعد المسافة مع الحاجة الى الاستعداد الكثير الزائد على ما جرت به العادة في سائر الغزوات لمقابلة عسكر الروم كما أخبر سبحانه في قوله * يأيها الذين ءامنوا مالكم اذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم الى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة الا قليل الا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئا والله على كل شيء قدير *. (٢)

---

(١) سورة التوبة آية ١١٧.

(٢) سورة التوبة آية ٣٨ ، ٣٩.

الخاتمة

الخاتمـــــــــــة

وبعد :

فالحمد لله الذى من علي باتمام هذه الرسالة المباركة بعونــه تعالى وتوفيقـه والتي يستفاد منها :

١ - أن هذا الموضوع تناول قضيـة العلم بها ضرورة في حياة المؤمن إن لم نقل بضرورة معرفتها للانسان عموما .

يؤيد هذا أن الباحث المنصف فيما يتعلق بتوضيح معانـــــي كتاب الله الكريم لا شك أنه يعترف بانطـلاقـة أى موضوع في هذا الباب من معاني الابـتلاء ، فمن الممكن جدا استطاعـة ربط معاني أى موضوع يتعلق بالتفسير بمعنى الابتلاء وذلك أن الله العليم الخبير اقتضــــت حكمته وارادته الكونية أن يكون الابتلاء طريقا لاظهار موقف المكلف مـن الأوامر والنواهي التي تعبدنا الله بها على وجه الاختيار فكان الخلـق للابتلاء وسيلة لاظهار نتيجة الخلق للعبادة فكل من الخلق للابتلاء والخلق للعبادة لازم للآخر ومكمل له فمن اهتدى واتبع طريق الحق له العاقبة الحسنى ،ومن كابر وجحد كان في عداد من تم خلقه للنار .

٢ - الخالق سبحانه في كل ذلك غني عمن سواه ،له الكمـــال التام في صفاته وأفعاله يفعل ما يشاء في ملكه وهو العليم والحكيم في كل فعل يريده وينشئه.

يخلق الأشياء لا لنقص يكمل به ذلك الخلق ،ولكن يخلــــق اظهارا للكمال المطلق والحكمة البالغة اذ هو العليم بدقائق الأشيـــاء وأسرارها ـ علما أزليا ـ قبل خلقها .

٣ - من تلك الأشياء أن الله ابتلى الانسان من خلال ارادته الكونية ليميز بين عباده في الطاعة والمعصية فيظهر للعيان من استجاب للأمر بالعبادة ومن تنكب سبيل الهدى فأعرض عن الحق واتخذ الشيطان وليا . كما قال تعالى ﴿ فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة ،إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون ﴾ (١) .

٤ - اظهار ذلك من كرم الله عز وجل على الانسان وذلك أنه بالابتلاء يعطي المستقيم حقه موفورا ويجازى الجاحد بالعدل على كفرانه .

٥ - من طريق الابتلاء أدرك الانسان أن له قيمة التكريم على غيره ممن خلقه الله حيث جعل له حرية الاختيار فيما يريده .

٦ - الابتلاء يجعل الانسان يأخذ ويعطي وهذا أيضا شيء يجعل للحياة التي أراد الله استمرارها فوق هذه البسيطة حركة دائمة ينتفع الانسان من معطياتها في حياته ليصل من خلال تحركه ذلك - ان استقام - الى طريقة الفوز في دار الجزاء .

٧ - الانسان من نظره البعيد في تقلبات الحياة يدرك أن وجوده له غاية مثلى وفيه حكمة عظمى وهذا يدفعه ليصل في النهاية الى الايمان مبعث شجرة الخير التي من تفيأ تحت ظلالها كان له الأمان والفوز في الدارين وهذا يعطينا أن الابتلاء طريق لاعداد الانسان الذى لم يغفل عن سر وجوده في الدنيا بحيث يهيئ نفسه كي تصل الى السعادة السرمدية بعد فترة الامتحان.

---

(١) سورة الاعراف آية : ٣٠ .

٨ - للوصول الى ذلك منّ الله على الانسان بما يمهد له سلوك طريق النجاح فرزقه العقل المدرك من خلال ما يبصره أو يسمعه ومن عليه بالوحي ارشادا وبيانا لكيفية العبادة التي يجد الانسان السوى نفسه مفطورة عليها . وتبيانا لمواطن الجزاء لمن اتبع الهدى حيث آمن بخالقه وخضع له بناء على ما بلغه من مأمورات ومنهيات فأخبر الوحي بجنة فيها نعيم مقيم لمن اتقى كما أخبر بنار فيها عذاب أليم لمن خالف طريق الحق وغلب جانب العصيان على جانب الطاعة.

٩ - شاءت ارادة الله وحكمته البالغة أن تكون مواطن الابتلاء في ميدانـي الخير والشر .

ففي ميدان الخير بالصبر على الطاعة من حيث امتثال أمر الله واجتناب نهيه.

وفي ميدان الشر بالصبر على ما يلقى الانسان من مكاره ومصاعب .

وكل من الخير والشر . سواء المادى منها أو المعنوى تتفاوت درجاته من الأعلى الى الأدنى فيقع الابتلاء بهما كمن دعي الى الايمان وهو أعلى الخيرات ومنطلقها . وكمن أعطى المال وهو أدنى خيرات الدنيا .

وفي الحالين المرء مبتلى : هل ينقاد لطاعة الخالق ويعترف بالنعمة لمن مده بها أم ينكرها ويمتنع من اداء الحقوق الواجبة فيها فتكون عليه نقمة ، كما أنه مبتلى أيضا هل يتذرع بالصبر حينما يصاب بنوع من أنواع الشر كالفقر والمرض فيحتسب معتمدا على الله راجيا منه الجزاء الاوفى بالعاقبة الحسنى أو بجزع فيغفل عما هو فيه من نعم لا تحصى ملتفتا الى القليل مما قد أصابه وأخطأ غيره فينقلب انسانا حقودا ناصبا العداء لمن يتمتع بما لم يصل اليه هو .

١٠ - الانسان بمعايشته للخيرة تارة ، وللشر أخرى قد يصل - إن كان من الذين لم يسلكوا طريق العناد والجحود - إلى ادراك سبيل الهدى فيقدر للمنعم قدره بشكره بالاذعان والخضوع لما يصله من أوامر ونواه من عنده ويلتجيء الى ربه حينما تحيط به المكروهات طالبا كشفها ومتذكرا نعم الله عليه .

١١- بذلك يقدر الانسان النعم حق قدرها ومن ذلك يتميز الذين يشكرون في حال النعم فيجتنبون الطغيان والكفران. والذين يصبرون عندما يشتد بهم البلاء وتعلو رؤوسهم المحن. من الذين يطغون في الرخاء ويتسخطون في الشدة والبلاء فيقعون بذلك في طريق الخسران .

١٢- الذين شكروا في حال النعمة وصبروا في حال النقمة هم الذين أحسنوا الخلافة . وهم الذين تعطى لهم القيادة باحسانهم العمل حينما صبروا في وقت الترف والنعمة. يقول عز من قائل ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ﴾. (١)

١٣- ولوصول تلك الدرجة كان لزاما أن يعد الانسان ويتربى بمعايشته للخير مرة وللشر مرة وليكون الانسان على علم بميادين الخير والشر فيميز بينهما منّ الله عليه بنعمة التكليف، فابتلاه بما هو ضرورى لاكتساب مصالحه وبما هو لا استغناء لأحد عن تعاطيه من أعمال تجعل حياة الانسان في مأمن من الفساد والانحلال وينال الخيرية التي جاءت في قوله عز وجل ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية ﴾. (٢)

---

(١) سورة النور آية : ٥٥.
(٢) سورة البينة آية : ٧.

١٤ - إن الله ابتلى الانسان بما رغبه فيه من خيرات ووعد عليها بالثواب ، وبما بين له من شرور ونهاه عن ارتكابها وأوعده بالعقاب على مخالفة نهيه بارتكابها . والواقع المشاهد أن الذين امتثلوا وسلكوا الطريق الذى يحافظون به على التكريم الذى من الله به عليهم من خلال ما كلفوا به من أعمال هي في الحقيقة سياج لهم من أن تضيع انسانيتهم كانت حياتهم في استقرار وثبات على المبدأ الحق مما سيفوزون به من حياة ، أعلى وأخلد في الاخرة بخلاف الذين ضلوا السبيل بمكابرتهم وعدم امتثالهم فيما أمروا به من أعمال يستطيعون اكتسابها بارادتهم الحرة. أعمال هي لهم بمثابة الحصن من الوقوع فيما يدمرهم فيخسرون الحياة الكريمة الدائمة في دار الجزاء . ومن هنا استحقوا أن يوصفوا بالشر كما قال عز وجل * إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية *(١) كما كانوا أيضا من حيث التشبيه في مصاف الحيوان وذلك ما نطق به القرآن في حقهم لما قال * ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون *.(٢)

وهذا الصنف وقعوا فيما قد وقعوا فيه حينما أطاعوا الشيطان الذى حذرهم رب العزة والجلال من اتباعه فيما يوسوس به لهم ويزينه في طريقهم . وأخذ عليهم العهد بعدم اتباعه . يقول عز وجل بصدد التقريع والتبكيت للخاسرين في الآخرة * ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم. ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون *.(٣)

---

(١) سورة البينة آية ٦.
(٢) سورة الأعراف آية ١٧٩.
(٣) سورة يس آية ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢.

١٥ - اتباع الشيطان ناتج من اطلاق الانسان العنان لهواه ، لأنه اذا لم يقيد هواه بتعاليم التكليف أوقعه فيما لا تحمد عقباه بحيث يضله عن سبيل النجاة فيقع في الظلام المانع من الاستبصار ،يؤيد ذلك ما جاء في القرآن الكريم ﴿ أفرءيت من اتخذ الهه هواه وأضله الله على علم و ختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون ﴾(١).

١٦ - أبواب الهوى التي يبتلى منها الانسان كثيرة ومتنوعة الا أنها تتفرع من أمرين : جعلهما الله ركيزة في استمرار الحياة وقوامها : المال والولد ، فالمال قوام الحياة في حركاتها ،وزينتها المحببة للنفوس، والولد ضروري في استمرار وجود البشر في هذه الأرض . ومن هنا ابتلى الانسان بهما فاما أن يظهر العمل الحسن بتأدية الحقوق الواجبة فيه شاكرا نعمة المعطى وإما أن يظهر العمل السيء فيبطر النعمة لصاحبها بعدم الامتثال فيما أوجب عليه من حقوق .

وانسان آخرحرم من نعمة المال فابتلى بالفقر . وذلك أيضا لاظهار صبره وثباته بالتضرع الى الله وسؤاله ما عنده معتقدا أن الحالة التي هو عليها هي الأصلح له والأسلم بناء على حكمة الحكيم. وإما أن لا يصبر فيظهر جزعه بخروجه عن الطريق الحق الذى ينبغي للانسان المكلف التحرك فيه فيخطيء الضوابط التي أقيمت لتحديد ما ينبغي من تعامل بين الناس في جلب غايتهم وقضاء شهواتهم.

١٧ - الانسان الكامل أمام هذه الوقائع لا يمكن أن يجعل المال هو أساس القيم والمفاضلة بين الناس بدليل أن المال قد يوجد عند من وصفهم الله بالشرية ومن هنا يخطيء الذين يتعاملون مع غيرهم على هذا النحو فيقلبون القيم رأسا على عقب وبذلك تضحي

---

(١) سورة الجاثية آية ٢٣.

المجتمعات التي يسود فيها هذا الخطأ الى وحشية ضارية تفقد منها الرحمة وتلبس ثوب الرذيلة . ولا نصيب فيها لأصحاب الفضيلة الى درجة أن الحاكم في مثل هذه المجتمعات يقلب القضايا في سبيل المال الذى جعله ميزانا لتحركه يجعل الحق باطلا والباطل حقا فيختل المجتمع كله بانتشار الظلم وتصبح الكلمة لصاحب المال . فجر أم فسق .

١٨ - وكذلك نعمة الولد حينما يرزق الانسان به قد يتابعه في كل ما يريد ارضاء له ولو كان ما أراده يؤدى خللا في الحقوق الواجبة عليه بأن يدفعه حب الولد للعصيان والتمرد عما يطالبه به التكليف من أوامر ونواه . هذا من جهة ومن جهة أخرى قد يفرط الأب في حقوق الولد الواجبة في تربيته فيهمله غير مبال بالصفة التي ينشأ عليها . وهنا الطامة الكبرى والفاجعة المظلمة اذ اهمال الولد ينتج عنه تدمير حياته في الدنيا والاخرة فكم من ولد انغمس في الرذيلة بسبب اهمال الآباء له مما يجعل الأب متحملا مسئولية خسران ولده . فتكون الجناية على الأب والابن ، ذلك كله ظاهر في جانب الابتلاء بالخير .

١٩ - الانسان قد يبتلى بما هو أيضا ضار في الظاهر مفيد ومصلح في الباطن وذلك لاظهار حقيقته الايمانية فيكشف عمن هو صادق في مواقفه بأن يتأكد للعيان موافقة باطنه لظاهره وبين من ينهار وحينئذ يميز بين المؤمن الحق بتحمله للمكروهات وبين الانسان الذى يتلون ويتقلب مع شهواته ، يرى الحق حيث يحصل مآربه ويلبى نوازع لذاته ،ومن كان كذلك لا يصلح لحمل تعاليم الاصلاح للمجتمع البشرى .

٢٠ - المؤمن لا يبالي بما يصيبه من المكروهات التي تثنيه عند المضي في طريق الحق أوتجعله يجحد النعم التي لم تنفك عنه والتي لا يستطيع عدها ولكنه يرى مصلحته فيما يصيبه من مكروهات بين الفينة والفينة في حياته ويراها من جملة الكائنات التي أراد الله اخراجها من العدم . ومن هنا هو يعطى اهتمامه للتعاليم الالهية التي أنزلها الله حفاظا على كرامة الانسان. ولا يشغل نفسه بقول لماذا وقع كذا بعد أن يقع ولكن موقفه من المكروهات التحمل بقلب راض معتقدا الحكمة والمصلحة فيما وقع .

٢١ - بينما الكافر لما فقد تكريمه بتنكره للأوامر والنواهي يرى تقلبه في الحياة كلها مشحونا بالاضطراب وعدم التوازن فحينما يبتلى بالنعم تجده بطرا منوعا ومتسخطا عندما يبتلى بالمصائب كما يصدق ذلك قوله تعالى * إن الانسان خلق هلوعا إذا مسه الشر جزوعا واذا مسه الخير منوعا *.(١)

فكفر الانسان بخالقه أعظم جرم يرتكبه الانسان ولذلك لا جزاء له الا النار . ومن هنا قد نرى الكافر في حياته قلما يعرض للمكروهات بالنسبة للانسان المؤمن الذى كلما ترقى في الايمان كلما تعرض لأقسى الاختبارات بدليل أن الصفوة من البشرية ـ وهم الأنبياء ـ يتحملون الشدائد والصعاب ، لأنهم أئمة الهدى ورسل الله بالأمر والنهي للناس . فامتحنهم الله بضروب المحن وفنون البلايا زيادة في منزلتهم ورفعة في مراتبهم ولاظهار حالاتهم في الصبر على البلاء والجهاد مع الأعداء ، ولاظهار رضاهم بما قضى الله عليهم من السراء والضراء . والشكر على النعماء والآلاء ولاظهار التسليم في الأمور والتوكل في الصدور ،

---

(١) سورة المعارج آية ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ .

والاعتماد على رب العباد فيما أراد ، ولاظهار حاجاتهم بالدعاء والرجاء.
والتضرع منهم حال الاستدعاء والاستكفاء . وبالتالي تذكرة لمن دونهم
في المنزلة . وموعظة لسواهم ليتأسوا بهم والصبر على البلاء ويقتدوا
بهم في الالتجاء الى الله كما قيل :

هو المهرب المنجى لمن أحدقت به مكاره دهر ليس عنهن مذهب (١)

وأيضا ابتلاهم لمحو ما صدر عن بعضهم من غفلات وما سلف منهم من نسيان
ليكون أجرهم أكمل وثوابهم أوفر وأجزل .

وهكذا تبين ان الله ابتلى رسله بالمرسل اليهم والمرسل اليهم المدعوين
للايمان بالرسالة ، فجعل الله سبحانه أولياءه ابتلاء لأعدائه ، وأعداءه
ابتلاء لأوليائه وذلك كله لاظهار فضيلة الصبر والرضا والتوكل والجهاد
والعفة والشجاعة والحلم والعفو . وليتم العطاء على ملاك ذلك كله
وهو الايمان لأن العطاء عليه لا يفوقه عطاء أو اكرام.

٢١ - اعتقاد الانسان ترتب المصائب على اقتراف الذنوب
كما قال عز وجل ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن
كثير ﴾ (٢) يجعل الانسان يشغل نفسه بالاستغفار الذى هو أعظم
الأسباب في دفع تلك المصائب .

٢٢ - العلم بأن البلايا دواء نافع ساقه الله لتكفير الذنوب
ما كانت تمحا لولاه يفيد أن عقبى المصائب في صالح الانسان المرء من
بحيث يعفى عنه ، وهذا في حد ذاته خير وحسنى كما قال عز وجل
﴿ فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا ﴾ (٣) وكما قيل :

لعل عتبك محمود عواقبه وربما صحت الأجسام بالعلل (٤)

---

(١) البيت من بحر الطويل .
(٢) سورة الشورى آية ٣٠.
(٣) سورة النساء آية ١٩.
(٤) البيت من بحر البسيط.

كما يفيد أيضا أن الشدائد جاءت لتمتحن صبر المرء من وتبتليه فيتبين هل هو من أولياء الله وحزبه أم لا .

فان ثبت اجتباه الله وألبسه ملابس الفضل والاكرام ، وان انقلب على وجهه ، ونكص على عقبيه تضاعفت عليه الشدائد وهو لا يعلم ،

* ربنا لا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين * .

فهرس الموضوعات

فهرس موضوعات الرسالـــة

الموضـــوع	الصفحة

الباب الثاني

الابتلاء بالخير والشـــــر

الموضوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحـة
امتحان نبي الله نوح من جهة الولد	٢٣٢
لا رابطة بدون ركيزة العقيدة	٢٣٥
ابتلاء ابراهيم عليه الصلاة والسلام	٢٣٦
موقف نبي الله ابراهيم حينما رمي به في النار	٢٣٧
ابتلاء نبي الله ابراهيم بالتضحية بولده	٢٣٨
ابتلاء نبي الله يعقوب بفقد ولديه	٢٤٠
ابتلاء نبي الله يوسف من جهة الشهوات	٢٤٢
نبي الله يوسف يختار السجن مقرا على مخالفة التكليف	٢٤٧
حفظ يوسف لأوامر الله يبوءه مكانة عالية	٢٤٧
نبي الله يوسف يقابل اخوته بالصفح الجميل وهو قادر على الانتقام	٢٤٩
ابتلاء نبي الله موسى عليه السلام	٢٤٩
القاء موسى في البحر ليتم هدم بيت الطغيان من داخله	٢٤٩
نبي الله موسى يحارب الظلم ولو كان من قوم الحاكم	٢٥١
نبي الله موسى يقف الى جانب الضعفاء دون طمع	٢٥٢
ابتلاء نبي الله داود من جهة النعم	٢٥٤
ابتلاء نبي الله داود من قبل الفصل في القضاء	٢٥٦
ابتلاء نبي الله سليمان من قبل النعم	٢٥٩
نبي الله سليمان يبتلى أيضا من باب الحرمان	٢٦٣
ابتلاء نبي الله أيوب بالنعم فشكر وبالنقم فصبر	٢٦٥
ابتلاء نبي الله يونس	٢٦٨
ابتلاء خاتم النبيين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم	٢٧١

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

مراجع الرسالة حسب حروف المعجم

- القرآن الكريم .
- أحكام القرآن للحافظ أبي بكر محمد بن عبدالله المعروف بابن العربي ،
الطبعة الحلبية مصر.
- ارشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود محمد العمادى
نشر دار المصحف القاهرة .
- أسد الغابة في تعريف الصحابة لعز الدين المعروف بابن الأثير ،
طبعة الشعب القاهرة.
- اصلاح المنطق لأبي يوسف المعروف بابن السكيت ،
مطبعة دار المعارف مصر.
- أضواء البيان لمحمد الأمين الشنقيطي ،
الطبعة الثانية ١٤٠٠.
- اقتصادنا لمحمد باقر الصدر ،
طبع دار الكتاب اللبناني بيروت.
- الأحكام في أصول الاحكام للحافظ أبي محمد علي بن حزم الأندلسي،
مطبعة العاصمة القاهرة.
- البحر المحيط لمحمد بن يوسف أبي حيان الغرناطي ،
نشر دار الفكر بيروت .
- البداية والنهاية لابي الفداء اسماعيل بن كثير القرشي ،
نشر مكتبة دار التراث القاهرة .
- البرهان في أصول الفقه لامام الحرمين عبدالملك المعروف بالجويني ،
توزيع دار الأنصار قطر .
- التفسير الكبير ومفاتيح الغيب لفخر الدين محمد الرازى.
نشر دار الفكر بيروت .

- الثقات للحافظ محمد بن حبان البستى ،
الطبعة الاولى حيدر آباد .
- الجامع لأحكام القرآن لأبي عبدالله محمد بن أحمد القرطبي ،
نشر دار الكتاب العربي القاهرة.
- الجرح والتعديل لعبد الرحمان بن أبي حاتم الرازى ،
نشر دار الكتب العلمية ببيروت .
- الحسنة والسيئة لشيخ الاسلام أحمد بن تيميه ،
مطبعة المدني القاهرة.
- الشفاء في شمائل صاحب الاصطفاء للقاضي عياض ،
مطبعة المدني القاهرة.
- الفائق في غريب الحديث لأبي القاسم جار الله محمود الزمخشرى ،
الطبعة الحلبية مصر .
- الفتاوى لشيخ الاسلام ابن تيمية ،
الطبعة الأولى .
- الفصل في الملل والنحل لأبي محمد علي بن حزم الأندلسي ،
نشر دار عكاظ جدة .
- القاموس المحيط لمجد الدين الفيروزأبادى ،
الطبعة الحلبية .
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل لأبي القاسم
جار الله محمود الزمخشرى ،
نشر دار المعرفة بيروت لبنان .
- الكواكب النيرات في معرفة من اختلط من الثقات لأبي البركات محمد
ابن أحمد المعروف بابن الكيال ،
الطبعة الأولى .
- المحرر الوجيز للمفسر عبد الحق بن عطية الأندلسي ،
طبعة قطر .

- المستدرك على الصحيحين لأبي عبد الله محمد الحاكم ،

نشر دار الفكر ببيروت .

- المستصفى لأبي حامد الغزالي ،

الطبعة الأميرية القاهرة.

- المصباح المنير لأبي العباس أحمد المقرى ،

نشر دار الكتب العلمية ببيروت.

- المفردات في غريب القرآن لأبي القاسم الحسن المعروف بالراغب الأصفهاني ،

الطبعة الحلبية القاهرة.

- الموافقات في أصول الشريعة لأبي اسحاق ابراهيم الشاطبي ،

نشر دار المعرفة ببيروت.

- المواقف للايجي ،

نشر مكتبة الأزهر .

- الوحي المحمدى لرشيد رضا ،

مطبعة المكتب الاسلامي .

- النهاية في غريب الحديث والأثر لمجد الدين مبارك المعروف بابن الأثير ،

نشر دارالفكر ببيروت .

- انوار التنزيل لأبي سعيد عبد الله البيضاوى ،

نشر دار صادر ببيروت .

- ايثار الحق على الخلق لأبي عبد الله محمد المعروف بابن الوزير ،

نشر دار الفكر بيروت .

- تاج العروس لمحمد مرتضى الزبيدى ،

نشر مكتبة الحياة ببيروت .

- تاريخ ابن معين تحقيق الدكتور أحمد نور سيف ،

الطبعة الأولى ١٣٩٩ .

- تأويل مشكل القرآن لأبي محمد مسلم بن قتيبة ،

الطبعة الثانية دار التراث القاهرة .

- تعريف أهل التقديس بمراتب الموصوفين بالتدليس للحافظ أحمد بن حجر ،
نشر دار الكتب العلمية ببيروت .

- تفسير القرآن العظيم لابن كثير أبي الفداء اسماعيل ،
نشر مكتبة دار التراث القاهرة .

- تقريب التهذيب للحافظ أحمد بن حجر العسقلاني ،
الطبعة الثانية ١٣٩٥هـ .

- جامع البيان عن تأويل القرآن لأبي جعفر محمد بن جرير الطبرى ،
نشر دار المعارف القاهرة.

- حاشية سليمان بن عمر العجيلي على الجلالين ،
الطبعة الحلبية .

- دفع ايهام الاضطراب عن آيات الكتاب لمحمد الأمين الشنقيطي ،
الطبعة الثانية .

- ديوان الخنساء ، طبع دار بيروت للطباعة والنشر ١٣٩٨هـ.

- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لأبي الفضل محمود
الألوسي ، نشر دار الفكر بيروت.

- زاد المعاد في هدى خير العباد لأبي عبد الله محمد بن قيم الجوزية ،
الطبعة الحلبية الثالثة ١٣٦٩هـ.

- سنن أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي بشرح السيوطي ،
نشر دار الفكر بيروت.

- سنن أبي داود سليمان بن الأشعث بشرحها عون المعبود ،
نشر دار الفكر بيروت.

- سنن أبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذى بشرحها تحفة الأحوذى ،
نشر نشر دار الفكر بيروت.

- سنن أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني المعروف بابن ماجه ،
بتحقيق الأعظمي الطبعة الأولى .

- سيرة أبي محمد عبد الملك المعروف بابن هشام ،
الطبعة الحلبية الثانية ١٣٨٥هـ القاهرة.
- شرح الطحاوية في العقيدة السلفية لعلي بن علي المعروف بابن أبي العز ،
مطبعة العاصمة القاهرة .
- شرح مسلم ليحيى بن شرف النووي أبو زكريا ،
نشر دار احياء التراث بيروت.
- شرح منهاج الوصول في علم الأصول لجمال الدين عبد الرحيم الأسنوى ،
مطبعة صبيح مصر .
- شفاء العليل لأبي عبد الله محمد بن قيم الجوزية ،
نشر مكتبة دار التراث القاهرة .
- صحيح الامام أبي عبد الله محمد بن اسماعيل البخارى بشرحه فتح البارى
نشر وتوزيع دار الافتاء الرياض .
- صحيح مسلم أبي الحسين بن الحجاج النيسابورى ،
نشر مؤسسة الطباعة القاهرة .
- طبقات المفسرين لمحمد بن علي بن أحمد الداودى ،
نشر مكتبة وهبة القاهرة .
- عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوى لشهاب الدين أحمد بن
عمر الخفاجي . نشر دار صادر بيروت .
- فتح البارى شرح صحيح البخارى للحافظ أحمد بن علي بن حجر ،
نشر وتوزيع دار الافتاء الرياض .
- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير لمحمد بن علي
الشوكاني ،نشر دار المعرفة بيروت.
- في ظلال القرآن للسيد قطب ،
مطبعة دار العلم والنشر جدة .



- قصص الأنبياء لأبي الفداء اسماعيل بن كثير ،
الطبعة الأولى ١٣٨٨هـ.

- لسان العرب لأبي الفضل محمد المعروف بابن منظور ،
نشر دار صادر بيروت .

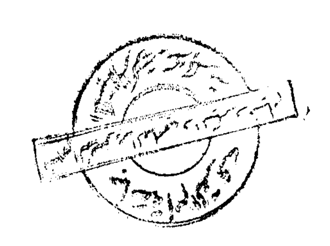
- مجموعة الرسائل الكبرى لشيخ الاسلام بن تيميه ،
مطبعة صبيح القاهرة .

- مدارج السالكين لأبي عبدالله محمد بن قيم الجوزية ،
مطبعة السنة المحمدية القاهرة.

- مراقي السعود بشرحه نشر البنود لعبدالله بن ابراهيم الشنقيطي ،
مطبعة فضالة المحمدية المغرب .

- مسند الامام أحمد بن حنبل الشيباني ،
نشر المكتب الاسلامي بيروت.

- مصباح الزجاجة للحافظ البوصيرى ،
نشر دار العربية بيروت .



- معاني القرآن لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء ،
الطبعة الثانية .

- معجم مقاييس اللغة لأبي الحسن أحمد بن فارس ،
الطبعة الثانية ١٣٨٩هـ .

- مقدمة أبي زيد عبد الرحمان بن خلدون ،
الطبعة الأولى بالمطبعة الخيرية القاهرة.

- ميزان الاعتدال في نقد الرجال لأبي عبدالله محمد بن أحمد الذهبي ،
الطبعة الحلبية .

- ميزان العمل لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي ،
الطبعة الأولى دار المعارف مصر .

فهرس الأبيات الشعرية

البيت		الصفحة
حصان رزان ما تزن بريبة	وتصبح غرثى من لحوم الغوافل	١٨٧
حليلة خير الناس دينا ومنصبا	نبي الهدى ذى المكرمات الغواضل	
عقيلة حي من لؤى بن غالب	كرام المساعى مجدهم غير زائل	
مهذبة قد طيب الله خيمها	وطهرها من كل سوء وباطل	

• • • • •

ولا عائذ ذاك الزمان الذى مضى	تباركت ما تقدر يقع ولك الشكر	٢٦٩

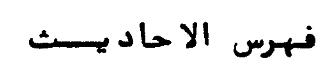
• • • • •

هو المهرب المنجي لمن أحدقت به	مكاره دهر ليس عنهن مذهب	٢٢٧

فهرس الأحاديث



فهرس الاحاديث



فهرس الاحاديث